هشام شرابي

الرحلة الأخيرة



هشام شرابي

الرحلة الأخيرة

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار
بلفدير. الدار البيضاء 05 ـ المغرب
الهاتف : 24.06.05/42

تَمَّ نشْرُ هَذَا الكِتَاب ضِمْن سِلْسِلة
ذاكرة الحاضـر

الطبعة الأُولى، 1988

رقم الإيداع القانوني : 1988/642

جرت أحداث هذه الرّواية في الفترة الواقعة بين صيف 1969 وربيع 1975، وكلّها تعتمد أشخاصاً ووقائع حقيقية.

في ذكــرى «أبُـو عـمــر»

مقدمة

لست روائياً. واختياري أُسلوباً روائياً لتسجيل الوقائع الواردة في هذه الرواية «الوثائقية» لتجربة الثورة الفلسطينية في مرحلتها الذهبية 1969 ـ 1975، فرضته عليّ التّجربة ذاتها والظروف التي ربطتني بها.

إن «التاريخ» أو سرد الوقائع «كما حدثت بالفعل»، إنّما هو ضَرْبٌ من القِصّة، والادّعاء أَنّ هذا السّرد هو «حقيقة» ما جَرى لا يغيّر من «روائِية» التاريخ. لقد بتْنَا ندركُ منذ انبثاقِ التّفسير النّقدي الحديث للمعرفة، وبخاصّة للمعرفة التّاريخية، أَنّ الحقيقة، ولاسيما الحقيقة التاريخية. صعبة المنال لاَ لأَنّها مبهمة أو ناقصَة التّوثيق، بل لأَنّها بطبيعتها «لغوية» تحكمها قوانين اللّغة والتّعبير مثلما تحكمها متغيّرات المكان والزمان. ومهما اعتمدنا المصادر والوثائق سنداً لبحوثنا «العلمية» و «الموضوعية» فهي ليست في آخر الأمر إلا تعبيراً عن الواقع الذي نحياه والتّجربة التي نمرّ فيها.

وإذا كان الأَمر كذلك، فلماذا التّخوف من استعمال الأُسلوب الأَدبي لعرض التّجربة التاريخية ؟ أَليس من شأن أُسلوبٍ كهذا يجمع بين الطّرفين (الأَدبي والوثائقي) وأن يضفي على الوقائع وتجاربه بعداً حياتياً يستمدّه من حيوية التّجربة المباشرة ؟

هناك ناحية أُخرى دعتني إلى اختيار هذه المقاربة «الحياتية» في الأُسلوب، وهي رغبتي في التّحدث فقط عمّا اختبرته بنفسي أو كان لي معرفة ذاتية وثيقة به. قد يكون هذا الاختبار جزئياً أو جانبياً، (ولعلّه كذلك) لكنّه في الوقت ذاته اختبارٌ ينبثق من صميم المعاناة الفلسطينية في إحدى مراحلها المصيرية، وهو بهذا يضفي على أحداثها ضوءاً ساطعاً لا يمكن أن يحقّقه أي سرد تاريخي مهما كان علمياً ودقيقاً.

والآن كلمة موجزة حول **أشخاص** و **وقائع** و **حوار** هذه الرواية الوثائقية.

كل أشخاص الرّواية حقيقيون عرفتهم بنفسي، منهم من عرفته عن قرب ولمدّة طويلة، ومنهم من التقيت به للمرّة الأولى أو عدّة مرّات أثناء هذه الفترة. بالطّبع الأسماء مستعارة، لكن أولئك القرّاء الذين عانوا هذه المرحلة عن كثب في الأغوار وجنوب لبنان، وفي عمّان وبيروت، لابدّ أن يكتشفوا هوية الأشخاص الذين أتحدّث عنهم. فقط الأشخاص في الأرض المحتلّة (الفصل الثاني) لم يكن لي معرفة مباشرة بهم. عرفتهم فقط من خلال ما روي لي عنهم وعن الأحداث والتّجارب التي مرّوا بها، فنقلتها كما رُويت لي من ضمن إطار قصصي. لذا فقد سمحت لمخيلتي في ذلك الجزء من الرّواية أن ترسم شخصيات هؤلاء الأفراد حسب ما صوّرها لي الذين عرفوهم أو عرفوا عنهم. من هنا كانت هذه الشخصيات خيالية من ناحية وحقيقية من ناحية أخرى.

ما ينطبق على الأشخاص ينطبق أيضاً على الوقائع والحوار. فكل الوقائع التي أرويها في هذه الصّفحات، ما عدا وقائع الأرض المحتلّة، اختبرتها بنفسي مباشرة أو عن كثب أو تحقّقت منها من مصادر موثوقة، كالتي تتناول عبور النّهر، مثلاً، أو تلك التي تصف أسلوب التّنقّل في الأرض المحتلّة خلال السنوات الأولى من الاحتلال.

أما الحوار فهو نتيجة ما سمعته بنفسي أو ما نُقِلَ إليّ، فأعدتُ صياغته باللّغة والأسلوب الأقرب إلى الأصل. هناك مواضيع بحثت في جلسات وأماكن مختلفة، وضعتها هنا في جلسة واحدة، وحوارات طويلة اختصرتها أو نقلت أهمّ ما فيها في لقاء حواري واحد أو أكثر. كان هدفي من كلّ هذا رسم صورة صادقة ومتكاملة لما حدث لأولئك الأشخاص الذين ساهموا بقدر أو بآخر في المقاومة الفلسطينية في فترتها الأولى : منهم من كان في مركز القيادة، ومنهم من كان في موقع القتال أو المجابهة أو النشاط الإعلامي، منهم من ما زال حيّاً ومنهم من استشهد ومنهم من اختفى.

هشام شرابي

واشنطن، اغسطس، 1987

الفصل الأَول

الأَغْــوَار

1

أمضَى اللّيل في نومٍ متقطّع واستيقظَ على صوت المُؤذّن في المسجد القريب من البيت. السّفر بالطّائرة يقلقه ويمنعه من النّوم العميق. فتح عينيه في الظلمة وقد فارقَه النّعاس. وعندما أيقَن أنّه لن يستطيع العودة إلى النّوم، قام إلى الحمّام، وأضاء النّور. كانت السّاعة الخامسة والرّبع. ووقف أمام المرآة يتأمّل وجهه التّعب : الأفكار السّوداء تأتي دائماً مع الفجر.

وضع شفرة جديدة في آلة الحِلاقة ودهن وجهه بالصّابون وأخذ يحلِق. «دع الأُمور تأخذ مجراها». قوله دوماً كلّما جابهته أفكار آخر اللّيل.

أخذ دوشاً بالماء البارد ثم ارتدى ملابسه وجلس في الشّرفة ينتظر طلوع الشمس، وكان الفجر قد بدأ يلوّن تلال عمّان بلون أحمر غامق.

ـ بتْرِيد فنجان قهوة يا سيدي ؟

أجفله صوت الخادمة، واستدار، وأجابها بهدوء :

ـ سكّر قليل وكبّاية ميّ.

شرب قهوته بسرعة. وجلس يقرأ في الضوء الخافت الكتاب الذي بدأ قراءته اللّيلة السّابقة في قاعة الانتظار في مطار نيويورك. واستمرّ في القراءة قدر استطاعته ثم وضع الكتاب جانباً. عاوده الإحساس بالقلق.. قلق عميق طاغٍ، لا يعرف مصدره.

نظر إلى ساعته. قاربت السّادسة والنّصف. موعده في السّاعة السّابعة. قام إلى غرفة النّوم ووضع كتابه فوق الطّاولة الصّغيرة بجانب السّرير وتناول نظاراته السّوداء وسار دون أن يحدث صوتاً إلى الباب الخارجي. في الشارع المقفر طالعته الفيلات الفخمة. الكل نيام..

يحقّ للأغنياء النوم ملء أجفانهم. وسار إلى الدّوار، وعندما لم يأت تاكسي سار إلى فندق الأردن ووجد سيارة تاكسي وحيدة أمام المدخل، وقال للسّائق :

ـ جبل اللويبدة.

وجلس في المقعد الخلفي وسأل السّائق :

ـ أتعرف مكتب الجبهة ؟

ونظر إليه سائق التاكسي من خلال المرآة الخلفية : حسبه أجنبياً، لكن عربيته كانت أصيلة لا لكنة أجنبية فيها.

ـ نعم أعرفه.

وسارت السيارة مسرعة في الشوارع الخالية ثم توقّفت في شارع ضيّق أمام بيت تحيط به حديقة صغيرة.

قال السّائق :

ـ هذا هو المكتب.

ونزل من السيارة، وأعطى السّائق أجره ودخل الحديقة وقرع الباب.

ـ أدخل. الباب مفتوح.

دفع الباب، ودخل إلى قاعة خالية من الأثاث، ما عدا طاولة خشبية جلس إليها شاب في العشرينات من عمره، بلباس خاكي ومسدّس في وسطه.

نظر إليه الشّاب وقال وهو ينهض من مقعده :

ـ دكتور مخلص ؟

ـ نعم.

ـ أهلاً، نحن بانتظارك.

ومد يده مصافحاً.

ـ السيارة جاهزة، سأرافقك بنفسي. أنا باسم حميد.

سارت بهما سيارة الڤوكسڤاكن الصغيرة في طريق القدس القديمة. كانت الشّمس قد علَت في الشّرق وامتلأ الشّارع العام بالسيارات والباصات. عند مخيّم البقعة أوقف باسم السيارة أمام كوخ يقع قريباً من الشارع وقال :

ـ عن إذنك لحظة، أريد التّأكّد من أنّهم ينتظروننا.

وجلس مخلص في السيارة ينظر إلى المخيّم. كان المخيّم مؤلّفاً من آلاف الأكواخ المصنوعة من الطّوب والمسقوفة بالزينك. رأى أطفالاً يلعبون في زقاق ضيّق يسري في

وسطه مجرى مكشوف. ولفت نظره أمام خيمة نصبت بجانب الشارع امرأة عجوز تفرك وعاء بالتّراب وطفلة تسكب لها الماء من إبريق فخاري، وبالقرب منها امرأة تطبخ على نار حطب.

عاد بَاسِم وأدار محرّك السّيارة. وسأله مخلص بعد أن سارت السّيارة، عن عدد اللاّجئين في المخيّم.

- هذا مخيّم جديد للاّجئين الـ 67.. لم يجر إحصاء بعد. تقديري حوالي أربعين ألف على الأقلّ.

اتّجهت السيارة شمالاً، وأخَذَتْ تصعد الطّريق المؤدّي إلى جرش والأحراش.

وقال بَاسِم :

- سنتوقّف أولاً لزيارة مجموعة في الأحراش، وبعد ذلك ننزل إلى الأغوار.

وبعد حوالي نصف ساعة انعطفت السّيارة عند سفح تلّة تكسوها الأشجار في طريق غير معبّدة وانتهت بعد حوالي كيلومتر إلى طريق مسدود.

قال باسِم وهو يطفئ المحرّك :

- الطّريق تنتهي هنا. من هنا وطالع علينا أن نسير على الأقدام.

وسار باسِم بين الأشجار وتبعه مخلص إلى أو وصلا إلى مكان مرتفع تحيط به صخور عالية ويطلّ على الأغوار ومن ورائها أعلى جبال فلسطين. وفي ظلّ الصّخور جلس عدد من الشّبان في الملابس المرقّطة يستمعون إلى رجل يحدّثهم بصوتٍ خافت. وقال باسم :

- لنجلس في الظّل ريثما ينتهون.

وأسند مخلص ظهره إلى جذع شجرة ومدّ رجليه بارتياح. أحسّ بالتّعب، وفي نفس الوقت بانتعاش غريب. كانت السّماء زرقاء تعجّ بالغيوم البيضاء تتناثر كالصوف.. سماء فلسطين.

وسمع صوت بَاسِم يناديه :

- هيا دكتور.. سنتناول لقمة طعام مع المجموعة وتتعرّف على أفرادها.

كانت السّاعة قد بلغت التّاسعة. يومهم يبدأ باكراً، كما بدأ يوم مخلص، ويتناولون الفطور متأخرين.

جلسوا على الأرض حول قدر معدني وأمام كلٍّ منهم صحن نحاسي، فيه قطعة جبنة وقليل من المربّى، وجعلوا يأكلون. كانوا تسعة أفراد جميعهم في مطلع العشرينات، بالإضافة إلى المثقّف السياسي الذي كان في الثلاثينات أو أكثر. ثلاثة منهم كانوا يدرسون في اسبانيا، تركوا دروسهم وانضمّوا إلى المقاومة بعد معركة الكرامة.

سأل مخلص المثقّف السياسي عن التّدريب :
- ينقصنا المدرّبون العسكريون.
وقاطعه بَاسِم قائلاً :
- لكن التدريب الصّحيح هو في الممارسة.
وقال المثقّف السياسي :
- الممارسة هي الأساس. لكن الممارسة دون التدريب الكافي تسبب الخسائر. الشباب يتنافسون للاشتراك في العمليات.. وندعهم يعبرون النّهر. وماذا تكون النتيجة ؟ خسائر كبيرة يمكن تلافيها.. أمس استشهد ثلاثة في مجموعة مؤلّفة من خمسة أفراد قبل أن يعبروا النّهر. وبعد العبور يتضاعف الخطر وتزداد الخسائر.
- بسبب الشريط أو الدوريات ؟
وقال المثقّف السياسي :
- الدوريات والحاجز الرّملي.
ثم التفت إلى مخلص وقال :
- الشباب كلّهم حماس. ولكن الحماس لا يكفي.. الشجاعة لا تكفي.. نحن نحارب عدواً خبيثاً متطوّراً. إن لم نرتفع إلى مستواه فسيدفعنا ثمنا لا نقدر عليه.
وقال باسِم :
- لكننا لسنا على مستواه التّكنولوجي.. نحن مثل الفيتناميين بالنّسبة للأمريكيين.. لذلك يتوجّب علينا اعتماد الأُسلوب الثّوري في القتال لا التّكافؤ التكنولوجي مع العدو.
فأجابه المثقّف السياسي :
- أدرك ذلك. إنّما أقول، يجب علينا استنباط الوسائل المجدية في القتال. وليس إلا. التّخطيط الذّكي والحماس لا يحلاّن محل الحيلة والذكاء.
وبعد انتهاء الطّعام قال باسم إنّه يتوجّب عليهما السّير.
- نرجو أن تزورنا ثانية.
- في القريب العاجل..
وعادا في نفس الطّريق إلى السيارة. وقال باسم وهما يجلسان في السيارة :
- ما رأيك بالمثقّف السياسي ؟
- بلا شك قدير.
- كان أحد أركان الحزب الشيوعي الأُردني، قضى سنوات في السّجون.

- هل ما يزال في الحزب ؟
- بعد خروجه من السجن انضمّ إلى الجبهة.. لا أظن أن له ارتباطات رسمية بالحزب..
- هل هو فلسطيني ؟
- أردني. درس في موسكو وأُوروبا الشرقية..
- أعجبني الشباب أيضاً. لكنهم لم يتكلّموا كثيراً.
- إنّهم مجموعة متميزة. كلّهم ذوو اختصاص. إنّهم يتدرّبون ليصبحوا مثقفين سياسيين.
- ولماذا لا يتدرّبون في عمّان. لماذا هنا في الجبل ؟

فنظر بَاسِم إلى مخلص مبتسماً وقال :

- يجب تثقيف المثقف نظرياً وعملياً. إنّهم يتدرّبون هنا على استعمال السّلاح وفي عمّان على النّظرية الثّورية.

وصلت السيارة إلى الأَغوار عند الظهيرة. كانت الحرارة قد ارتفعت إلى 35 درجة مئوية. وكان كلّ شيء بلون الرّماد، ليس فقط الجبال، بل السّماء أيضاً والأَرض وكل ما فوقها، حتى أوراق الشّجر والزّرع تغطّت بطبقة رقيقة من الغبار الرّمادي.

عندما وصَلاَ إلى الكرامة أوقف باسم السيارة بالقرب من شجرة جرداء أمام بيت صغير بُنِيت فوقه مئذنة. ولم يكن يسمع إلا صفير الرّيح السّاخنة التي كانت تهبّ من الشّمال، وعواء كلب من جهة النّهر. ونزلاَ من السّيارة ووقفا ينظران إلى البلدة المهجورة. كانت تتألف من أكواخ صغيرة انتشرت بلا تخطيط أو نظام على جانبي الطريق. قال باسم :

- هذه أرض المعركة.
- أين جرى الإنزال الإسرائيلي ؟
- عبر النّهر، أيضاً بالهليكوبتير، حسب اليهود إنهم في شطحه.. أكلوها منيح.
- وخسائرنا ؟
- كانت عالية أيضاً.. خاصّة بين الأهالي.. مع أن معظمهم قد اجلوا عن الكرامة قبل بدء الهجوم. البلدة دمّرت كما ترى، لكنها لم تسقط..

أول انتصار حقيقي منذ الـ 48.

وسار مخلص باتّجاه البيت ذي المئذنة الصّغيرة. كان يريد أن يستحضر في ذهنه الأحداث التي وقعت في هذه البقعة الصّغيرة وغيرت مجرى تاريخ الكفاح الفلسطيني. لم يكن حوله إلا الصّمت والغبار الذي كان يتصاعد كلّما هبّت الرّيح منتشراً كالضباب هنا وهناك.

سمع مواء قطّة فالتفت ورأى قطّة سوداء تنظر إليه بعينين خضراوين ثم تدور ببطء وتعبر الطريق العام بتأنٍّ دون أن تلتفت يمنة أو يسرة. وعاد مخلص إلى السيارة، وكان بَاسِم قد سبقه إليها، وعندما انطلقت السيارة اتّجه نظر مخلص نحو المئذنة وخيّل إليه أنّه رأى وجه رجل يطلّ من فوق حافة المئذنة، ثم يختفي. فاستدار بسرعة لينظر من النافذة الخلفية، لكنه لم ير إلا الغبار يصعد نحو المئذنة ويحجبها عن النّظر.

بعد قليل أشار باسم بيده، وهو يخفف من سرعة السّير.

ـ من هنا صعدت الآليات..

الآثار كانت ما تزال واضحة، كذلك الأكواخ المهدّمة التي احترقت.

كان الفدائيون بانتظارهم على ذلك المرتفع.. دمّروا أول المصفّحات المهاجمة وأوقعوا أول الإصابات.. سحب اليهود الآليات المعطبة وأخلوا كل المصابين كأن لم يحدث شيء.

تذكّر مخلص اليوم الذي وصل فيه خبر الهجوم الإسرائيلي على الكرامة. كان في المكتبة (مكتبة سايس) يبحث عن كتاب بين رفوف الكتب، وجاءه أحد طلاّبه العرب، وهمس في أذنه : «أُذيع التّو خبر يقول إن الإسرائيليين قد قاموا بهجوم على الضّفة الشّرقية».

تذكّر الإحساس الذي غمره. الإحساس بالحنق واليأس من كل شيء. وبعدين.. وبعدين.. لم يبق إلا أن يضعونا في أقفاص.. أن يرمونا في الصحراء.. أن يحرقونا في الأفران..

عادت إليه تلك المشاعر وهو يتأمل الجبال العالية على الضّفة الأخرى وتمتدّ خلفها طريق القدس.. وبعد ذلك رام الله، وبعد رام الله الساحل والبحر.، وبعد ذلك يافا...

2

تمهّل باسم وتطلّع إلى جهتي الطّريق، وعندما رآها خالية من السّيارات انعطف بالسيارة إلى اليسار في طريق ترابي وسار بها باتّجاه النّهر إلى أن وصل إلى ما يشبه مزرعة مهملة. كانت آثار الحراثة ما زالت بادية في الأرض المحروقة وبقايا خضروات غمرها الغبار بلون رمادي. ونزلا من السيارة، وأحسّ مخلص بنسمة هواء رطبة على وجنته، فأدرك أنّهما قريبان من النّهر.

أشار إليه باسم أن يتبعه. وسارا بين أكوام من القش والتراب إلى أن وصلا إلى مدخل أخفي وراء رزم من القشّ والحطب. ثم دخلا ما يشبه كهفاً مظلماً. وجلس باسم أرضاً وشدّ مخلص إلى جانبه.. وعندما تعوّد نظرهما على العتمة رأى مخلص غرفة ضيقة فرشت على

أرضها الترابي بطانيات عسكرية، وفي أقصى الغرفة تكوّمت أمتعة عسكرية فوق صناديق خشبية وأسلحة رشاشة وأقشاط رصاص ورأى في الرّكن الآخر من الغرفة بريموس وأدوات صنع الشاي ومعلبات مختلفة.

وقال باسم بصوت منخفض :

ـ سيحضرون بعد قليل.

وفي تلك اللّحظة سمعا وقع خطوات ثم رزم القش تزاح عن المدخل ودخل شاب في ثياب مرقّطة وقد لفّ رأسه بكافية بيضاء وحمراء يتبعه ثلاثة شبان أصغر منه سنّاً في الزي نفسه.

وتعانق باسم مع الشاب ثم عانق رفاقه الثلاثة واحداً واحداً. ثم قدّمهم لمخلص قائلا :

ـ الأخ مفيد.. الإخوان ياسر وأبو أحمد وعبد القادر.

وكان واضحاً أن مفيد رئيس المجموعة. وجلس الجميع على الأرض، وقال مفيد :

«أهلاً بالدكتور. نتأسف للتأخير.. لكن لدينا متّسعاً من الوقت أليس كذلك ؟

وقال بَاسِم :

ـ الدكتور مخلص من يافا مثلك.

وأضاف :

ـ يجب أن نعود إلى عمان قبل الغروب.

فقال مفيد :

ـ أهلاً بالدكتور. أنا من العجمي.. أين كان بيتكم ؟

وقال مخلص :

ـ في المنشية ثم انتقلنا إلى النّزهة.

وقال مفيد :

ـ لكن لِيشْ مسرعين بالعودة..

فقال باسم :

ـ الدكتور عنده ارتباطات في عمّان اللّيلة.. سنقوم بزيارتكم مرّة أُخرى قريباً.

فقال مفيد :

ـ طيّب خلّينا أول شيء نشرب فنجان شاي.

وكان عبد القادر قد اشعل البريموس ووضع فوقه إبريق الشاي. وأخذ يصبّ الشاي في الأَقداح الصّغيرة. وتناول مفيد قدحاً وقدّمه لمخلص.

وأخرج مخلص دفتراً صغيراً من جيبه وقال :

ـ هل نبدأ بالأسئلة دون مقدّمات ؟

وقال مفيد :

من كلّ بدّ.

ونظر مخلص إلى مفيد ثم إلى رفقائه وقال بتأنٍّ :

ـ عند عبور النّهر، ما هي أقصى نقطة يمكن للمجموعة أن تصلها في الداخل ؟

قال مفيد دون تردّد :

ـ إلى أيّة نقطة أردنا : يافا، حيفا، تل أبيب. هذا مع العلم أن الأمور تغيّرت مؤخّراً وأصبحت أكثر صعوبة.

ـ تغيّرت كيف ؟

ـ عبور النّهر أصبح على جانب كبير من الصّعوبة.. لكننا ما زلنا نستطيع العبور. الصّعوبة الحقيقية تأتي بعد أن نعبر. كنا في الماضي عندما ندخل الأرض المحتلّة نذوب بين أهلينا، كما يقول الصّينيون، مثل السمك في الماء. كانوا يحتفلون بنا على المكشوف. يقيمون الولائم على شرفنا. انتهى ذلك الآن بسبب الإجراءات الإسرائيلية..

وهنا قال الشّاب الذي اسمه أحمد :

ـ هل تذكر القرية عندما دخلناها أول مرّة ؟

ثم التفت إلى مخلص قائلاً :

أقاموا لنا سهرة استمرّت حتى الفجر. لم ننم إطلاقاً. وغادرنا القرية قبل طلوع الشمس.

وقال مفيد :

ـ كانت الأمور سائبة في الأشهر الأولى. لكن التدابير التي اتخذها الإسرائيليون منذ بضعة أشهر غيّرت الأوضاع بشكل جذري.

ـ أين، في الداخل أم على خطّ وقف النار ؟

ـ في الأثنين. والتفت إلى أبو أحمد وقال :

ـ اخبره عن الإجراءات على النّهر.

ـ على النّهر كانت الحراسة تتم بادئ الأمر بواسطة الدوريات وكان التّسلّل والعبور من أسهل ما يمكن. النّهر ضحل في معظم أيام السّنة، بالكاد يغمر الإنسان للصّدر في معظم الأماكن. كانت الناس تعبره في جنح الظلام وأحياناً في وضح النّهار. كانت الأوامر للجنود الإسرائيليين أن يطلقوا النار على كلّ من يحاول عبور النهر. كانوا يريدون منع عودة أي

فلسطيني إلى الضّفة. كانوا يطلقون النار حتى على الجرحى ويرمون بهم في النّهر. مات المئات. وبالرغم من ذلك ظلّ العبور مستمرّاً، ورجعت المئات من العائلات إلى قراها بهذه الطريقة.

وقال مخلص :

- وتوقّف التّسلل بعد ذلك ؟

- لا. استمرّ ولكن بحجم أقلّ. الذي أوقف التّسلّل بشكل فعلي هو الأشرطة الشّائكة والمكهربة التي وضعوها على طول النهر منذ أربعة أشهر..

وقال مفيد :

- ومع ذلك كل ليلة يحاول اللاجئون عبور النّهر. وكل ليلة نسمع إطلاق النار وصراخ الذين أُصيبوا بنار اليهود.

- وكيف يخترقون هذه الحواجز ؟

- الصّعوبة متزايدة بسبب ترعة رملية تمتدّ بمحاذاة الأسلاك الشّائكة بعرض أربعة أو خمسة أمتار ولا يمكن اجتيازها دون ترك أثر الأقدام عليها. في الصّباح تأتي البدورية، فإذا وجدت آثاراً عرفت أن اختراقاً قد حصل فتطلق الإنذار في المنطقة ويبدأ تمشيطها بواسطة دوريات الجيش وقوات الحدود.

وقال عبد القادر الشّاب الآخر بجانب أبو أحمد.

- بالنّسبة للمجموعات، قطع الأسلاك سهل. ترعة الرّمل هي المشكلة. عندما نعبرَ لابدّأن يعرف الإسرائيليون ذلك في ظرف ساعات قليلة.

وأضاف مفيد :

- ولهذا نعبر الآن حالاً بعد هبوط الظلام ليكون أمامنا اللّيل بكامله للابتعاد عن مكان الاختراق. نسير طول اللّيل وقبل طلوع الضوء نختبئ حتى مغيب الشمس. والخطر الأكبر هو خلال الأربع وعشرين ساعة الأولى هذه. في هذه الفترة يقتفي الإسرائيليون أثر الفدائيين، ويقيمون الكمائن في المكان الذي ينقطع فيه الأثر. وقد وقعت عدّة معارك في كهوف الجبال واستشهد فيها مجموعات بكاملها.

وسأل مخلص :

- وهل انخفض عدد العلميات بسبب ذلك ؟

- لست أدري.. ربّما. عدد الإصابات بين المقاتلين قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً. وقد قُضي على مجموعات بكاملها بعد عبور النّهر، عند الأسلاك أو بعد الاختراق بقليل.

وأخذ مخلص رشفة من قدحه. لم يكن يُسمع سوى وشوشة الرّيح في أكوام القش عند مدخل الكهف. وقال :

- وبالنّسبة للإجراءات التي اتّخذها اليهود في الدّاخل وفي القُرى ؟

- أعلن الإسرائيليون أن أي اتّصال بالفدائيين أو أية مساعدة تقدّم لهم تعاقب بالسّجن وينسف بيت كلّ من يثبت عليه ذلك.

وهنا قال باسم :

- ومع ذلك فالقرويون ما زالوا يرحبون بنا. إنهم يفتحون لنا بيوتهم، يزودوننا بالماء والطّعام، نحن الذين نتحاشى الاتّصال بهم قدر الإمكان..

وقال مفيد :

لكن عندما تقع إصابات بين الفدائيين يضطرّون للالتجاء إلى القرى. أصيب في الشهر الماضي أحد أفراد مجموعة عبرت النّهر، فحمله رفاقه قبل طلوع الفجر إلى أقرب قرية، وقرعوا باب أول بيت فيها. وكان بيت امرأة زوجها معتقل وتعيل خمسة أطفال صغار. فأدخلتهم البيت وضمدت جراح المصاب وأعدّت لهم طعاماً وبقي الفدائي الجريح في بيتها عدّة أيام إلى أن اصبح قادراً على السير. كانت تدري أنه لو اكتشفوا أمرها لنسفوا بيتها. عاد إليه زملاؤه وقطعوا به النّهر. وفي حادثة أُخرى وشى أحد الجواسيس بقروي آوى فدائيين، فاعتقل ونسف بيته وما زال معتقلاً، وأفراد عائلته يعيشون في خربة خارج القرية. الإبن الكبير له من العمر 14 سنة، عبر النّهر والتحق بالفدائيين.

وقال مخلص :

- وهل نقصت فعّالية العمل الفدائي بسبب هذه الإجراءات ؟

وتطلع مفيد في وجوه رفاقه ثم قال :

- العمليات تتصاعد. لكن نسبة الإصابات ترتفع باستمرار. حتى الآن لم يؤثر ذلك في نفسية المقاتلين. إنّهم ما زالوا يتنافسون للاشتراك في العمليات. الكل يودّ عبور النّهر.

3

تناول مفيد إبريق الشاي وصبّ قدحاً آخر لمخلص وصبّ ما تبقّى في قدحه وقال : منذ بضعة أيام أرسلوا إلينا صحفياً بريطانياً.. حدثته بصدق وصراحة كما أحدّثك الآن. وعندما أخبرته عن عملياتنا سألني :

«وهل ستحرّرون فلسطين عن طريق العمليات الفدائية ؟» وكان يتوقّع أن أتهرّب من الجواب.

وصمت مفيد لحظة ثم قال :

- دعني الآن أوجّه إليك السؤال ذاته، أريد أن أعرف : هل بالإمكان تحرير وطننا عن غير هذا الطريق ؟

- كل حركات التحرير في العالم تدعم الثورة الفلسطينية. الرأي العام العالمي لم يحرّر فييتنام.. كذلك إنه لم يحرّر الجزائر.. كفاح الفييتناميين والجزائريين وتضحياتهم جاءت بالتحرير والاستقلال. نعم هناك الطريق السياسي. لكن دون البندقية لا يمكن دخول المعركة السياسية. يجب مراعاة الأوضاع. لكن لا يوجد نموذج واحد يصلح لجميع الحالات. أسلوب أبو رقيبة كان ناجحاً بالنّسبة للأوضاع في تونس، لكنّه لم يكن كذلك بالنّسبة للجزائر التي كانت تجابه الاستعمار الفرنسي نفسه.

وقال مفيد بصوت قوي :

- وبالنسبة لنا نحن نجابه عدواً لا يرحم. جاء لاستيطان الأرض والتّخلّص منّا. في السّابق لم نكن نعرف ما يريد. جيلنا السّابق كان ساذجاً، جاهلاً. اليوم أصبحنا نعرف مقاصد العدو على حقيقتها. انظر حولك، انظر إلى هذه الآلاف المرمية في المخيّمات. اليهود يريدون تدميرنا كبشر. أتدري كيف يتصرّف الجيش الإسرائيلي تجاه أبناء شعبنا ؟ إنّنا في نظرهم أقل من بشر، مثل ما كانوا هم في نظر النازيين. لقد زرت بلا شك مستشفيات عمان التي ما زالت ملأى بالمدنيين الذين شوهتهم قنابل النابالم. كانت طائرات الميراج تقصف مخيمات اللاجئين في الضفة لإفراغها، ثم تلاحق اللاجئين الهاربين في الجبال والطّرق لإجبارهم على عبور النّهر وعدم التّوقف دونه. بطولة طياريهم تشابه بطولة الطيارين الفاشست ضد الأحباش العزل كما كتب عنها ابن موسوليني الذي كان طياراً.. يتحدّثون عن الإنسان اليهودي الجديد ! هؤلاء الجبناء.. يريدون صنع بطولتهم على حساب شعبنا الأعزل.. هل تدري ماذا تفعل طياراتهم الآن ؟ إنها تترقّب السيارات المدنية في الأغوار وتصليها برشاشاتها.. يتصيدونها للتّسلي أو للتمرين. منذ أسبوعين طاردوا سيارة شاب من يافا اسمه رفيق حلبي أثناء عودته من مزرعته القريبة من النهر وقضوا عليه.. سيارته المحترقة ما زالت مرمية على حافة الطّريق..

وصمت مفيد لحظة ثم قال :

- إني كثيراً ما أتساءل كيف يمكن لبشر عانوا ما عاناه اليهود أن يسلكوا هذا السلوك ؟

يقولون عنا إننا نازيون ونريد إبادة الشّعب اليهودي ! والغريب أنهم أمعنوا في قتلنا وتشريدنا كلما زاد سخطهم علينا.. هل سمعت آخر درر السيدة جولدا مايير : نحن المسؤولون عن الجرائم التي يقترفها الشباب الإسرائيلي. كيف ؟ بأننا ندفعهم إلى قتلنا، ونحن سبب عذاب ضيرهم.. يقتلوننا ثم يحمّلونا عبء جريمتهم... نحن المذنبون وهم الأبرياء.

وتوقف مفيد مرّة أُخرى كأنه يتوقّع أن يعلّق مخلص على كلامه. وعندما لم يفعل استمرّ قائلاً :

- عندما كنت في الولايات المتحدة حاولنا إقامة حوار مع بعض زملائنا اليهود في الجامعة. بعضهم كان يتفهّم وجهة نظرنا. لكن الأكثرية لم تكن تتزحزح عن موقفها. ذلك أنَّ قضيتنا ليست شيئاً بالنّسبة لما عانى اليهود. ما هي آلامنا ومصائبنا بالنّسبة لآلام ومصائب اليهود.. أن يحرم الشعب الفلسطيني من وطنه ويرمى به جانباً ليقيم اليهود دولتهم المستقلّة يبدو أمراً مقبولاً.. العالم مذنب تجاه اليهود ويجب أن يكفر عن ذنبه بواسطة شقائنا.. في أمريكا يلوحون بالهلوكست كل يوم، شهراً بعد شهر، سنةً بعد سنة. من يسترجي دعم الفلسطينيين أو أن يقول إن للفلسطينيين قضية عادلة ؟ كل من يقول هذا عنّا يُتّهم باللاسامية وبالعداء لليهود. يصعب على اليهود الاعتراف بأي حق يتعارض مع حقّهم. من هنا تنبع وحشيتهم نحونا. إنّهم ينتقمون منا، أو أنهم لا شعورياً ينتقمون بواسطتنا من النازيين ومن كل من عذّبهم وأهانهم في الماضي. بعد ألفي سنة من المهانة والذل إنهم اليوم أسيادنا. يتلذذون بممارسة السيادة على شعبنا المسكين. في الرملة يقطن صديق لأخي الكبير، كان يشتغل في يافا. بعد الـ 48 هرب إلى الرّملة. التجأ مع بضعة عائلات مسيحية في كنيسة البلدة وبقوا فيها ثلاثة أسابيع طرد أثناءها كل أهالي الرملة. ثم وضعت العائلات المسيحية والمسلمة التي بقيت في الرّملة في حي أصبح الجيتو العربي. أيام السبت كان يأتي اليهود المغاربة، وهم يتكلّمون العربية، ويتمخترون في الحي العربي ويجلسون في المقاهي ولا يدفعون، ويوجّهون الإهانات للناس ويضربونهم بلا سبب. وكانت مسباتهم المفضلة توجه إلى النبي العربي.. ويسكت العرب ويخنعون.. خطر على بالي مؤخراً شيء لم أعره انتباهاً في السابق. منذ الحرب العالمية واليهود يُفَصِّلون للعالم مَا جرى لهم في الهلوكست.. إلا أنّهم لم يخبرونا نحن شيئاً عن هذا الهلوكست ! نحن الذين دفعنا ثمنه بدمنا، بأرضنا، بوجودنا ! لماذا ؟ هل مجرّد صدفة ؟ لن أنسى ما قاله لي في نيويورك إسرائيلي، يعتبر نفسه معتدلاً عندما ذكرت له عرضاً أن الفلسطينيين هم الضحية وأن الإسرائيليين هم المسؤولون عما عانوه من عذاب.

قاطعني قائلاً : «لا، لا يا صاحبي، إسرائيل هي الضّحية وليس هناك إسرائيلي واحد لا يشعر بأنّه الضحية. إنّ الهلوكست جزء من حياتنا ولا يمكن أن ننساه».

قالها عن طيبة خاطر. إنه لا يستطيع رؤية ما حصل للفلسطينيين بنفس المنظور الذي يرى فيه شعبه. عذابنا شيء وعذابهم شيء آخر.. عذابهم أصدق وأعمق بما لا يقاس. لذلك مهما فعل اليهود، حتى لو كان ذلك اقتراف جريمة بحق شعب بريء، يبقون طاهرين أبرياء. إنهم ما زالوا الضحية بالرّغم من حوزتهم الجيوش والأساطيل..

كان الظلام قد خيم. وضع مخلص فنجانه الفارغ جانباً. وقال لباسم الذي كان يشير إلى ساعته :

ـ هل حان الوقت ؟

ثم التفلت إلى مفيد قائلاً :

ـ سوف أراك قريباً.

فابتسم مفيد وقال :

ـ ومتى سيكون ذلك ؟

ـ ربما بعد شهر.

ـ هل ستعود إلى واشنطن ؟

ـ بعد غد.

ـ أين سيعقد مؤتمر الـ AAUG هذا العام ؟

ـ أظنّه في شيكاغو..

ـ اجتماع ديترويت كان عظيماً.. سلّم على الأصحاب.

ومد مفيد يده مصافحاً، وتعانقا.

كانت الريح قد خفتت وخيّم سُكون مطبق على الغور، وبدت جبال فلسطين رمادية زرقاء في الظلمة الشفافة. وأدار باسم المحرّك :

ـ هل نعود بالطريق نفسها ؟

ـ الطريق الأسرع.

ـ إذاً نأخذ طريق السلط.

وسارت السيارة على الطريق المقفرة باتّجاه البحر الميّت. وخيّل لمخلص أنه يرى ضوء سيارة في الجهة الأُخرى من النّهر. ربّما سيارة دورية إسرائيلية. في هذا الوقت يمهّدون

الرمـال عنـد الأسلاك الشـائكـة، ليتفقّـدوهـا في الصّبـاح البـاكر. كـالصّيـاد الـذي يعـدّ الفـخّ لطريدته.. أصبحوا الصيادين ونحن الطريدة..

وعند وصولهما إلى الكرامـة رأى مخلص الجـامع الصّغير فرفع نظره إلى المئـذنـة. فتبين له رأس رجل يطل من فوق حافتها، يتطلّع إليهمـا دون حراك. ومـا أن التقت عينـاهمـا حتى اختفى رأس الرجل. وأخذت السيارة تصعد في طريق السّلـط. وشعر مخلص بـالبرد يسري في عروقه. لم يكن واثقاً هل أنه رأى رأس الرجل في المئذنة أم أنه تخيّله. كانت الطريق خـاليـة من السيارات، وبدَا الوادي ساحق العمق في ضوء النّجوم التي أخـذت تتلألأ في السمـاء. ونظر مخلص إلى ساعته : بعد قليل سيعبر مفيـد وزملاؤه النّهر. يـا ترى في أيـة نقطـة سيعبرون... وأحسّ بتعب عميق. وأرخى رأسه على المقعد وأغمض عينيه يحاول أن ينام.

الفصل الثاني

يَـافَـا

1

قال الدليل بصوت خافت :

ـ انتظروا هنا.. وترقبوا إشارتي.

وقام من مكانه في الخندق إلى جانب الطريق، وجرى يقطع الطريق بسرعة، وغاب في الظلمة.

أخفض مفيد رأسه، والتفت إلى جانبه حيث جلس أبو أحمد وياسر وعبد القادر يعصرون ثيابهم التي بلّلها الماء.. كان العبور سهلاً، ولم يستغرق قطع الأسلاك سوى دقائق.

نظر مفيد إلى ساعته، دلّت أصابعها الفوسفورية إلى التّاسعة إلاّ ربعاً ورفع رأسه فوق حافة الخندق. كانت الظلمة حالكة، وضوء النّجوم يزيد من حلكتها.

وفجأة رأى الدليل يسير عبر الطريق باتّجاههم، وهو محني الظهر ويشير بيده أن تقدّموا. فوضع مفيد يده على كتف ياسر وقال هامساً :

ـ هيا بنا.. قل لهما بدون صوت.

وقطعوا الطّريق محنيي الظهور.. وكان الدليل قد أخذ يتسلّق التّل المقابل بخفّة الماعز. لحقوا به وهم يلهثون. قال مفيد :

ـ على مهلك.. لا نستطيع اللّحاق بك بهذه السّرعة.

ـ تأخّرنا الكفاية. لازم نطلع من هون قبل ما تيجي الدّورية. في دوريات في هذا الوقت.

وما أن لفظ آخر كلمة حتى غمرهم ضوء كاشف يعمي البصر، وفي الوقت ذاته، أخذ الرّصاص ينهمر باتّجاههم. وصاح الدليل :

ـ إلى الخندق.. على الشمال.

انحدروا ثانية نحو الطريق إلى منعطف في التّل لا يصله النّور. قفز الدليل في الظلام كما يقفز المرء في بركة ماء. وتبعه مفيد وخلفه الآخرون. وأحسّ مفيد بالحجارة الصّغيرة تتدحرج تحت رجليه، فانزلق متعثّراً إلى أن استقرّ في الخندق باتّجاه الطريق. وكان الدليل قابعاً فيه، فأشار بيده أن يحنوا رؤوسهم، وفي تلك اللحظة علا هدير محرّك مصفّحة تقترب بسرعة، وضوؤها الكاشف ينتقل يميناً ويساراً على جانب الطريق، فتمدّدوا في الخندق إلى أن مرّت المصفّحة. وصاح الدليل : «ألحقوني». وأخذ يركض في محاذاة الخندق في الاتّجاه المعاكس للمصفّحة، ثمّ انعطف إلى اليمين وأخذ يتسلّق الجبل. وتبعه مفيد ورفاقه عن كثب، وكان أبو أحمد، أصغرهم، يجري في الخلف. ووصل إليهم صوت إطلاق النار من المكان الذي كانوا فيه.

قال الدليل بصوت متهدّج :

ـ لا تطلعوا لورا.. خلّيكم وراي.

واستمرّوا في الصّعود بلا توقّف. وفجأة انتبه مفيد إلى أن أبو أحمد لم يكن معهم. فتوقّف وهو يلهث.

ـ أين أبو أحمد ؟

وردّ ياسر :

ـ هلّق كان خلفي.

وقال عبد القادر :

ـ ها هو آت.

ونظر مفيد يحاول اختراق الظلمة.

ـ أبو أحمد..

ـ لا أستطيع أن أخطو خطوة واحدة بعد.

وجلس أبو أحمد أرضاً وهو يلهث.

وقال الدليل :

ـ سنصل إلى رأس الجبل بعد قليل. بعد ذلك الطريق كلّها نزول.

وأمسك مفيد بأبو أحمد من تحت إبطه، وساعده على الوقوف.

ووصلوا القمّة الشّرقية عند منتصف اللّيل. وقال الدليل :

ـ نستطيع أن نرتاح قليلاً، وأشار بيده نحو الظلمة المحيطة، وقال : المغائر في المرتفع المقابل.

كان مفيد يلبس معطفاً عسكرياً سميكاً اشتراه من بائع ألبسة مستعملة في عمان. وعندما بدأوا في النّزول، جلس على الأرض المنحدرة، وأخذ ينزلق فوقها جلوساً يحميه معطفه السّميك. وفعل أبو أحمد مثله وتبعهما ياسر وعبد القادر يسيران جانباً لكي لا ينزلقا، فيما قادهم الدّليل إلى مكان تحيط به صخور عالية بدت في الظّلمة كأنها أشباح جبّارة. ودخلوا في مغارة عميقة، وبعد أن ساروا داخلها بضعة خطوات، توقّف الدّليل وأشعل عود كبريت. كانت الأرض رملية والحيطان ملساء كأنها نحتت نحتاً في الصّخر. وقال الدّليل :

- لنجلس ريثما يطلع الفجر.

وارتمى كل منهم في ناحية يتمدّدون على الأرض.

وقال مفيد :

- أليس هناك خطر في إشعال الكبريت ؟

ردَّ الدليل :

- لاخوف من ذلك، لا يمكن رؤية النّور في داخل المغارة، إنها تطلّ على الغرب.

وسأل ياسر :

- هل يوجد وحوش برية ؟

وقال الدليل :

- يوجد ضباع..

- هل تحكي عن جد ؟

وجاء صوت زياد عالياً في الظّلمة، يردّد الصّدى.

وقال الدليل :

- ولو يا شيخ الضباع انقرضت من زمان.. يوجد ثعالب. وفي ناس بتسمّيها ضباع.. ما في منها خطر.. الخطر هو من العقارب والأفاعي..

وأشعل ياسر عوداً من الكبريت، ووضع كفّه حول الضوء ليمنع الهواء من إطفائه، وأخذ يتفحّص الأرض حوله.

وقال الدليل :

- لا تخاف. ما في أفاعي ولا عقارب هنا.

وفي تلك اللّحظة، سمعوا حركة في الخارج، خطوات فوق أغصان يابسة، ثم سعال، وعواء كلب خافت.

قال الدليل :

ـ لا تخافوا.. هذا راعي مع قطيعه..

وقام من مكانه، وارتسم شبحه أسود في مدخل المغارة، وقال :

ـ صباح الخير يا عم.

وسمعوا صوتاً يقول :

ـ مين.. مين في هون ؟

واختفى شبح الدليل، وتبع ذلك أصوات مبهمة في الخارج، ثم صوت الدليل ينادي مفيد.

وقال مفيد لعبد القادر، وهو يناوله بندقيته :

ـ ابق في الداخل، ولا تخرج إلا إذا ناديتك.

وقام نحو المدخل الذي ظهرت خطوطه واضحة على صفحة السّماء. في الخارج كانت النّجوم قد غابت، وبدأ الضوء الذي يسبق الفجر ينتشر، وظهرت الأشياء بوضوح. كان الدّليل جالساً على صخرة يتحدّث إلى رجلٍ يرتدي عباءة سوداء، ولفّ رأسه بحطة وعقال، وحولهما قطيع من الماعز ترعى الأعشاب والأشواك بين الصّخور. والتفت الدّليل إلى مفيد قائلاً :

ـ الأخ من بدو المنطقة.

حيّا البدوي، وجلس إلى جانب الدليل. وقال بصوت خافت :

ـ هل يؤتمن ؟

ـ لا خوف منه إطلاقاً..

كان الرّاعي ربّما في الأربعين، خط الشّيب شعر لحيته، وامتلأ وجهه بالتجاعيد. ونادى مفيد الآخرين فخرجوا من المغارة الواحد تلو الآخر. وقدّم لهم الراعي حليباً حلبه من الماعز في وعاء فولاذية، وشرب كل منهم بدوره.

وقال الدليل :

ـ يبدو أن هناك دوريات تمشط المنطقة.. يمكن الأفضل أن نمشي حالاً..

وقال مفيد :

ـ وإلى أين نذهب ؟

وقال الدليل :

ـ هذه المنطقة منطقتي..

كان الظلام قد بدأ ينقشع، ولون السّماء يتغيّر بسرعة إلى أزرق كالح. وودّعوا الراعي وساروا بسرعة يتبعون الدليل في طريق جبلية، ما لبثت أن أدّت إلى طريق غير معبّدة.

وقال الدليل :

ـ سننزل في هذه القرية.

وتطلّع مفيد حوله، ولم ير أثراً لقرية. واستمرّ في سيره وراء الدليل. وما هي إلا دقائق حتى بانت أمامهم قرية صغيرة وراء المنعطف، وانتثرت بيوتها الحجرية على جانبي الطريق. وسار الدّليل أمامهم نحو بيت صغير يبعد عن الطريق ويطل على الوادي، ودقّ على الباب مرّتين، وتوقّف، ثمّ دقّ مرة أُخرى. وفتح الباب وامتدّ منه رأس امرأة عجوز على رأسها شال. ولما رأت الدليل، فتحت الباب دون أن تفوه بكلمة، ودخل الدليل وتبعه الآخرون.

2

ناموا حتى الظهر، وعندما استيقظوا، اغتسلوا في المطبخ، ثمّ تناولوا الطعام الذي أعدّته لهم العجوز. وسمعوا طرقاً على الباب، وقالت العجوز :

ـ هذا لازم يكون محمد، وقامت لتفتح الباب. وسمعوا صوت الدليل يقول :

ـ هل استيقظوا ؟

ودخل الغرفة تتبعه العجوز، وقال :

ـ أُذيع على الراديو أن مجموعة فدائيين اخترقت الحدود وأنها محاصرة في الجفتلك.

وقال مفيد :

ـ يعني نحن ؟

وقال الدليل :

ـ ربما مجموعة أُخرى.. قد يأتون إلى القرية.

وقال مفيد :

ـ إذاً، يجب أن نغادر حالاً..

وقال الدليل :

ـ اجمعوا أغراضكم..

وسأل ياسر :

ـ وإلى أين نذهب ؟

وقال الدليل :

ـ إلى المخيّم..! السّلاح نتركه هنا.. أُم سعد تواريه.. الهويات معكم..؟

وأخرج كل منهم هويته المزوّرة، وأخذ الدليل يتفحّصها الواحدة تلو الأُخرى. وقال :

- كلّها في حالة جيّدة. لم يصلها الماء. سأذهب لاستطلاع الوضع في الساحة. حتى لا نلفت الأنظار. عبد القادر وأبو أحمد يأتيان أولاً، ثم مفيد وياسر..

غاب ما يقارب نصف السّاعة. عاد وهو ينزع عقاله :

- في حواجز على طول الطريق من نابلس..

وقال مفيد :

- إذن الأفضل أن ننتظر هبوط الظلام.

وقال الدليل :

- قد يأتون قبل هبوط الظلام.

وقال أبو أحمد :

- لماذا لا نعود إلى المغارة ؟

وصمت الدليل لحظة ثم قال :

- برأيي الحل هو أخذ أبو أحمد وعبد القادر إلى مخبإ خارج القرية هذه اللّيلة، وإن لم تهدأ الحالة، نعود عبر النّهر وننتظر هناك.

وقال مفيد :

- وأنا وياسر ؟

فأجاب الدليل :

- أنت وياسر تغادران الآن في سيارة ركّاب اعتيادية إلى القدس.

وقال ياسر :

- في وضح النّهار ؟

وقال الدليل :

- يركب كل منكما في سيارة سرفيس مختلفة إذا استدعى الأمر.

وقال مفيد :

- والحواجز ؟

ردّ الدليل :

- هناك حاجز أو اثنين على طريق القدس. وهوياتكم لا غبار عليها.

وقال مفيد :

- وبمن نلتقي في القدس ؟

قال الدليل :

- العنوان وكافّة التعليمات موجودة معي.

ونظر مفيد إلى ياسر، ثم قال :

- نذهب إلى القدس.

وقال الدليل :

- إذاً، هيّا بنا. ثم قال محدّثاً عبد القادر وأبو أحمد : عندما أعود، كُونَا على استعداد.

3

وجدا سيارة سرفيس وفيها راكبان. كانت آخر سيارة إلى القدس، فقال مفيد لياسر :

- اصعد في الخلف، وأنا آخذ المقعد بجانب السّائق..

كان الراكبان الآخران من القرية، شيخ، وفلاّح يرتدي القمباز.

وقال مفيد لسائق التاكسي :

- سر على بركة الله..

فقال السائق :

- باقي محل راكب.

- معليش، أنا أدفع عن مقعدين.

وعندما سارت بهم السّيارة، قال الشّيخ بصوتٍ عال : «توكّلنا على اللّه».

وسار كل شيء بحالة طبيعية، إلى أن وصلوا إلى مشارف القدس. حيث أُقيم حاجز للتّفتيش، وكانت السّيارات متوقفة في صفّ طويل. ورأى مفيد سيارة نصف مجنزرة تقف إلى جانب الطّريق، وجنوداً إسرائيليين يجلسون أرضاً في ظلّها. كانت السيارات اليهودية تمرُّ دون توقّف، فقط تتمهّل قليلاً لكي يرى الجنود لون النّمرة. وكان ركّاب السّيارات العربية يَنتظرون التّفتيش. ولا أحد من الجنود يعيرهم انتباهاً، إلا عندما يروق لهم. وكان ممنوعاً عليهم الخروج من السيارة، فيبقون في داخلها تحت الحرارة المحرقة. وسمع مفيد سائق سيارة أمامهم ينادي أحد الجنود الإسرائيليين قائلاً :

- من فضلك يا شاويش، صار لنا ساعة واقفين.. معنا أطفال.. الناس ماتت عطش..

ولم يعره الجندي انتباهاً. فضغط السائق على مزمار السيارة ضغطاً خفيفاً ليجلب انتباهه، عندئذ قام إليه الجندي، وكان صبياً في السابعة أو الثامنة عشر من عمره، وسار نحوه على أقل من مهله، وتوقف أمام نافذة السيارة، وقال للسائق بلكنة عبرية :

ـ أنت زمّرت. اطلع..

نظر إليه السّائق مبتسماً يريد إرضاءه وقدّم له دفتر الهوية. فضرب الجندي الهوية بقفا يده، وصاح بالسّائق :

ـ اطلع..

وفتح باب السيارة، وأمسك بالسّائق من شعره وجرّه خارج السّيارة، فوقع راكعاً على ركبتيه، فركله الجندي في ظهره مرّة ومرّتين حتى سقط على وجهه. وأخذ الجنود الجالسون في الظّل يقهقهون، في حين أخذ السّائق يبكي ويشتم. عندئذ قام إليه جندي آخر وضربه بكعب بندقيته مرة أخرى وثالثة، حتى توقّف عن الصياح وجلس يمسح دموعه التي اختلطت بالأقذار التي تراكمت على وجهه. وأمر الجندي الأول الرّكاب بالخروج من السيارة، وأخذ يفحص هوياتهم. وكان بين الرّكاب امرأة تحمل طفلاً رضيعاً، وتمسك بيدها طفلاً آخر يبلغ الرّابعة من العمر. وكان الطفلان يعولان بالبكاء بسبب ما جرى وبسبب الحرّ والعطش. نهرها الجندي، ثم قال للسّائق : «يلاً امش».

وأشار إلى السّيارة التي كان فيها مفيد وياسر أن تتقدّم. نظر من خلال النّافذة، وقال :

ـ هويات.

لكنه لم يطلب من أحد النّزول. وناوله السّائق هويته وهو يبتسم بخنوع، فنظر فيها بسرعة وأعادها إليه. ولما جاء دور ياسر أخذ يتأمّل هويته بتأن، وينقل نظره بين الصّورة وياسر.

ـ اسمك.

وقال ياسر :

ـ منصور أحمد حسين.

وأعاد إليه الهوية. ثم تناول هوية مفيد، وتطلّع فيها قليلاً، وأعادها إليه دون أن يقول شيئاً. واشار إلى السّائق بالسير.

وصلوا القدس حوالي السّاعة الثالثة، وبالرغم من الحرّ، كانت ساحة باب العمود مكتظة بالنّاس. نزل مفيد من السّيارة، وسار باتّجاه المدينة القديمة يتبعه ياسر عن كثب. سار حسب تعليمات الدّليل إلى أن وصل إلى منعطف بالقرب من ساحة صغيرة يقع فيها بيت قديم ذو

درج خارجي طويل. وتوقّف أمام دكّان خضروات، وأخذ يتفحّص كوماً من الخيار كان يريد شراءه، ووقف ياسر إلى جانبه وقال له دون أن يدير وجهه :

- ياسر.. البيت حيث يقوم الدرج الطويل.. لا تتبعني. انتظرني هنا حتى أعطيك إشارة.

وأعاد الخيار الذي كان بيده إلى السجّادة، وسار مباشرة إلى الدّرج وصعده، وقرع الباب. ورأى ياسر الباب يفتح ويدخل فيه مفيد، ويفتح مرة أُخرى بعد لحظات، ثمّ مفيد يشير إليه من الدّاخل أن يأتي، فأعاد الخيار إلى مكانه، وهرع نحو الدّرج دون تردّد.

كانت النوافذ في داخل الغرفة مغلقة، والضوء يكاد لا يكفي لتبين موقع القدم. لكن ما هي إلا لحظات حتى اعتاد نظر ياسر إلى الظلمة، فرأى قاعة فسيحة ذات سقف عال انتشرت في أرجائها مقاعد من الموبيليا ذات الطّراز القديم، في حين كانت الأرض عارية من السّجاد، ومفيد يجلس في أحد المقاعد الوثيرة، وإلى جانبه شاب في العشرينات من العمر يرتدي قميصاً ملوناً.

وقال مفيد، وهو يشير إلى الشّخص إلى جانبه الذي انتصب واقفاً :

- الأخ منير ؟

وصافحه ياسر بحرارة، ودعاه منير للجلوس. وقال لمفيد :

- هل أجلب شيئاً من الطّعام ؟

قال مفيد :

- فقط شربة ماء، إذا سمحت.

وشربا من إبريق فخاري كان على حافة النافذة المغلقة.

وقال منير :

- والآن، ما خطّتكم ؟

وقال مفيد :

- إنها كالتالي : سأُغادر أنا في الصباح الباكر، وسيبقى ياسر هنا حتّى أعود بعد غد أو اليوم الذي يليه. ثم نقطع النّهر في نفس اللّيلة.

وقال ياسر :

- وإن لم تعد بعد يومين، ماذا يجب أن أفعل ؟

وأجابه مفيد :

- تعود أنت بنفسك. والتفت إلى منير قائلاً :

ـ إن حدث وتأخرت، يجب أن لا ينتظرني ياسر. يجب أن يعود. يقطع النهر لوحده، أو تذهب معه.

وقال منير :

ـ وكيف ستعود أنت ؟

ـ لا تخف علي. أعرف كيف أعبر النّهر بنفسي.

وتباحثوا في التفصيلات، واتّفقوا على ما طرحه مفيد. وعند الغسق، فتح منير باب الشّرفة، وقال :

ـ بإمكاننا الخروج إلى الشّرفة. لا أحد يرانا في الظلمة.

كانت الشّرفة مرتفعة تطل على الحرم، وقف مفيد ينظر إلى المدينة وقد بدأ يغمرها الظلام. بدت صغيرة وهرمة. من جبل الزيتون، سطعت أضواء أُوتيل الأنتركونتيننتال.. تنشق مفيد الهواء الجاف ملء صدره، ورفع رأسه نحو السّماء، وكانت خالية من الغيوم، تملؤها النّجوم. وتذكّر عندما كان صغيراً في مدرسة الفرندز، وجاءت والدته في سيارة صديقتها وأخذوه إلى القدس. كان المطر ينهمر والسائق لا يرى من خلال النافذة بسبب الضباب الذي كان يحجب كل شيء، فاضطر إلى التّوقف، وعندما فتح باب السيارة، كان المطر قد توقّف، وانقشعت الغيوم وملأت النجوم السّماء. لم يكن الضباب إلا بخاراً بسبب نفس الركاب في السيارة التي أغلقت نوافذها..

وعاد مفيد إلى القاعة، وأغلق باب الشّرفة وراءه. كان ياسر ومنير قد تمددا على الأرض، فوق بطانيات صوفية واستسلما لنوم عميق. جلس على أحد المقاعد الضخمة، وأغمض عينيه، يحاول أن ينام. وقال في نفسه : لن أفكّر بشيء الآن. وما لبثت أفكاره أن تحوّلت إلى صور، ثم الصور إلى أحلام، وأخيراً سرقة النّوم دون أن يشعر.

4

نزل من سيارة السرفيس في منتصف تل أبيب. الساعة التاسعة والربع. لم يعرف أين هو. تغيرت معالم تل أبيب عمّا كان يعهدها في الأربعينيات. الزحام والناس وحرارة الصّباح ورائحة الغبار لم تتغيّر. سار بين المشاة دون اتّجاه معيّن.

متى كانت آخر مرّة كان فيها في تل أبيب ؟ سنة 47 أم 46 ؟ لم يعد يذكر. كان في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة. كان يأتي إلى يافا في مثل هذا الوقت لقضاء عطلة صيف 46

و 47، وكان أحيانـاً يغلبـه الضجر، فيـذهب إلى عكّـا، إلى بيت خـالـه، ليقضي مـا تبقّى من لصّيف في السّباحـة واصطيـاد السّمـك. ذهب إلى تل أبيب في يوم قـائـظ بعـد الظهر. ركب الباص إلى المنشية، وكان خالياً تقريباً. قال له السـائق : «شو رايح عنـد اليهود يـا شـاب ؟» كانت المقاطعة سارية. ونزل في موقف جامع حسن بك حتى لا يعرف السائق أنـه ذاهب إلى تل أبيب، وقطع ما تبقّى من الطّريق سيراً على الأقدام. ودخل مكتبة في شـارع يهودا وأخـذ يقلب بين الكُتب. وكانت تعمل في المكتبة فتاة بمثل سنه. كانت جالسة إلى طاولـة صغيرة، وشعر أنها تراقبه. سألها إذا كان لديهم كتاب دوستويفسكي «الجريمة والعقاب» فقالت : «لست متأكّدة. سأفتّش لـك عنـه». وراحت تبحث بين الكتب فوق الرّف المحـاذي. وتـابعهـا بنظره. لاحظ شعراً على ساقيها. تذكّر ذلك وهو ينظر إلى سيقان فتاة تسير مسرعـة أمـامـه. يـا ترى أهذا هو شارع يهودا ؟

ورأى عن بعـد سينمـا أوفير. كـان يـوجـد مقـابلهـا محـل للنّظـارات، وبجـانبـه محـلّ للحلويات، تطفح منه رائحة الكعك، وكانت من رائحة الفنيلا الذكيـة والبيض المسلوق. هـذه رائحة تل أبيب المميّزة. كم من مرّة تشمها في بعض شوارع نيويورك. والغريب أنه كلّمـا قرأ «المحاكمة» لفرانز كفكا، يتمثّل أمامه الشّارع المؤدّي إلى سينما أُوفير، وتصعدُ إلى أنفـه هـذه الرّائحة..

رأى بوليسا يقف على الرّصيف، فاقترب منه وسأله بـالإنكَليزيـة عن موقف بـاص يـافـا، فأشار إلى الجهة المقـابلـة من الشـارع. وعبر مفيـد الشـارع على الضوء الأَخضر، وبعـد بضعـة دقائق، حضر الباص، وكان خالياً من الرّكّاب، وجلس في المقعد الأَمـامي وراء السّـائق وأخـذ يعدّ النقود الإسرائيلية في حوزته، وكان معـه الكفـايـة. وأخـذ ينظر إلى المحلاّت التّجـاريـة والأرصفة الغاصّة بالنـاس، إلى أن وصل البـاص إلى المنطقـة التي تفصل بين يـافـا وتل أبيب بالقرب من شارع التّميمي.

هذا هو المبنى الذي تقع وراءه المدرسة الإنكَليزية. كان في الثـالثـة أو الرابعـة عنـدمـا أرسل أليها. وهذا هو شارع التميمي ـ نعم تذكره، شارع التميمي ـ وهـذه هي بنـايـة الـC.I.D حيث كان يذهب أثناء الحرب العالمية الثانية للحصول على تأشيرة السّفر إلى بيروت.. وهـذا هو شارع اسكندر عوض.. هذه هي الساحة.. والساعة مازالت كما هي..

نزل، وقلبـه يخفق بسرعـة من الخوف، من الغضب، من الشعـور بـالقهر والأَسى. المكـان يعج بالنّاس. إلى يمينه دائرة البوليس والسّجن، ثم الشارع المؤدّي إلى المينا والبلدة القديمة.. هنا كانت تقف الحناطير، وهناك في أول الطّلعة مكتب يوسف طـالب. البنـاء القـديم مـازال

قائماً.. كل شيء على عهده. كم تبدو الأشياء صغيرة ! الساحة كانت في مخيّلته ضخمة. هنا كانت تجري المظاهرات ضد الانتداب.. المظاهرة الكبيرة سنة 1935، التي قتل فيها ابن جارهم.. كان شعره أحمر، وعمره دون العشرين. كم بكت عليه والدته.. في تلك الليلة أشعل العرب النار في «حمام المنشية» الذي كان يملكه يهودي، وكان قريباً من بيتهم. استمر الحريق طول اللّيل، وحلم أن النار وصلت إلى بيتهم، فصرخ مذعوراً، واستيقظ ووجد نفسه في أحضان والدته. بقي الحلم يراوده حتى ذهابه إلى أمريكا، ويستيقظ في كل مرّة مذعوراً يبلله العرق..

كان موعده في مقهى في الحي العربي في العجمي، ففضّل السير على ركوب التّاكسي، كي لا يثير الأنظار، وسار باتّجاه العجمي، وقطع الجسر فوق شارع الملك فيصل إلى أن وصل إلى تلّة العرقتنجي، فرأى كل شيء على عهده، حتى عامود الكهرباء لايزال مزروعاً في الشارع خارج الرصيف.. كم مرّة مشى على هذا الرّصيف ممسكاً بيد أبيه.. كان أحب شيء إلى والده، بعد أن يشتري حاجيات البيت ويبعث بها إلى البيت مع أحد الحمّالين العرايشة، أن يجلس أمام دكّان الحلاّق أحمد في السّاحة ويدخّن الأرجيلة. وكان عندما يعود إلى البيت ظهراً يسأل الطّباخة أمُّ فوزي : «كيف عجبتك البامية اليوم ؟ نقّيتها بأيدي..» وكان مولعاً بشراء السّجاد العجمي، حتى أصبح لديه مجموعة ثمينة من السّجاد بقي يتحسّر عليها حتى موته في عمان.. مات، ومفيد مازال في أمريكا.

في الساحة الفارغة، مقابل سينما أبولو، زرعوا شجر الكينا. سار باتّجاه البحر، ووصل إلى دكّان صغير يجلس أمامه رجل مسنّ. سأله عن المقهى، فأشار بيده دون أن يتكلّم. فشكره وسار في الاتّجاه الذي أشار إليه إلى أن وصل إلى مقهى صغير يقع في شارع ضيق كان يلعب فيه أولاد صغار. ورأى رجلاً يرتدي مريولا يصيح بالأولاد :

ـ يلا يا أولاد. روحوا العبوا على الشّط.

وتقدّم نحوه مفيد وقال :

ـ السّلام عليكم.

فردّ عليه السلام، ونظر إليه بشيء من الحذر. فسأله مفيد :

ـ الأخ أبو سلمى موجود.

ـ من يريده ؟

ـ صديق من طرف منير.

وانفرجت ملامح الرّجل وقال :

ـ أهلا وسهلاً.. تفضّل. أبو سلمى قادم في طريقه.

وجلس مفيد إلى طاولة صغيرة في زاوية من المقهى، وجاءه الرجل بفنجان من القهوة. وكان في المقهى الصّغير حوالي عشرة زبائن يجلسون على الكراسي الصّغيرة بعضهم يشرب الشاي، ويدخّن الأرجيلة ويتحدّث، والبعض يلعب الورق. وكانوا جميعاً مهلهلي الثياب، تبدو عليهم آثار الفقر المدقع. لاحظ مفيد أنه عندما دخل المقهى لم يعيروه أي انتباه، كأن رؤية الغريب أمر مألوف لديهم، أو أنّهم تظاهروا بعدم الانتباه.

ودخل المقهى رجل في الأربعينات من عمره، متوسط الطّول يرتدي بذلة بنّية قديمة. فسار إليه الرّجل في المريول وهمس في أذنه شيئاً، فنظر الرجل نحو المكان الذي يجلس فيه مفيد، وسار نحوه والابتسامة تعلو شفتيه، وقال :

ـ الأخ مفيد ؟ آسف للتأخير. لم أتوقعك قبل الثانية عشرة.. وجلس على الكرسي مقابل مفيد. وفي الحال شعر مفيد بارتياح تلقائي نحو الرّجل. فقال له مبتسماً :

ـ لم أكن أدري كيف سأتعرّف عليك.. أو كيف ستتعرّف علي.

ـ هذا أبسط الأشياء.. وضحك، ثم قال : كيف كانت رحلتك ؟ هل عثرت على المقهى بسهولة ؟

ـ كنا نسكن في تل العرقتنجي. أعرف هذه المنطقة منذ طفولتي.

فقال أبو سلمى بصوت مرتفع :

ـ إذن أنت يافاوي.. لم يخبرني منير بذلك.. هل جئت عن طريق تل أبيب أو مباشرة ؟

ـ نزلت في تل أبيب، وأخذت الباص إلى السّاحة.

وسأله أبو سلمى، وقد غابت الابتسامة عن وجهه :

ـ هل هذه أول مرّة تعود فيها إلى يافا ؟

وهزّ مفيد رأسه..

ـ وكيف تجدها.. تغيّرت ؟

ورفع مفيد نظره إلى أبو سلمى. وقال ببطء :

ـ كأني في بيت يُتّم أهلُه.

فضحك أبو سلمى ضحكة لا تهكّم فيها، ولا بهجة فيها، لكنه لم يقل شيئاً.

وجاء صاحب المقهى، وقال لأبو سلمى :

ـ هل أحضر غذاء.. لحم مشوي، صحن حمّص ؟

فالتفت أبو سلمى إلى مفيد وقال :

ـ شو رأيك ؟

ـ عال..

وبعد أن ذهب أبو سليمان، قال مفيد :

ـ هل باستطاعتنا التحدّث هنا ؟

ـ إذا أردت. نحن هنا في بيتنا. أبو سليمان مؤتمن كلياً، وهو واحد منّا. وجميع الذين تراهم هنا مستعدّين لكل شيء، كل على قدر طاقته. لا نطلب من أحد أكثر من طاقته. أنت تعرف أنّه إذا ألقي القبض على شخص لإي سبب، تعاقب عائلته، ويعاقب كل من يعرفه. من رأيي أن نؤجّل الحديث. ستنام عندنا الليلة على كل حال وسيكون عندنا متّسع من الوقت للحديث في كل المواضيع.. وسنجتمع مع بعض الإخوان في السّاعة أربعة..

ـ وماذا سنفعل حتّى ذلك الحين ؟

ـ أي شيء تريده.. هل تريد التّجول في يافا بعد الغذاء ؟

فقال مفيد بلهفة :

ـ بكل تأكيد، هل بإمكاننا التّجول في النّزهة وفي المنشية.. أريد أن أرى سينما الحمراء..

ـ المنشية معظمها هدّم.. تركوها واقفة حتى الحرب، والآن بدأوا في هدمها وبناء كورنيش من تل أبيب إلى يافا على الشاطئ. بإمكاننا الذّهاب إلى النّزهة من كل بدّ. وسينما الحمراء مازالت كما تعرفها. أحد الإخوان لديه سيارة، وسيحضر إلى المقهى بعد قليل.

6

وصلت السيارة، وهما يشربان القهوة. كانت سيارة فولكسفاكن قديمة، عندما توقّفت أمام المقهى، أحاط بها الأولاد. وخرج منها رجل في مثل سن أبو سلمى، لكنه أصغر بنية،

وقدّمه أبو سلمى قائلاً :

ـ الأُستاذ حنا، مدرّس في المدرسة الابتدائية التابعة لكنيسة الأرثودوكس.

فصافحه مفيد بحرارة. وقال أبو سلمى :

ـ لنمش رأساً.

وجلس أبو سلمى في المقعد الخلفي ومفيد إلى جانب أبو حنا.

وقال الأُستاذ حنا :

ـ إلى أين التّوجّه ؟

ـ الأخ مفيد يريد رؤية حي النّزهة، وبعد ذلك إلى سينما الحمراء.

نزلوا في الطّريق الجديدة التي فتحت قبل الاحتلال بمدّة قصيرة، ولم يكن مفيد يعرفها، ووصلوا بسرعة إلى المفرق الذي يقع فيه مستشفى الدجاني، أو مستشفى الدكتور فؤاد، كما كان معروفاً. وطلب مفيد من الأُستاذ حنا أن يتوقّف أمام المستشفى، ونزل من السيارة وسار إلى الجدار المنخفض الذي يحيط بالمستشفى ونظر من خلاله محاولاً رؤية حديقة الفيلا خلف مبنى المستشفى التي كانت تقيم فيها عائلة الدكتور فؤاد. الأشجار أصبحت كبيرة أما الأزهار فقد اختفت كلياً. رأى ممرضة تخرج من الباب وتخرج من جيبها سيجارة وتشعلها، والتقى نظرها بنظر مفيد وهو واقف وراء الجدار ينظر إليها. ورمت بالسيجارة أرضاً ودخلت المستشفى بسرعة. فعاد مفيد إلى السيارة، وجلس فيها صامتاً، وقال أبو سلمى :

ـ أليست هذه الكلّية العامرية ؟

ـ هي بذاتها.

كان المبنى كما يتذكّره تماماً. إلا أن لون الدهان على الأبواب والنّوافذ قد اصبح باهتاً، والزّجاج في كثير من النوافذ مكسوراً، والقضبان الحديدية قد علاها الصّدأ. وسارت السيارة مرّة أُخرى، وأخذ مفيد يراقب البيوت إلى جانب الطريق بصمت.. كلها كما كانت، لم يتغيّر فيها شيء، وبدت عتيقة ومهملة.

والتفت إلى أبو سلمى وقال :

ـ من يسكن هذه البيوت ؟

يهود مغاربة بالأكثر.

ـ والسكان العرب ؟

- العرب كلّهم تقريباً يسكنون في العجمي، محصورين في المنطقة التي كنا فيها. وحتّى هناك تشاركنا العائلات المغربية في بيوتنا، أعني تسكن معنا في نفس البيت إلى أن تعدّ لهم الحكومة أماكن سكن دائمة. وعندما يتمّ نقل هذه العائلات يقوم الجنود بهدم القسم الذي كانت تسكنه لمنع العرب من استعماله. وبالطّبع ممنوع علينا إصلاح هذه البيوت، لذلك كثيرا من البيوت العربية قد تهدّم نصفها، والنصف الباقي مازال مسكوناً.

7

توقّف الأُستاذ حنا بالسيارة أمام سينما الحمراء وقال :

- هل تغيّر فيها شيء ؟

لا، لا تغيير كبير، سوى التغيير الذي يحدثه الزمن وعدم الصّيانة. الرّخام الأبيض أصبح وسخاً واصفرّت جوانبه. أما الرّخام الأسود فقد صار رمادياً تقريباً بسبب الغبار وحرارة الشمس. وشارع جمال باشا، كما هو لم يتغيّر أبداً، الزهور التي كانت تزرعها البلدية قد استبدلت بالحشيش الأخضر. إنّهم يعتنون بالأشجار.

وقال أبو سلمى :

- هل تريد أن تنزل أخ مفيد ؟

وأشار مفيد بيده قائلاً :

- ما الذي يحدث هنا ؟

وقال أبو سلمى :

- أين ؟ وأحنى رأسه ليرى حيث كان يشير مفيد، فرأى البوليس يوقف المارّة ويحقّق في هوياتهم. فقال :

- تفتيش.. ووضع يده على كتف الأُستاذ حنا وقال : هل تستطيع أن تقطع يساراً لنرجع كما أتينا ؟

وأدار الأُستاذ حنا المحرّك، وسار إلى اليسار، وفي اللحظة التي انعطفت فيها السيارة إلى الجهة الأُخرى من الشارع وبدأت بالسير رجوعاً، التفت أحد رجال البوليس ولوّح بيده يأمر الأُستاذ حنّا بالتّوقف. لكن الأُستاذ حنا لم يعره انتباهاً واستمرّ بالسير حتى ابتعدت السيارة عن مكان التفتيش.

وقال الأُستاذ حنا :

ـ هل سيلحقون بنا ؟

وأجاب أبو سلمى وهو ينظر من النافذة الخلفية :

ـ سوق على مهلك.. لا أظنّ أنهم سيفعلون أي شيء.

ـ إلى أين نذهب الآن ؟

ـ إلى البيت.

وبعد قليل توقفت السيارة أمام مدخل بناية قديمة. وقال أبو سلمى :

ـ ضع السيارة داخل الكَراج.. احتياطاً. وسننتظر مجيئك.

قرع أبو سلمى الباب القديم قرعاً خفيفاً، وفتحت الباب طفلة في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها. وعندما رأت أبو سلمى، قالت بصوت متهدّج :

ـ بابا.. بابا.. رموا بومبا في تل أبيب.

ودخل أبو سلمى وتبعه مفيد.

ـ فين الماما يا حبيبتي ؟

ـ في المطبخ.

ـ قوليلها تعملنا فنجانين شاي، يلا يا شاطرة.

وبعد قليل دخلت امرأة ترتدي فستاناً وردياً وتضع على رأسها غطاء شفافاً وتحمل صينية عليها كوبان من شاي، وقدّمت أحدهما إلى مفيد والآخر إلى أبو سلمى. وقدَّمَهَا أبو سلمى إلى مفيد :

ـ زوجتي إحسان.. كان أهلها جيرانكم.

وقالت زوجة أبو سلمى :

ـ السيد مفيد ما بيتذكرني، كان ولد صغير. كانت أُختك دائماً تزورنا. بيتكم ما يزال على عهده. ساكنين فيه يهود مغاربة.

وقال أبو سلمى :

ـ شو خبر القنبلة في تل أبيب ؟

ـ سمعنا الخبر على الرّاديو. قال انفجرت قنبلة في موقف الباصات.

والتفت أبو سلمى إلى مفيد وقال :

ـ هذا سبب حواجز التّفتيش.

وقرع الباب الخارجي، وقال أبو سلمى :

ـ أكيد هذا أبو سليمان، سيجلب لنا معه أخبار.

وخرجت زوجة أبو سلمى لتفتح الباب، ودخل أبو سليمان وقد بدا عليه الإنهاك، وجلس إلى أحد الكراسي وقال لزوجة أبو سلمى التي كانت تقف وراءه :

ـ فنجان قهوة، الله يخلّيكي. ثم التفت إلى أبو سلمى ومفيد وقال :

ـ انفجرت قنبلة في موقف الباصات في تل أبيب، ولم تعرف الإصابات بعد. كانت سيارات الإسعاف تحمل المصابين من مكان الانفجار إلى المستشفى. ومسح العرق عن جبينه وقال : دوريات وحواجز في كلّ مكان. إنهم يعتقلون العرب يميناً وشمالاً. عندما سمع اليهود في الحي عن الحادث، أخذوا يضربون كلّ عربي يلاقونه في الشّارع. هناك جماعات منهم تسير في الطّرقات، كدت أقع في أيديهم. أوقفني البوليس مرّتين في الطّريق. أحد أفراد البوليس ركلني وقال، روح على بيتك يا كلب. وأوقفوني أمام صيدلية جدّي. سألوا عن الهوية ثم تركوني. لكني رأيت خمسة شباب موقوفين، أجلسوهم على الأرض.

وتوقّف عن الكلام ليأخذ فنجان القهوة الذي قدّمته له زوجة أبو سلمى، ورشف رشفتين بصوت عال، ثم قال موجهاً كلامه إلى أبو سلمى :

ـ جماعتنا لن يأتوا الليلة حسب الموعد. أرسلت إليهم خبراً بعدم المخاطرة والقدوم. سندعو إلى اجتماع آخر فيما بعد.

ونظر أبو سلمى إلى مفيد. وقرأ مفيد ما يدور في خاطره، وقال :

ـ لا بأس. حسناً فعلت، سآتي مرّة أخرى. أو نبعث بشخص آخر.

وقال أبو سلمى :

ـ أبو سليمان معه حقّ. قدومهم في مثل هذا الظّرف يعرضنا جميعاً للخطر.

وقال مفيد :

ـ بالطبع، بالطّبع، سنرتب اجتماعاً آخر بعد أسبوع أو أسبوعين.

وقال أبو سلمى :

ـ الآن يجب أن نتدبّر عودتك. سنسير على نفس الخطّة التي وضعت قبل مجيئك. سيكون كل شيء جاهزاً في الصّباح.

وقال أبو سليمان :

ـ سيقيمون حواجز التفتيش بين المدن.

وقال أبو سلمى :

ـ لا بأس، سنبقى على خطّتنا.

8

وفي هذه اللحظة، قرع الباب الخارجي بعنف. وقام أبو سلمى إلى النافذة ونظر إلى الشارع، وقال :

ـ أظن أن هذا حنّا.

ودخل الأُستاذ حنا وهو يبتسم :

ـ يظهر أن الضّربة قوية. مثل الدبابير الفايعة.

وجلس إلى جانب مفيد وقال :

ـ لا يمكن عقد الاجتماع في مثل هذه الحالة.

وأجاب مفيد :

ـ سنعقده عندما تهدأ الحالة.

وقال الأُستاذ حنا :

ـ يجب أن تغادر حالاً. قد يقومون بتفتيش البيوت.

وقال أبو سلمى :

ـ لن يفتّشوا الليلة.

ـ وإن قاموا بالتّفتيش ؟

ـ لن يقوموا بالتّفتيش اللّيلة. قد يفتّشون غداً أو بعد غد. وإن فتّشوا، فمعه أوراقه كاملة.

ـ سمعت أنّهم اعتقلوا شابين على طريق يزور، واحد منهم شيوعي. لما وصلوا إلى دائرة البوليس، حملوهما حملاً من السيارة.

وجاءت زوجة أبو سلمى وسألت زوجها بصوت منخفض :

ـ هل أحضر لكم شيئاً من الطّعام ؟

ـ شوية نواشف.

وبعد قليل عادت تحمل طبقاً عليه بضعة أرغفة وبندورة وقطعة كبيرة من الجبن الأبيض وزيتون وزعتر وزيت.

سأل مفيد، وهو يتناول رغيفاً :

ـ وهل مازال الحزب منتشراً في الأوساط العربية ؟

وقال الأستاذ حنا :

ـ في حيفا والناصرة. هنا في المنطقة الجنوبية ليس له وجود قوي.

وتوقّف الأستاذ حنّا عن الكلام لحظة يتناول رغيفاً، ثم قال :

ـ ربّما عدم وجود الحزب هو أحد أسباب وضعنا المزري. هل تدري، أننا في يافا نزيد عن عشرة آلاف شخص، ومع ذلك لا وجود فعلي لنا بنظرهم. إننا نعيش كالجرذان في بيوت مهدّمة لا يسمحون لنا بترميمها. كيف نعيش ؟ نغسل الصحون في مطاعمهم، ونقوم بجمع النّفايات من بيوتهم، والبعض يشتغل في المصانع...

وهنا ضحك أبو سلمى ضحكة مريرة وقال :

ـ لهذا ليس لدينا ما نخسره. أخذوا منا كل شيء.. وكل يوم يأخذون قليلاً مما تبقّى من كرامتنا.

وقال أبو سليمان :

ـ أمس دخل يهودي من المغاربة على عائلة تسكن قريباً من المقهى، عائلة مؤلّفة من سبعة أفراد. رأيته بعيني يخرجهم إلى الشّارع الواحد تلو الآخر، الرّجل وامرأته وأولاده، يوسعهم ضرباً وشتيمة. لا أدري ما كان السّبب. ربّما لخلاف بينه وبين الرّجل. وجاء البوليس، وبدل أن يعتقل اليهودي، اقتاد العربي إلى المخفر، ولا يزال معتقلاً حتى الآن.

وقال أبو سلمى :

ـ وعندما يفرج عنه بعد أسبوع أو بعد شهرين، يكون قد تعلّم درسه، وفهم تماماً ما

يريدون. إنهم يريدون رحيله هو وأولاده الصّغار، يقولون له المرّة القادمة نضعك في السجن لسنوات لا لشهر أو لشهرين. يخاف ويرحل. آلاف من العائلات هجّرت بهذه الطريقة في العشرين سنة الماضية.

ورفع الأستاذ حنا يده معارضاً وقال :

ـ لا أظن هذا الرّجل سينزح. أنا أعرفه جيّداً، إنه رجل عنيد. والنّاس صارت تعرف أن الحالة في الخارج كلّها عذاب أيضاً. النّزوح لم يعد بديلاً، ولا ينزح إلا المُجْبَرون. يأخذونهم بالقوّة إلى الجسر أو الحدود ويقذفون بهم داخل الأُردن أو لبنان.

وقال أبو سليمان :

ـ أهالي النقب هم أكثر الذين يعانون المشكل الآن، اليهود يصادرون الأرض من تحت أقدامهم، ويطردونهم منها بالقوة. وهم يرفضون النزوح ينتقلون من مكان إلى مكان. لكن هناك جماعات من اليهود أنفسهم تؤيدهم وتدافع عنهم.

وقال الأُستاذ حنا :

ـ جماعات صغيرة وضعيفة تقف معنا في إسرائيل، أدري تماماً، هناك أفراد مثل إسرائيل شاحق وأوري ديفيس وفيلتسيا لانجر وليا تسيمل، ممن يعرضون أنفسهم للمهانة والخطر في الدفاع، لكنّهم مجرّد أفراد. لن ننسى مواقفهم، وسيأتي يوم يلمسون فيه تقديرنا لما قاموا به من أجلنا في أصعب السّاعات، لكن النّقطة الأساسية هي أن الأُكثرية في هذه الدولة تسحقنا، ببوليسها وقضائها وجيشها ومستوطنيها. إنّنا بالنّسبة للأُكثرية اليهودية مجرّد أقلية لا تاريخ ولا قيمة لها. نحن في مجتمعهم أقل مما كان الزّنوج في المجتمع الأُمريكي.

وقال أبو سلمى :

ـ هم يعتبرون المقاومة حركة إجرام. الفدائيون في نظرهم قتلة ومجرمون. الذي يحيّر أنهم يقولون هذا عن اعتقاد راسخ. أصبحوا على قناعة أنهم أصحاب الحق ونحن المعتدون.

وقام مفيد من مكانه، وسار نحو النافذة. وكانت الشمس قد غابت والظلام خيّم على الشارع الضيق. أحسّ بنفحة هواء تداعب وجهه، وخيل إليه أنه يسمع نغماً قديماً لأُمّ كلثوم كانت إذاعة الشرق الأوسط تذيعه باستمرار. أنصت ولم يسمع سوى صوت السيارات في الشارع القريب. عاد إلى مكانه وقال بصوت هادئ :

ـ الحق علينا أيضاً. لقد أجرمنا بحقنا أيضاً، لم نحارب كما يجب في اللحظات الحاسمة.

وقاطعه الأُستاذ حنا قائلاً :

ـ لقد خانـنا العرب. قـالوا لنـا لا تفعلوا شيئـاً ونحن ننقـذكم. ومـاذا حصـل في الـ 48 والـ 56 والـ 67 ؟

وقال مفيد :

ـ عندما أقول نحن، لا أعني فقـط الفلسطينيين، بل نحن العرب جميعـاً فقضيـة فلسطين هي قضية الفلسطينيين وقضيـة العرب، ولا يمكن الفصل بين الإثنين. إن الـذي أعنيـه هو أنـه كان بالإمكان استرجـاع حقوقنـا عن طريق الحرب، لو تمكّنت الـدول العربيـة من استرجـاع قـواهـا في الخمسينـات وضرب إسرائيـل. حرب الـ 67 أسـدلت الستـار على إمكـانيـة التغيير بواسطـة الحرب النظـاميـة. منـذ الآن وحتى أمـد طويل، لا يمكن تغيير الـوضـع عن طريـق الحرب النظامية، حتى لو كانت لدى الدول العربية القوة الكافية.

وقال الأُستاذ حنا :

ـ إذا كان لا جدوى من محاربتهم، فما معنى المقاومة ؟

ـ المقاومة شيء والمجابهة العسكرية على صعيد الدول شيء آخر. إننا سنقاومهم مـا دمنـا على قيد الحياة، وبكل الوسائل التي في متناولنا. إنّما الـذي أعنيـه هو كسر إسرائيل حربيـاً. أقول، كان بإمكاننا فعل ذلك حتى سنة 67، بعد ذلك التاريخ أغلق ذلك الباب في وجهنا.

ـ إذاً ما هو الطريق الآن ؟

ـ المقاومة على الصّعيد الفلسطيني والنّشاط السياسي على الصّعيد العربي.

ـ وهذا يؤدي إلى أين ؟

ـ إلى حلّ سياسي يقوم على إقامة الدولة الفلسطينية في الضّفة والقطاع.

ـ على الرأس والعين، لكن ألا تـدري أنهم لا يريـدون إعطـاءك أي شيء، لا الضفـة ولا القطاع ؟

ـ إننا نعرض عليهم التعايش السلمي، ولا يمكن أن يرفضوا عرضاً كهذا.

وقال أبو سلمى :

ـ أو تظن ذلك ؟ نحن صار لنا عشرين سنة عايشين معهم. انظر ماذا فعلوا بنا. أقول لك إنهم من نوع آخر. إنهم بالفعل ليسوا كبقية البشر. طالما هم أقوى منا، فلا يمكن أن يقبلوا بأي حل، إنهم يريدون أرضك وهم يريدون إخراجنا كلّنا من هذه الأرض. ألم يفهموا هذا في الخارج ؟

وقال مفيد :

ـ أعرف ماذا تعني، وأحياناً أنا أيضاً أفقد الأمل من إمكانية التفاهم معهم. لكن لابدّ من إيجاد مخرج.

وقال الأستاذ حنا :

ـ أي مخرج ؟ لقد أقنعوا أنفسهم أنهم يستطيعون تحقيق المستحيل. أتلومهم على ذلك ؟ من وجهة نظرهم، حققوا المستحيل. ألا تذكرهم قبل الـ 48 ؟ من كان يحلم بأن اليهودي سيقود طائرة فانتوم ؟ أنه سينشئ دولة على أرضنا تنحني أمامها الدول الكبرى ؟ يفكّرون جدّياً بالسيطرة على هذه المنطقة، بالتحالف مع أمريكا. إنهم يعدّون للتدخّل في الخليج، وتأمين حقّهم من المرابح.

وقال أبو سلمى :

ـ تقول إنه يجب التّفاهم معهم. هم يقولون شيئاً آخر، هم يقولون إن العرب يريدون سحقنا والقضاء علينا إذا طلع بيدهم. وهم مقتنعون بذلك. وهم يقولون إن العرب لا يمكن التّفاهم معهم لأنّهم لا يفهمون إلا لغة القوة، ويجب معاملتهم كالبهائم. كيف ستتفاهم مع ناس يفكّرون هذا التفكير ؟

وقال مفيد :

ـ الأستاذ حنا قال إنّهم هم أيضاً لا يفهمون إلا لغة القوة. طيب، أقول يجب أن نغيّر تفكيرهم. ربّما لن يتمّ هذا إلا بتغيير علاقة القوى بيننا وبينهم. لكن لابد أن يأتي دور الحوار السياسي.

وقال الأستاذ حنا :

ـ الحوار الوحيد الذي يعرفونه هو حوار الطرشان. هم لا يريدون حواراً غيره. ليس في إسرائيل اليوم من يقبل الحوار مع منظمة التحرير إلا راكاح، وفئات اليسار وشخصيات قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة. الأكثرية السّاحقة لا تريد أن تعترف بوجودنا، تريد أن تتخلّص منا. أبعد شيء عن ذهنها هو الحوار معنا.

ودخلت زوجة أبو سلمى، وأخذت أطباق الطعام وما تبقّى من الخبز وقالت :

- هل تريدون قهوة ؟

وأجاب أبو سلمى قائلاً :

- بعد شوي.

وخرجت وأغلقت الباب خلفها. وقال مفيد موجهاً كلامه إلى الأُستاذ حنا :

- إني أفهم ما تعني، ولهذا أقول يجب أن نقدّم البرهان لهم وللعالم على أننا لن نقبل بما حلّ بنا وأننا سنقاوم حتى نسترجع حقّنا.

وشعر مفيد بتعب عميق وبرغبة في النّوم. وكأن أبو سليمان قرأ أفكاره، فقال محدثاً الأُستاذ حنا :

- يلا بنا يا أُستاذ حنا. بعد قليل تخرج الدوريات.

وقال أبو سلمى :

- بكير بعد. أي دوريات يا رجل ؟..

وقام الأُستاذ حنا من مكانه.

- أبو سليمان معه حق. هيا بنا.

ومدّ يده مصافحاً مفيد ثمّ أبو سلمى. وخرج يتبعه أبو سليمان وأبو سلمى. وعندما عاد أبو سلمى، قال :

- سنفرش لك الفراش بالقرب من النافذة.

وحمل فراشاً من زاوية الغرفة حيث تكدّست عدّة فراش، ووضعها أرضاً فوق البساط. ثم تناول شرشفاً أبيض ومدّه فوق الفراش ووضع فوقه مخدّة ولحافاً.

- دورة المياه خارج الباب إلى اليسار. سأُوقظك في الساعة السابعة تماماً. هل تحتاج إلى كباية مي ؟ طيب تصبح على خير.

- وأنت من أهله.

9

قام مفيد إلى النافذة، وجعل يتطلّع إلى الشارع.. عطفة إلى اليسار، وأُخرى إلى اليمين ثمّ الدّرج الطويل الذي يصل إلى النّزهة.. ومرّت في ذهنه كلمات سائق التاكسي الأرمني في طريقه إلى مطار كندي في نيويورك : «هناك مئة ألف إسرائيلي في نيويورك، ومعظمهم

يعملون سائقي تاكسي، ولا يريدون العودة إلى إسرائيل». أخذوا بلدي، ثمّ انتقلوا إلى أمريكا.. الآن لديهم وطنان، وطني وأمريكا.

وسمع امرأة تنادي :

ـ ابراهيم، ولد يا ابراهيم.. ثم لغطاً بالعربية والعبرية ثم خيّم الصمت.

جلس على الفراش وأخذ يتأمل الكتب والأوراق التي تكوّمت فوق رفّ صغير بجانب الفرش تحت النافذة. **مغامرات اللّص الظريف أرسين لوبين** و **الجريمة والعقاب** و **شرلوك هولمز** ثم كتاب لتوفيق الحكيم **عصفور من الشرق** و **الأيام** لطه حسين، وفي أسفل الرّف رأى صحفاً قديمة، وتناول إحداها : **فلسطين** 31 كانون أول 1926.

وضع الصحيفة على الأرض وأخذ يتفحصها.

خبـرٌ لا إعلان

أحمد أبو لبن وأولاده

بيافا ـ سوق اسكندر عوض بسترس ـ التلفون 156

تجد جميع هذه الأصناف التي تباع بأسعار لا تزاحم في محلاتهم. باردوسيات، ركلان، مشمعات كبردين للرجال، جزريات صوف وحرير آخر موضة بالْطُوَات فرو للسيدات، بدلات للأولاد. سجاد نقش عجمي شيرازي من كافة القياسات. وبسط مشكلة بالقطعة واليرد. بلوش مخمل وجو كبيايات أجواخ للبردوسيات أصواف انكليزية للبدلات ملونة وأسود وكحلي، صباغ ثابت مكفول (فديكو).

حراير من كافة الأنواع، قمصان صوف حريمي ورجالي، وجميع أصناف المانيفتورة.

وقلب الصفحة.

أخبار محلية

لا يكاد يخلو بيت في المدينة من المصابين بالنّزلة الوافدة من جرّاء اختلاف الطّقس، ولكنها لا خطر منها والحمد لله.

انتبه

عيد الميلاد اقترب ! فأسرع إلى محلاّت بولس سعيد ووديع سعيد.
صاحب مكتبة فلسطين العلمية في القدس ويافا.

انتصار الحق على الباطل

حضرة صاحب جريدة فلسطين الغرّاء المحترم :

سلاماً واحتراماً وبعد،

فقد اطلعت في الصحف المصرية على خبر سار، وهو أن محكمة الجنايات هناك فصلت في قضية الذم والقدح التي أقامها صاحب السعادة الأستاذ الكبير أحمد زكي على صاحب جريدة الكشكول، فظهر للمحكمة أن ما نشر بحق الأُستاذ الفاضل كذب وبهتان، فغرمته بثلاثين جنيهاً مصرياً وبذلك انتصرت الفضيلة وارتفع منار الحق.

ولما كان هذا الحكم يثلج قلب كل عربي يبرئ أحد رجالات الأُمّة العربية الذين خدموها بنفسهم ونفيسهم مما وصم به باطلاً، فأرجو نشر هذا الخبر السار في جريدتكم الغراء.

واقبلوا فائق الاحترام
رئيس الجمعية الإسلامية المسيحية
عمر البيطار

معايدات

تقدم محلات الخواجات جورج لوزيدس وأولاده المعروفة في يافا، خالص تهانيها إلى زبنائها الكرام بمناسبة حلول السنة الجديدة، وترجو أن تعود عليهم بالهناء والمسرات.

وكذلك المصور رحمن الذي اشتهر في فن التصوير وتكبير الصّور، يقدّم لجميع زبائنه أحسن التمنيات بمناسبة حلول السنة الغربية الجديدة.

دواء جـديـد

الأطباء يقولون إن كنياك باربارسو هو أحسن وأنفع دواء للرّشح والسّعال.
استعمله في الطقس الممطر والبارد
ولا تقبل غيره، فهو يباع في جميع محلاّت البقالة.
الوكلاء الوحيدون
ج. لوزيدس وأولاده
يافـا

سينما عدن ـ تل أبيب

المحل الوحيد للتسلية
روايات جديدة، موسيقى من الدرجة الأولى
البروغرام يتغير كل مساء سبت
1) الجورنال رواية ذات فصل واحد
2) ملك الدراجة، رواية ذات 4 فصول
3) تاجر البندقية، رواية ذات 8 فصول.
الأسعار : 2، 3، 4، 5، 6 قروش، وفي اللوج 8 ابتداء التمثيل الساعة 9 إلا ربع.
وسمع قرعاً خفيفاً على الباب، مدّ أبو سلمى رأسه قائلاً :
ـ نسيت أسألك، هل تحتاج إلى غطاء ؟
ونظر مفيد حوله وقال :
ـ شرشف كاف. لا يوجد برد.
ـ طيب تصبح على خير.

وضع الجريدة جانباً. كيف كانت يافا آنذاك.. عمر البيطار يذكره جيداً. يراه الآن جالساً أمام دكّان خليل الحلاّق في ساحة الساعة يدخّن الأرجيلة.

أبو لبن.. كان هناك أبو لبن طالب معه في الفرندز. كان في عينيه حول.. ما اسمه الأول ؟

سينما عدن.. كانت تقع بين المنشية وتل أبيب.. الطريق كانت موحلة.. الشوكولاته.. أربعة قروش، بقطعتين كبيرتين..

10

أفاق على حركة غير عادية.. كان الظلام مازال حالكاً.. نظر إلى ساعته : الثانية والنّصف. وسمع صوت أبي سلمى، ثمّ الباب الخارجي يغلق. وقام من فراشه وارتدى بنطلونه وقميصه بسرعة وفتح الباب ورأى ضوءاً في المطبخ.

كان أبو سلمى يقف بجانب شاب يسيل الدّم من جرح صغير في رأسه وزوجة أبو سلمى تغسل جرحه وتضمده بيد ثانية. وقال أبو سلمى عندما رأى مفيد :

ـ هذه المرة الثانية في أسبوع. الكلاب أبناء الكلاب. ثم التفت إلى الشاب وقال :

ـ هل جاء البوليس هذه المرة ؟

وأجابه الشاب :

ـ جاء البوليس ومعهم مروكية. أنا كنت نائماً بالقرب من الباب فهربت. أكلت ضربة عصا على رأسي. البقية مسكوهم. سمعتهم نازلين ضرب فيهْم.

وسأل مفيد أبو سلمى :

ـ من هم المروكيين.. ضربوا من ؟

ـ المروكيين، يعني اليهود المغاربة. أقذر ناس على وجه الأرض.. والذين أكلوا الضرب هم عمال غزازوة.

ـ ماذا فعلوا ؟ ولماذا ضربوهم ؟

ـ لأنهم لم يدفعوا.. أو لأن أحدهم وشى بهم.. منذ أُسبوعين، ساق جنديان اسرائيليان اثنين من العمال العرب كانا يغسلان الصحون في أحد المطاعم اللّيلية إلى شاطئ تل أبيب، وأمراهما بخلع ثيابهما، ثمّ جعلا يضربانهما أمام جمع من الناس الذين أخذوا يرمونهما بالحجارة.

ونظر مفيد إلى الشاب الذي جلس ينظر إلى الأرض أمامه دون حراك، وسأله :

ـ كم شخصاً كنتم عندما داهمكم البوليس ؟

ـ كنا سبعة.

ـ وهل قاومتم البوليس ؟

ـ كيف نقاوم البوليس ؟ دخلوا علينا ونحن نيام. معهم عصي وبنادق ونحن عزّل. وليش نقاوم ؟

وقال أبو سلمى :

ـ معليش يا موشه. نام الليلة هنا، وبوكرا تسير إلى عملك.. افرشي له في المدخل..

وقامت زوجة أبو سلمى وتبعها الشاب دون أن يقول شيئاً.

وقال مفيد :

ـ اسمه موشيه ؟ هل هو يهودي ؟

ـ لا هكذا يسمّيه مخدومه. تعودنا على تسميته بهذا الاسم. إنه من غزّة واسمه محمد.

ـ ولماذا لا يناديه باسمه الحقيقي ؟

ـ لأنّه لا يريد أن يعلن لزبنائه أن العاملين عنده عرب.

ـ ولو عرفوا أنهم عرب ؟

ـ لا شيء.. اليهود لا يريدون أن يكون بينهم عرب. إنهم يشمئزون منهم ويخافون منهم في آن واحد.

وبقي مفيد صامتاً، ثمّ قام من مكانه وقال :

ـ سيطلع الفجر قريباً. لننام ساعة على الأقل.

11

تمدد مفيد على فراشه دون أن يشعل الضوء. كان القمر صغيراً يلقي ضوءاً شفافاً يجعل الأشياء تبدو فضية في الظلام. أغمض عينيه.. لا صوت يسمع سوى هدير أمواج بعيدة. أنصت.. هدير الموج.. مستحيل الشاطئ بعيد.

يجب النوم، لمجابهة اليوم التالي.. موشيه ورفاقه ينامون سبعة في الغرفة الواحدة كالمواشي. لا يقلقون ولا يخافون عسر النوم. فقط عصي البوليس والمروكيين.. أحس على وجهه نسمة هواء، وخيل إليه أنه يشتم عبير الياسمين.. هل هو في حلم ؟ ومال إلى جنبه وراح في سبات عميق.

12

استيقظ على الباب وهو يفتح برفق، وزوجة أبو سلمى تدخل وبيدها فنجان من الشاي. قالت وهي تضع الفنجان إلى جانبه على الأرض :

ـ صباح الخير، الساعة السادسة والنّصف.

وأخذ يرتدي ثيابه، وهو يرتشف الشاي. وما أن انتهى من توضيب أغراضه، حتى قرع الباب ودخل أبو سلمى يرتدي قميصاً ملوناً وبنطلوناً خاكياً.

- صباح الخير.. إنشاء الله نمت مليح. السيارة وصلت..

- أنا جاهز. فقط أُريد أن أحلق ذقني، أين محمد ؟

- ذهب إلى عمله في الساعة الرابعة.

وقف أمام المرآة يحلق ذقنه وقال في نفسه : غداً في مثل هذه الساعة سيبدو كل هذا كأنه حلم.

عاد إلى الغرفة ونظر حوله. كل شيء في مكانه.. أخرج هويته المزورة ووضعها في جيب قميصه، وأفرغ جيوبه من محتوياتها ما عدا بضعة ليرات إسرائيلية. كان أبو سلمى ينتظره أمام الباب الخارجي.

عانقه بحرارة. ورأى زوجة أبو سلمى تخرج من المطبخ وهي تمسح يديها بمريولها، وتحاول الابتسام.

قالت :

- الله يكون معك يا حبيبي. ورفعت طرف المريول تمسح عينها.

أشار أبو سلمى إلى السيارة الصغيرة قائلاً :

- هذه هي السيارة.

ورأى مفيد شاباً يجلس وراء مقود السيارة. كان يرتدي بزة عسكرية لجندي إسرائيلي. والتفت إلى أبو سلمى، وأمسك هذا بذراعه وفتح له باب السيارة قائلا :

- أعرّفك على الأخ عدنان.. مع السّلامة.. الله يكون معك.

وجلس مفيد بجانب السّائق، وسارت بهما السيارة. وقف أبو سلمى يلوح مودّعاً. وبعد بضعة دقائق صمت، التفت مفيد نحو السّائق وقال :

- من أين أتيت باللّباس العسكري ؟ أليس ملفتاً للنّظر ؟

- إنّه لباسي.

- لباسك ؟!

- إنّي جندي في الجيش الإسرائيلي. وأدار وجهه نحو مفيد مبتسماً. كان في حوالي الواحدة والعشرين من العمر، جميل الطّلعة. إني أقوم بتأدية الخدمة العسكرية.

- لكن العرب لا يؤدّون الخدمة العسكرية.

- أنا درزي. بالنّسبة لهم لست عربياً.

- على الدّروز تأدية الخدمة العسكرية ؟
- والدي كان في جيشهم في حرب 1956.. إنه متقاعد الآن.
- وأنت، متى دخلت الجيش ؟
- في العام الماضي فقط. تأخّرت لأسباب صحّية.

كانت السيارة قد خرجت بهم من يافا وأصبحوا على طريق سلمة القديمة. تغيّرت الطّريق كثيراً.. إلا أن البيارات على جانبي الطريق ما زالت كما هي : أوراق شجر البرتقال خضراء غامقة (كما هي في فصل الصيف) والتراب لونه أحمر تماماً كما كان يعهده.

وحدّثه عدنان عن نفسه.

- دخلت التنظيم قبل انخراطي في الجيش. بعد تخرّجي من المدرسة الثانوية لم أستطع الدخول في الجامعة. كانت عَلاَمَاتِي دون المستوى المطلوب. اشتغلت لمدّة مُحَرِّراً في صحيفة يومية في تل أبيب، لم أستمر بها طويلاً. لم أطق العيش في تل أبيب.. إنهم لا يحبّون أن يسكن العرب بقربهم.. لا فرق عندهم بين درزي أو مسيحي أو سنّي.. التقيت بفتاة كانت تعمل في الصحيفة، ودعوتها يوماً لتناول الغذاء، وفي المطعم تبادلنا الحديث بحرارة. لكن عندما عرفت أني عربي رفضت الخروج معي مرّة ثانية، وصارت تعاملني بجفاء. اكتشفت من خلال التّجربة المباشرة ما كنتُ أعرفه من قبل، أن لا مكان لغير اليهودي بين اليهود. العربي في هذا المجتمع يتعرّض للتّمييز العنصري، تماماً كالأسود في افريقيا الجنوبية.

- ولم تكتشف كل هذا إلا بعد ذهابك إلى تل أبيب ؟
- حتى ذلك الوقت، كنت أعيش في جونا المحلي. في القرية لا نتعامل مع اليهود إلا على الصعيد العملي. عندما كنت أنزل إلى حيفا أو أذهب إلى الدوائر الحكومية في عكّا، لم أجد في معاملتهم أي خلل، كنت مثلي مثل غيري. كان موقفي تجاه اليهود إيجابياً.

وقال مفيد :

- أنا عشت في يافا حتى سن السابعة عشرة. ولا أذكر أني عرفت يهودياً واحداً من تل أبيب على صعيد شخصي. كان اليهود، بالرغم من قربهم منا، يعيشون على حافة وعينا : كنا نراهم ولا نراهم. كنت أشعر نحوهم بالشفقة يخالطها شيء من الاحتقار. في نظري كان مسكين من يولد يهودياً.

وأجاب عدنان :

- أتدري ماذا تعني كلمة «عربيم» ؟ نعم، تعني عرب. لكن لها مدلولاً آخر : نفس المدلول لكلمة «يهودي» في الغرب، في ألمانيا الغربية مثلاً قبل الحرب العالمية الثانية.

ـ هل تعتقد أنه من الممكن التوصل يوماً للتعايش معهم؟

صمت عدنان برهة، ثمّ قال :

ـ لا أظن... إن التعايش معهم برأيي مستحيل. إنهم لا يرضون بذلك.

ـ إذاً ما فائدة القول بالدولة الديموقراطية ؟

ـ بصراحة... إنه قول غير عملي، ولا جدوى منه.

ـ وما هو الهدف العملي.؟

ولم يجب عدنان مباشرة، وبقي ينظر إلى الطريق أمامه، ثم قال :

ـ بالضبط، لست أدري. إقامة دولة فلسطينية مستقلّة هو الهدف العملي الوحيد لهذه المرحلة.

ـ وماذا تعني بهذه المرحلة.؟

ـ أعني مرحلة الانحسار التي نحن فيها.

ـ وهل تعتقد أنه بمقدورنا تحقيق هذا الهدف ونحن في مرحلة انحسار ؟

ـ إذا تحرّكنا سريعاً. اليهود مستعدون لقبول دولة في الضفة والقطاع لقاء سلم حقيقي.

ـ وكيف نقنع أبناء شعبنا بذلك ؟

ـ لا أدري. أنتم في الخارج ترون الأمور على غير ما نراها نحن. بالفعل، لست أدري ما هو الحل. لكن أعرف أنه يتوجب علينا العمل بضوء الإمكانيات المتاحة. لا نستطيع إضاعة الفرص كما كنا نفعل في الماضي، حتى يأتي الحل الشامل ضربة واحدة. الحل لن يأتي هكذا... هدفنا الآن يجب أن يكون منعهم من ابتلاع ما تبقى من الأرض. منذ 48، كان الناس يعتقدون أنه من غير الممكن أن يقف العالم مكتوف اليدين تجاه ما جرى في فلسطين، وأن الدنيا ستقوم وتقعد حتى يسترجع الفلسطينيون حقوقهم. والذي يحيرني أنه حتى اليوم، أي بعد عشرين سنة وبالرّغم من عدم اكتراث العالم وضعف العرب، ما زال هناك من يعتقد أنّ الحل قريب. الذي أريد قوله هو أنه ليس هناك أحد سيسترجع لنا حقوقنا ويحرر لنا أرضنا. الآن وفي ضوء ما جرى، أصبحت عملية التحرير أمراً صعباً وتحقيقها لا يمكن أن يكون إلا مرحلياً. في هذه المرحلة، الهدف الذي يمكن تحقيقه، هو تحرير ما احتل منذ سنتين لا ما احتل منذ 21 سنة. العالم كله يدعمنا في هذا، لا شك في ذلك... وعبد الناصر يفهم هذا وقابل لما أقول، وسترى.

ـ لكن شعبنا لا يقبل هذا المنطق. وسترى. أنتم في الداخل لا تقدرون الوضع في الخارج... الأغوار تعج بالفدائيين وعمان أصبحت عاصمة المقاومة... الناس لا تقول إلا بالثورة والتحرير...

وخفف عدنان سرعة السيارة قليلا، والتفت إلى مفيد، وقال :

ـ كن مطمئناً. إننا في الداخل سنقوم بواجبنا مهما كانت الظروف.

ـ أعرف ذلك...

ـ مهما كان الخلاف في النظر، نحن معكم إلى النهاية...

13

وصلا إلى مشارف القدس، وظهرت أمامهما المدينة تتلألأ في ضوئها الفضي الأزرق. تنشق مفيد هواءها النقي. هل هناك هواء أنقى من هواء القدس أو ألذّ طعماً.؟ ودخلا المدينة وفجأة شعر مفيد بانقباض شديد. وسأله عدنان :

ـ هل نتناول فنجان قهوة.؟ لا يزال أمامنا متسعاً من الوقت. وهز مفيد رأسه نفياً.

ـ إذاً، سأتوقف لشراء ساندويش في باب العامود، ثم نسير رأساً.

وتوقف عدنان بالسيارة أمام دكان عربي، ونزل من السيارة، في حين بقي مفيد جالساً في المقعد الأمامي. ولم ينتبه في بادئ الأمر إلى صوت رجل يتكلم إليه. ورفع رأسه فرأى بوليسا يقول له شيئاً بالعبرية، ويشير إلى السيارة. لم يدر ما يقول. أشار إلى الدكان حيث كان عدنان. فقال البوليس شيئاً آخر وهو يمسك بمقبض باب السيارة. وفهم مفيد أنه يريده أن يخرج، فوضع يده في جيبه ببطء كأنه يبحث عن هويته، وهي في جيب قميصه، وفي تلك اللحظة، رأى عدنان يخرج من الدكان ويتوقف لحظة عندما رأى رجل البوليس، ثم يهرع نحوه وهو يقول شيئاً بالعبرية. وتبادل هو والبوليس حديثاً قصيراً انتهى بأن تصافح الإثنان.

قال عدنان وهو يدير المحرك مبتسماً :

ـ لا ينشغل لك بال، أوقفت السيارة في مكان ممنوع. ماذا طلب منك.؟

كان مفيد يجلس صامتاً، أبيض الوجه. شعر بالخوف لأول مرة منذ عبور النهر. وسأله عدنان ثانية :

ـ شو قال لك؟

ـ قال شيئاً بالعبرية. كان يطلب أوراق السيارة أو هويتي، لا أدري.

وأخذ كيس الورق الذي وضعه عدنان على المقعد بينهما، وتناول منه سندويشا :

ـ لو تأخرت لحظة لكان اعتقلني.

ـ ليش يعتقلك؟ معك ورقة الهوية.

ـ لا يزال أمامنا عدة ساعات على الأقل قبل غياب الشمس. ماذا سنفعل حتى ذلك الحين.؟

ـ سيمضي الوقت بسرعة، أول شيء، يجب أن نتأكد من أن الوضع هادئ، ولا توجد دوريات غير اعتيادية.

وما كاد ينتهي من كلامه حتى سمعا دوي انفجار آتياً من داخل المدينة القديمة. وما أن وصلا إلى طريق القدس ـ أريحا حتى رأيا حاجزاً للتفتيش، وقد توقفت أمامه عدة سيارات. فخفف عدنان السير دون أن يتوقف، وظل سائراً إلى أن وصل بالسيارة إلى الحاجز. وتقدم نحوه جندي إسرائيلي وتطلع إلى الأوراق التي قدمها له ونظر إليه ثم إلى الأوراق وقال له بعض كلمات بالعبرية، ثمّ أشار إليه بالمرور. ورأى مفيد ركاب سيارة عربية متوقفة إلى جانب الطريق، وجندياً إسرائيلياً يفتح الباب ويخرج ركابها ويضرب أحدهم بقفا بندقيته، وهو يصيح به. وقال عدنان :

ـ لا تهتم للأمر. إنهم يضربون ويشتمون كلما وقع حادث.

ـ إنهم يعاملونهم كالبهائم.

ـ أفضل من إطلاق النار عليهم أو اعتقالهم.

وبعد قليل، توقفا عند حاجز آخر، حيث كانت مجموعة من الجنود تقف في وسط الشارع وتجري تحقيقاً آخر في الهويات. وقال عدنان :

ـ هؤلاء حرس الحدود. معظمهم من الدّروز. إبق ساكتاً ولا تتفوه بكلمة.

أخذ الجندي الأوراق التي قدمها إليه عدنان، وقلبها بين يديه ثم قال بالعربية :

ـ فين متسهل.؟

ـ لا ريحا.

ـ والأخ ؟

ـ قريب، وهذه هويته.

ـ طيب تفضل.

ـ شكراً... أين كان الانفجار؟

ـ بالقرب من باب الخليل.

ـ كان في إصابات ؟

ـ يظهر هيك.

وسار عدنان بالسيارة في الطريق الفارغة إلاّ من سيارات حرس الحدود، وباص آت من أريحا. وعندما مرّ الباص قال :

ـ مساكين ركاب الباص. لا يعرفون ماذا ينتظرهم.

ـ لكنهم آتون من خارج القدس. ولا يمكن أن يكون لهم صلة بالحادث.

ـ سيفتشون جميعاً وتفحص هوياتهم، ويتعرضون للضرب والإهانة مثل غيرهم. إنه درس يعلمهم إيّاه اليهود كلما وقع حادث.

كان مفيد يفكر بعبور النهر. إذا استمر الوضع متوتراً فربما من الأفضل عدم عبوره الليلة. هل يقضي الليلة في أريحا أم يغامر بالعبور ؟ وإذا بقي الليلة في أريحا ماذا يفعل إذا قاموا بحملة تفتيش ؟ فكر في نفسه : الأفضل أن أعبر الليلة. لن تستغرق العملية أكثر من نصف ساعة على كل حال.

والتفت مفيد إلى عدنان :

ـ مقص الأسلاك...

ـ إنه في المحفظة بالقرب من قدميك.

وكان مفيد قد لاحظ المحفظة الجلدية السوداء، تناولها الآن ونظر في داخلها وأخرج منها المقص. والتفت إليه عدنان قائلاً :

ـ هناك غرض آخر في المحفظة. هدية لك.

ومدّ مفيد يده داخل المحفظة ثانية، وأخرج مسدساً عسكرياً. وقلّبه بيده. كان من صنع أمريكي.

ـ ألف شكر. سأهديك مثله يوماً ما. ووضع المسدس والمقص إلى جانبه على المقعد. وشعر بانفراج موجة القلق فجأة، وشعر بالغبطة والثقة تسريان في عروقه. وتمنى لو أن عدنان سيبقى معه، ويعبر النهر معه، وقال :

- من رأيك أن أبيت الليلة في أريحا.؟
- لماذا ؟ هل تريد لقاء أحد ؟
- ربما شدّدوا المراقبة على النهر بسبب الانفجار.
- لا أظن. قد يقوموا بالتفتيش في أريحا خلال الليل على كل حال. لنلقي نظرة على طريق النهر. إذا كانت الحالة هادئة يجب أن تعبر حالاً دون انتظار هبوط الظلام... إذا عززوا دورياتهم فسيعززونها بعد غياب الشمس لأنهم لا يتوقعون أن يعبر أحد في وضح النهار.

لم يخطر ذلك ببال مفيد. رباطة جأش عدنان جعلته يثق بكلامه. لكن ماذا يفعل لو فاجأته دورية وهو يقطع الأسلاك أو يخوض النهر ؟ هناك أبراج المراقبة على المرتفعات وفي رؤوس التلال.
- وإذا اكتشفت بواسطة أحد أبراج المراقبة.؟
- بعد الرابعة لا تعود الرؤية جيدة. وسنختار موقعاً لا يرى من أبراج المراقبة.

14

عندما وصلت السيارة إلى محاذاة النهر، كانت الشمس قد بدأت تغيب وراء الجبال، وامتد ظل أزرق شفاف على الأغوار. كان الحر شديدا والهواء جافا والطريق خالية تماما من السيارات. آخر سيارة مرت بهم، كانت سيارة حرس الحدود ذاهبة باتجاه القدس.
- أترى الهضبة هناك ؟ وخفف عدنان السير حتى توقفت السيارة. النهر على بعد 500 متر أو أقل. من هذه الزاوية لا يستطيع أي برج مراقبة رؤية المنعطف.
- هل أقطع مباشرة ؟
- لا، اختبئ وراء الهضبة حيث يمكنك مراقبة الطريق من الجانبين. وانتظر حتى مرور الدورية. بعد ذلك سيكون لديك نصف ساعة لقطع الأسلاك.
- هذا إذا كانت مواعيد الدوريات اعتيادية ولم تتغير بسبب الانفجار.
- إنهم لن يغيروا شيئاً قبل هبوط الظلام. وعلى اعتبار أن الذين قاموا بالعملية لن يحاولوا العبور إلا تحت جنح الظلام، صدقني ستبقى الدوريات على توقيتها حتى المغيب.

وقرر مفيد أن يعبر حالاً.
- طيب، سأنزل. ومدّ يده إلى عدنان. وتصافحا بحرارة. ووضع المسدس في وسطه

والمقص في جيبه الخلفي، وركض إلى الهضبة وأخـذ يتسلقهـا، وسمع السيـارة وهي تعود باتجاه القدس.

تمـدد على الأرض وراء عليقـة جفت أوراقهـا وأخـذ يسترجـع نفسـه. كـان النهر يبـدو بوضوح من موقعـه، وترعـة التراب ومن ورائهـا الأسلاك الشـائكـة. كل شيء حـولـه سـاكن، لا صوت إلا صوت حفيف الريح ودقات قلبـه المتسـارعـة من عنـاء التسلق. وفجـأة أحس بعطش شديد. وفي نفس اللحظة سمع هدير محرك يعلو بسرعة مخيفة. نظر إلى جـانبي الطريق ولم ير شيئـا، واستمر الهـدير بـالعلو والتصـاعـد حتى أصبح يصم الآذان. وفجـأة أحس بشيء فـوق رأسـه، وتطلع إلى فوق فرأى طـائرة هليوكوبتر تمر من فوقـه على علـو بضعـة أمتـار بـاتجـاه النهر.

بقي هـامـداً في مكـانـه حتى توارت الهليـوكـوبتر وانقطـع ضجيـج محركهـا. نظر إلى ساعته : الرابعة والنصف. كانت الظلال قد وصلت إلى سفوح الجبال في الضفة الشرقيـة، وخيم الصمت ثانية.

أعـد نفسـه لقطع الطريق، وفيمـا هو يهم بـالقيـام، سمع صـوت محرك سيـارة، فـارتمى أرضاً. لم يكن لـديـه شـك هـذه المرة بـأن صوت المحرك كـان محرك سيـارة. وفي لحظـات ظهرت سيارة نصف مجنزرة تسير مسرعة في الطريق الضيقة بمحـاذاة الترعـة الترابيـة بـاتجـاه الشمال، وفيها أربعة جنود يجلسون في الخلف وجندي خـامس بجـانب السـائق. وظل يراقبهـا حتى اختفت وراء المنعطف.

الآن... قام من مكانه وأخذ ينزلق في المنحـدر بسرعـة حتى وصل إلى الطريق العـام، وكـان خـاليـاً. قطعـه راكضـاً محني الظهر، واضعـاً يـده على المقص كي لا يقـع من جيبـه الخلفي. ووصل إلى الحاجز الأول من الأسلاك الشائكة وأخذ يقصها بسرعة. وعندما قصّ فجوة حشر نفسه من خلالها إلى الفسحة بين الحاجز الأول والثاني، وكانت الفسحـة ملآى بـالأسلاك المكوكعة وأخذ يقص طريقه من بينها إلى أن وصل إلى الحاجز الثاني. وكـان العرق يتصبب من جبينه، ويداه قد تخضبتا بالدم بسبب عشرات الخدوش. فأخذ يمسحها بمنديله ثم بقميصـه الذي تخضب أيضاً بالدم. ومن موقعه الآن رأى النهر والضفة المحاذية، وأدرك أن المياه ضحلة لا تصل إلى خاصرته، وبالإمكان خوضها بمدة قصيرة. وأخذ يعمل المقص في الشريط الثاني، وكان أكثر سمكاً من الشريط الأول ويتطلب قصه قوة أكبر ووقتا أطول. كان قلبه يدق بشـدة من التعب والقلق. توقف لحظة لمسح العرق عن جبينه وعينيـه... تطلع إلى الجبـال عبر النهر ورأى رؤوسها تلتهب بـأشعـة المغيب، وخيم الظلام على سفوحهـا... دقـائق ويكون هنـاك...

وعاد يقطع الشريط بكل مـا أوتي من قوة. وأخيراً فتح فجوة تسعـه وأخـذ يزحف من خلالها إلى الجانب الآخر حتى وصل إلى حافة النهر، وقفز في الماء.

وصل إلى منتصف النهر تقريباً عندما سمع صوت محرك الهيليوكوبتر... وبسرعة فـائقـة امتـلأ الجـو بـالضجيـج. جمـد في مكـانـه، ثم غطس في المـاء ببـطء حتى رقبته، ثم أخذ يدفع بنفسه بـاتجـاه الضفـة الأخرى... أحس كـأنـه في حلم، يركض وهو واقف في مكـانـه. وفجـأة انقطع ضجيج محرك الهليوكـوبتر، ورفـع رأسـه ولم ير شيئـا، وراح يدفع نفسه نحو الضفة الأخرى.

الفصل الثالث

بَيْرُوت (1)

1

نظر مخلص من نافذة الطائرة إلى الأكواخ والبيوت الخشبية التي بدت كالألعاب، ورأى ظل الطائرة ينساب على الأرض بسرعة متزايدة كلما اقتربت الطائرة من المدرج وقال في نفسه : «نأتي ونروح في الدرجة الأولى، وهم قابعون في أكواخهم».

عوّد نفسه أن لا يستسلم للأفكار السوداء، لكنه في كثير من الأحيان كان يفشل في ذلك، فالعادة لا تصبح طبيعة مهما طالت. لقد خرجت حياته عن فلكها الطبيعي منذ مطلع شبابه، وها هو ما زال يفتش عن قطب يجمع حياته حوله. الأيام تسير بسرعة والنهاية لا يعرف قربها أو بعدها. يحس أن حياته تهدر يوماً بعد يوم، والزمن يفلت من بين يديه.

راوده الآن، والطائرة تحط فوق المدرج وتتوقف محركاتها تدريجياً، ذلك الشعور الغامض من القلق الممزوج بالفرح، الذي يستحوذ على النفس لدى كل وصول. بقي جالساً في مقعده إلى أن توقفت الطائرة، وفتح بابها الخارجي وبدأ الركاب بالنزول.

2

كان أكرم بانتظاره خارج باب الجمارك بين عشرات المستقبلين. لوّح بيده وهو يبتسم ابتسامته الكبيرة. وتعانقا بحرارة :

وسارا إلى السيارة، وأكرم يصرّ على حمل الحقيبة. كان أصغر سنّاً من مخلص، وتخرّج من الجامعة بعده سنوات، وانضم في العام الفائت إلى معهد التخطيط والتوثيق عند تأسيسه

برئاسة الدكتور يونس. قال وهو يدير محرك السيارة :

ـ ضعفان.

كان مخلص يتطلع حوله بشغف فأجاب ضاحكاً :

ـ مش ضعفان. إنّه السن يتقدم.

ـ ولو... شو صار عمرك ؟ أربعين ؟ ما زلت في عزّ الشباب... كيف حال العائلة.؟

ـ ستصل ماري ومعها سلوى في الأسبوع القادم. هل ستكون الشقة جاهزة.؟

ـ أمس راجعت مكتب البِنايات وأكدوا لي أنها ستكون جاهزة. المدير المسؤول قال إنه يعرفك...

ـ هل أخبرك بأية بناية ستكون الشقة.؟ في البناية المطلّة على البحر أو البناية الخلفية.؟

ـ لست أدري. سنراه غداً. الليلة ستنزل عندي.

3

كانت شقة أكرم في الطابق الثاني من بناية صغيرة تقع في أول طلعة شوران، وتتألف من ثلاث غرف ومطبخ صغير وشرفة تطل على الشارع والمسبح العسكري. أحس مخلص بالنشاط يعاوده بعد أن استحم وارتدى ثيابا نظيفة. وقال وهو يتناول قدح الشاي الذي قدمه له أكرم :

ـ سأنام باكراً... إني تعب.

ـ سأعطيك غداً مفتاحاً للشقة لِتدخل وتخرج كما تشاء.

ـ هل لديك ارتباط الليلة ؟

ـ سأغيب ساعة بالأكثر. هل تحتاج إلى شيء ؟

ـ أبداً. أي يوم تبدأ الدروس ؟

ـ يوم الخميس.

ـ هل تعرف أوقات المواد التي سأدرسها ؟ في الصباح أو بعد الظهر ؟

ـ أخبروني أنك ستدرس مادتين.

ـ يهمني ترتيب وقتي لكي ينسجم مع عملي في المركز.

ـ لا ينشغل بالك. برنامجك في المركز تقرره أنت كما تشاء.

وقال مخلص وهو يضع فنجان الشاي على الطاولة :

ـ إني قادم للعمل في المركز، لا للتدريس... على فكرة ثانية، سأقوم بمشوار على الكورنيش... وبعدها آوي إلى الفراش. إلى اللقاء في الصباح.

4

كان مخلص متأكداً أن شيئاً ما سيحدث قبل نهاية السنة، قبل نهاية الصيف. فقرر الذهاب إلى بيروت وقبول منصب أستاذ زائر في الجامعة الأمريكية، مما يمكنه من الحصول على شقة مفروشة له ولعائلته في حرم الجامعة وبالوقت ذاته من العمل في مركز التخطيط والتوثيق. كان الدكتور يونس، مدير المركز، قد أبرق إليه يدعوه إلى الانضمام إلى المركز، وحالاً أجابه مخلص بالقبول.

كان المركز يقع في بناية مقابل الجونير كولج، كما كانت كلية بيروت تدعى آنذاك، في شارع صغير يتفرع عن شارع السادات. سار إليه مخلص في صباح اليوم التالي، ودق الجرس، ففتح له الباب شاب في مطلع العشرين، وقال عندما رآه :

ـ أهلاً وسهلاً، دكتور مخلص، مش هيك ؟ تفضل... تفضل...

وقاده إلى غرفة واسعة يتصدرها مكتب عريض وبضعة مقاعد جلدية، وفي طرفها طاولة مستطيلة حولها عدد من الكراسي.

ـ تفضل، استريح. الدكتور يونس تأخر شوي. بتريد قهوة أو شاي ؟

ـ شاي من فضلك.

وصل الدكتور يونس حوالي الساعة العاشرة، وصافح مخلص وهو يقول معتذراً :

ـ تأخرنا مبارح في الاجتماع. أصبح من عادتنا أن نسهر ليلاً ونتأخر في الصباح... هل قدموا لك الشاي ؟ أو بتريد قهوة... لا تتصور كم أنا سعيد بحضورك.

وحاول مخلص أن يتذكر المرة الأخيرة التي اجتمع فيها بالدكتور يونس. لقد هرم وخط الشيب شعره، لكنه مازال يتأنق في ملابسه. كان رباط عنقه من الحرير وقميصه وردي اللون.

ـ أكرم سيحضر بعد قليل. أريد أول شيء أن أعرفك على زملائنا وأريك مكاتبنا

المتواضعة. ثم نعود ونتحدث. وفتح الباب وأشار إلى مخلص أن يتقدم إلى المكتب المجاور حيث نهض لملاقاتهما شاب أسمر الوجه قصير القامة، في أواخر العشرينات من عمره :

ـ الأستاذ نبيل الشاعر... من أقدر الباحثين. خريج الجامعة الأمريكية في الاقتصاد، وهو المسؤول عن قسم الأبحاث.

ومدّ مخلص يده مصافحاً. كان من عادته أن يفرز الأفراد تلقائيا عندما يجتمع إليهم لأول مرة إلى فئات : فئة العابسين وفئة الباسمين، فئة البطيئين وفئة السريعين، فئة المنظمين وفئة المهملين، ويربط بين هذه المقاييس بتركيب شخصيتهم وأسلوب تفكيرهم ومسلكهم. وكان أكره الفئات إليه فئة العابسين وفئة البطيئين. كان نبيل حتماً مع فئة الباسمين، فقد كانت ابتسامته عريضة لا تصنع فيها. وقال الدكتور يونس :

ـ هل الأستاذ محمود موجود ؟

ـ أعتقد أنه في غرفته. هل استدعيه ؟

ـ لا. سنذهب إليه.

وسارا إلى المكتب المحادي .

ـ دكتور محمود.؟

كان الدكتور محمود شاباً في مطلع الثلاثينات يضع نظارات سميكة على عينيه. وكان أيضاً من الباسمين، فصافحه مخلص بحرارة. ودعاهم الدكتور يونس جميعاً إلى مكتبه.

ـ أهلاً... أهلاً... بالدكتور مخلص، قال الدكتور يونس وهو يجلس خلف مكتبه العريض.

وسأله مخلص :

ـ ما نوع الدراسات التي تعدّونها ؟

ـ مختلف أنواع الدراسات. نحن نقرر مواضيع البحث. لكنهم نادراً ما يطلبون منا شيئاً محدداً.

وقال نبيل :

ـ لهذا ألبحوث التي قمنا بها حتى الآن ما زالت في الاضبارات ولا أحد يقراها.

وقال الدكتور يونس بشيء من الحدة :

ـ إنهم لا يعرفون كيف يستعملونها.

وقال مخلص بدهشة :

ـ إذن ما الفائدة منها ؟

فضحك الدكتور يونس وقال :

ـ ربّما سيستعملونها يوماً ما.

وفيما بعد، عندما اطلع مخلص على نموذج من الدراسات التي تحدث عنها الدكتور يونس، أدرك لماذا أهملت وبقيت في الإضبارات. كانت بمعظمها دراسات نظرية أكاديمية مكتوبة بلغة معقدة لا يفهمها إلا المتخصصون.

وفي اليوم التالي، عندما حضر مخلص إلى مكتبه ليباشر عمله، وجد الدكتور يونس بانتظاره. كان يعد نفسه ليسمع منه تقويماً إيجابياً واطراءاً على الدراسات ليدعم موقفه. لكن مخلص قال له بصراحة :

ـ يجب تركيب البحوث على أساس آخر. يجب تناول القضايا والحاجات العملية التي نجابهها يومياً. الأمور النظرية لا تفيد في المهام العملية، وهذه المهام هي التي يجب أن نركّز عليها.

فأجاب الدكتور يونس بشيء من العصبية :

ـ هذا ما أقوله. لكنهم لا يقولون لنا ما هي حاجاتهم العملية. فماذا نفعل ؟ نخترعها ؟ سأريك الرسائل التي أرسلناها إلى كافة الأطراف، دون جدوى.

ـ لندعو كفاءات من خارج المكتب للتّداول معها.

ـ لقد شكلنا مجلساً استشارياً لهذا الغرض. وعدد أسماء الذين يتألف منهم المجلس الاستشاري.

ـ ومتى كان آخر اجتماع للمجلس ؟

وتردد الدكتور يونس لحظة ثم قال :

ـ لم نتفق على مواعيد محددة للاجتماعات. في الواقع لم نجتمع منذ اللقاء الأول منذ بضعة أشهر.

ـ إذن، لنعقد اجتماعاً في القريب العاجل.

وقَبِلَ الاقتراح بلهفة، كأنه يريد أن يشاركه أحد في مسؤولية القرار. ونادى سكرتيرته وطلب إليها أن تتصل حالاً بأعضاء المجلس وتدعوهم لاجتماع حدد موعده بعد بضعة أيام.

5

كانت الريح الغربية تهب بقوة فتملأ البحر على مدّ النظر بالأمواج الصغيرة المتكسرة، وتجعل الغيوم تسرع نحو قمة صنين وتحجبها عن النظر. عند الشاطئ كانت المياه عالية

والأمواج تصطدم صاخبة على حائط الكورنيش، وكان العلم الأحمر يرفرف فوق مسبح الجامعة مانعاً الاستحمام إلا في البركة. كانت الشقة تطلّ على الكورنيش والبحر مباشرة.

جلس مخلص في الشرفة يشرب قهوته ويراقب الأمواج سارح الفكر. لقد قام متأخراً بعد ليلة ملأى بالمتاعب. ذهب إلى المطار ليستقبل زوجته وابنته الصغيرة، لكنهما لم يصلا على الطائرة القادمة من لندن في الساعة السابعة مساء كما كان محدداً. فجلس في مقهى المطار ينتظر وصول الطائرة التالية. ولم تصلا عليها أيضاً. قال له المسؤول في شركة الطيران : «هذه الطائرة الأخيرة. لا فائدة من الانتظار».

ولكنه انتظر إلى أن اقفر المطار، وعاد إلى الشقة الفارغة مشغول البال. ماذا حدث ؟ لابد أن زوجته وصلت إلى لندن متأخرة فلم تلحق بطائرة بيروت. غداً تصل. وجلس في الظلمة قليلاً، ثم نهض وخلع ملابسه وآوى إلى فراشه.

استيقظ على رنين التلفون بجانب فراشه. أشعل الضوء، ونظر إلى ساعته وهو يرفع السماعة. كانت الواحدة بعد منتصف الليل.

- ألو... دكتور مخلص ؟

كان صوتاً لا يعرفه.

- نعم. من يتكلم.؟

- لن تتذكرني. السيدة زوجتك تودّ التحدث إليك.

ثم سمع صوت زوجته. وصلت إلى المطار في الساعة الثانية عشرة، جاءت على طائرة شركة أخرى. مرّت من الجمارك ثم وقفت لا تدري ماذا تفعل عندما لم تجد أحداً في انتظارها. كان المطار خالياً من الناس. وصفت حالتها عند ذاك. سلوى الصغيرة نائمة في حضنها والأمتعة مكومة إلى جانبها، ولا تدري ماذا تفعل. قالت : «الدموع بدأت تطفر من عيني». ثم رأت رجلاً يسير نحوها، وسألها بالإنكَليزية إذا كانت تحتاج إلى مساعدة. فأخبرته عن وضعها. وعندما ذكرت له اسم مخلص انفرجت أسارير وجهه، وقال : «أنا ومخلص من بلدة واحدة. كان زميلي في المدرسة». ثم اتصل بسنترال الجامعة فلم يعرفوا رقم تلفون الشقة، فسألها إذا كانت تذكر اسم أحد أصدقاء زوجها في بيروت، وكان لديها اسم أكرم وعنوانه، فاتصل به وحصل منه على رقم تلفون الشقة.

- وكيف سلوى ؟

- إنها نائمة. استيقظت الآن. كل شيء على ما يرام. ستراك قريباً.

وعندما دق باب الشقة كانت الساعة قد قاربت الثانية صباحاً. كانت زوجته تحمل سلوى، وكان لها من العمر سنتان، وكانت تنظر إلى ما حولها بعينين واسعتين طار منهما كل أثر للنوم. وما أن رأت مخلص حتى مدت ذراعيها نحوه بفرح. ووقف وراءهما رجل لم يعرفه مخلص.

وعندما ذكر اسمه، تذكره بالحال، لم يره منذ كانَا سويًا في المدرسة الإنكَليزية بيافا، في سن الرابعة أو الخامسة. طلب إليه أن يجلس، فاعتذر : «الساعة متأخرة... الحمد لله على سلامتها».

قال مخلص :

- يجب أن نلتقي ثانية ؟

- من كل بد. سأتّصل بك. أعرف أين أنت.

كانت ليلة غريبة، ولم يستطع العودة إلى النوم حتى الفجر، فنام حتى العاشرة.

6

أدخله عمله في مكتب التخطيط والتوثيق في عالم المقاومة، وأبعده في نفس الوقت، دون أن يسلخه تماماً، عن عالمه في الجامعة، وعن عالم أصدقائه القدامى في رأس بيروت.

بدأ يشعر بتغيير عميق في تفكيره، حتى أنه أصبح لا طاقة له على مطالعة الكتب، بما فيها تلك التي كان في الماضي لا يمضي يوم دون أن يطالع فيها. صارت أفكار المؤلفين بالنسبة له، حتى الثوريين منهم، تبدو نظرية مجردة لا علاقة لها بالواقع الذي يعيشه. وعندما حان تجديد اشتراكه في Les Temps Modernes والـ New Left Review لم يجدده. كلما حاول قراءة مقال أو كتاب استملكه الضجر، وكان في السابق يلتهم المقالات والكتب التهاماً. أصبح يشعر بنفس الضجر عندما يجالس أصدقاءه القدماء وأصبح يتوق إلى صحبة العاملين معه وإلى جو المقاومة.

وبالرغم من هذا، فقد استمر على نمط معيشته، فكان يحب الجلوس في فيصل أو الهورس شو واحتساء البيرة في حديقة الكابتنز كابن. كان ما زال على عاداته، بالرغم من التحولات الفكرية التي طرأت عليه، ولم يحاول، كما كان يفعل في شبابه، أن يغير سلوكه لكي يؤكد لنفسه وللآخرين أنه قد أصبح شخصاً آخر. بات يدرك، كما قال البير كامو، إن الإنسان لا يتغير إلا في القصص والروايات. مضى السن الذي كان يحسن فيه لعب الأدوار.

7

دخل عليه أكرم في مكتبه وجلس في المقعد أمامه. وكان كثيراً ما يفعل ذلك عندما يجابهه مشكل يريد بحثه أو إذا كان يودّ مجرد الحديث.

ـ هل تعرف مخيّم نهر البارد ؟.

فقال مخلص :

ـ لا. لا أعرفه. لماذا تسأل ؟

ـ لأني أود أن ترافقني لزيارة والدي هناك.

كانت عائلة أكرم، أو مَن تبقى من عائلته، تقيم في مخيم نهر البارد، وكان أكرم يزورهم مرة أو مرتين في الشهر.

ـ إنّني ذاهب السبت ؟ نتناول الغذاء ونعود بعد الظهر. سيفرح بك الوالد كثيراً.

وبدون تردد قبل مخلص الدعوة.

وفي صباح يوم السبت جاءه أكرم بسيارته الفولكس فاكن. وسأله أكرم وهو يدير محرّك السيارة :

ـ هل جلبت هويتك ؟

ـ معي جواز سفري.

ـ ماشي الحال.

وعندما سارت السيارة قال مخلص :

ـ وفرضاً لم يكن معي جواز السفر ؟

ـ يجب أن لا تخرج من البيت دون دفتر الهوية أو جواز السفر. هذه هي القاعدة هنا.

ـ وهل أوقفت مرة ؟

ـ أبداً. لكني منذ أن كنت طفلاً أخاف الشرطة والمكتب الثاني، خوف السلطة أحمله معي أينما توجهت.

ـ لكن يقولون إن الأوضاع تغيرت الآن.

ـ بالطبع تغيرت. ألم تلاحظ ذلك ؟

ـ أين ؟.

ـ في شاتيلا مثلا أو في تل الزعتر.

ـ لا أعرف شاتيلا ولا تل الزعتر.
والتفت إليه أكرم بدهشة :
ـ أية مخيمات تعرف؟
ـ مخيم البقعة في عمان توقفنا فية بضع دقائق.
وضحك أكرم وقال :
ـ أنت أول فلسطيني أعرفه لا يعرف المخيمات. لست أدري، ربما هناك كثيرون مثلك. أنا حتى مجيئي إلى بيروت لم أكن أعرف إلا المخيمات. ترعرعت فيها، وذهبت إلى المدرسة فيها، وأصبحت شاباً فيها، حتى حصلت على منحة من الجامعة الأمريكية وانتقلت إلى بيروت. كنت في الثامنة عشرة آنذاك.
ـ وكم كان عمرك عندما غادرت عائلتُك فلسطين؟
ـ ست أو سبع سنوات. أقمنا في السنوات الأولى في مخيم الميه وميه في الجنوب. سكنا في الخيام في بادئ الأمر. كانت تقتلعها العواصف في الشتاء. فنركض خلفها في الوحل ونعيد تثبيتها في الأرض في منتصف الليل. الوحل والثلج والبرد القارس... أكره من ذلك كانت الشرطة. كان في الميه وميه مركز للمكتب الثاني، داخل المخيم. وعندما انتقلنا إلى مخيم النهر البارد وجدنا مركزاً مثله تماماً. كان الشرطي امبراطوراً في المخيم. إذا مر أمام خيمة وخطر له أن يرفع الستار عن بابها ليتفرج على من بداخلها، لم يكن بمقدورنا أن نقول له كلمة واحدة. وحتى بعد بناء الأكواخ لم ننج من فضولهم. كانوا يرفسون الباب بأرجلهم، لإرهابنا، أو للتمتع بمنظر الفتيات والنساء.
وتوقف أكرم قليلاً وهو ينظر إلى الطريق أمامه.
ـ كان العمل السياسي ممنوعاً علينا. كان ممنوعا أن نتظاهر في يوم وعد بلفور وفي يوم إعلان إسرائيل. كانوا ينهالون علينا ضرباً عندما نخالف أوامرهم. وكانوا أحياناً يفرضون علينا فرضاً الاحتفاء بهم وتقديم الطعام لهم. كانت أمي تهرع لتعد لهم المازات ويرسلني أبي إلى الدكان الصغير لأشتري بطحة عرق.
وسأله مخلص :
ـ وكيف الأمور الآن ؟.
ـ سترى بنفسك. لم يعد لهم وجود في المخيمات. طردهم الأهالي كما يطرد جنود الاحتلال. حاولوا العودة لكنهم ردوا بالقوة.

ـ ومن يحافظ على الأمن ؟

ـ أي أمن ؟ هم الذين كانوا يخرقون الأمن. الآن يوجد الكفاح المسلح والمنظمات المختلفة.

كان مخلص يعهد طريق طرابلس جيداً، لكنه لم يكن يعرف أين يقع النهر البارد. لذلك عندما توقفت بهما السيارة وقال أكرم «وصلنا» لم يعرف أين كانا. كانت السيارة في منتصف ساحة صغيرة تعج بالأطفال، يركضون وينادون ويضحكون. ولوح مخلص إليهم بيده، فأخذوا يلوحون له بأيديهم : «مرحباً عمو. أهلاً عمو...». كانوا مملوئين صحة ونشاطاً.

وقال مخلص وهما يخرجان من السيارة :

ـ ألا يذهبون إلى المدرسة ؟

ـ الآن فرصة الغذاء...

وسارا في زقاق ضيق تسري في منتصفه المجارير المكشوفة إلى أن وصلا إلى باب منخفض دهن بلون أزرق. وتوقف أكرم أمامه وقرعه. وقال صوت من الداخل :

ـ مين ؟

ـ أنا. افتحي.

وفي هذه اللحظة حضر إلى مخلص ما ذكرته به رائحة المجاري المكشوفة : رائحة شوارع المنشية في يافا... رائحة الصابون والمياه العكرة... وهواء البحر يختلط بها. شعر أنه يعهد هذا المكان. كأنه كان فيه سابقاً.

لاقاهم والد أكرم بالتأهيل والترحيب. كان يناهز الستين من عمره، نحيف البنية، متوسط الطول ويتكلم بلهجة عربية قريبة من الفصحى كالتي كان يتكلم بها عندما كان مدرساً في ترشيحا. وجلسوا في غرفة صغيرة حول مائدة فوقها بضعة صحون ومنفضة سجائر، وكان سقف الغرفة من تنك الزينكو وعلى الأرض فرشت حصيرة ممزقة الأطراف ولكنها نظيفة. ودخلت عليهم سيدة في الخمسينات من عمرها، ترتدي فستاناً أزرق وعلى رأسها خميرة بيضاء كالتي تلبسها النساء الدروز في قرى لبنان، وتُشْبِه أَكْرَمَ أشدّ الشبَه. وقال أكرم وهو ينهض من مكانه :

ـ الدكتور مخلص، يَمَّا. ثم أضاف : يجب أن نعود بعد الظهر، ونود أن نتناول الغذاء باكراً.

وقالت أم أكرم :

ـ ولو، شو صاير، تاكلوا وتمشوا...

وحاول أبو أكرم أن يقنعهما أن يبقيا ليلة :

- تقضي سهرة نجمع فيها الأصحاب ليتعرفوا على الدكتور مخلص.

ووعده مخلص بزيارة أخرى قريبة. وقالت أم أكرم :

- الطعام جاهز، أي وقت تريدون أن تأكلوا.

وقال أبو أكرم :

- قولي لحميدة تروح تجلب لنا ثلاثة بيبسي.

وبعد دقائق دخلت فتاة في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها، عسلية العينين، قصيرة الشعر، ترتدي ثوب المدرسة الأسود ذا القبة البيضاء، وتحمل ثلاث زجاجات بيبسي. وقبلها أكرم وقال لها برفق :

- سلمي على عمو الدكتور مخلص... إنها في الصف الخامس وستدخل السادس. علاماتها أعلى علامات في الصف.

وصافحت مخلص بحياء، والتفتت إلى أبيها وقالت :

- الناس متجمعين في دكان أبو حسن يتسمعون على الراديو... الفدائيين قاموا بعملية في الضفة.

ونظر أكرم إلى مخلص ثم إلى ساعته :

- سنسمع الأخبار في الواحدة.

وجاءت أم أكرم بالطعام تساعدها حميدة في وضع الصحون والشوك والملاعق. وأكل مخلص بشهية، وأم أكرم تلح عليه أن يزيد.

- الدكتور مخلص في بيته، لا تلحّي عليه.

ثم جلسوا يشربون القهوة. وقال أبو أكرم :

- إن شاء الله يأتي يوم ونستضيفك فيه في أرضنا.

وقال مخلص بلهجة جادة :

- ومتى تعتقد سيكون ذلك اليوم يا أبو أكرم ؟

فضحك أبو أكرم بشيء من المرارة.

- أعرف... صار لنا أكثر من عشرين سنة نقول سنعود غداً أو بعد غد. نعم سنعود... مهما كانت الظروف لن أسمح لنفسي أن أفقد الأمل. عندما غادرنا ترشيحا كان عمري إحدى وأربعين سنة. أنتم كنتم صغاراً، لا تعرفون معنى الاقتلاع. قبل أن نصحو من الصدمة لقيت

نفسي في الخمسين. وها أنا اليوم قد تعديت الستين. وحتى الآن ما زلت أشعر أن ما حدث ليس إلا حلماً، كابوساً سنصحو منه.

وقال مخلص :

ـ هل تقبل حلاً وسطاً ؟ هل تقبل دولة فلسطينية ؟

فقال أبو أكرم :

ـ يعني في الضفة وغزة ؟ وبقية فلسطين ؟ أنا عندي رأيي الخاص، إنما لو سألت الناس في هذا المخيم، فماذا تظن سيقولون لك ؟ إن أغلبيتهم من الجليل والساحل الشمالي. سيقولون لك نبقى في المخيمات عشرين سنة أخرى ولا نتنازل عن أرضنا.

وقال أكرم :

ـ وما سنفعل إذا بلع اليهود ما تبقى من فلسطين في عشرة أو عشرين سنة ؟

فقال أبو أكرم :

ـ كيف يبلعوا ما تبقى ! ليش هم بلعوا الجليل بعد ؟ الجليل واقف في حلقهم. خلال عشر سنوات سنصبح قادرين على صنع العجائب.

ـ عجائب.؟ مثلا ؟

ـ نحرر الأرض.

وقال مخلص :

ـ وكيف سيكون التحرير ؟

ـ بالثورة... بالحرب. لماذا يكون بقدرة أهل فيتنام محاربة أمريكا وليس بقدرتنا محاربة قبضة من الصهاينة ؟ بدون حرب لن نسترجع شيئاً. والذين يقولون لك إن باستطاعتنا الحصول على دولة في الضفة وغزة بمجرد القبول بمشروع روجرز أو غيره، لا يعرفون ماذا يقولون. إنهم لن يحصلوا على شيء، خذها مني.

وقال مخلص :

ـ وهل نحن قادرون على خوض حرب شعبية كالفيتناميين ؟

ـ ليش شو ناقصنا ؟ شباب ؟ مال ؟ سلاح ؟

وقال أكرم :

ـ إنك تفترض أن تقرير الأمر راجع لنا. الأنظمة لا تقبل خوض الحرب ولا تسمح لنا بخوضها. الأنظمة لا تريد الحرب ولا هي قادرة على الحرب.

وصمت أبو أكرم لحظة ثم قال بصوت هادئ :

ـ نحن لا نقبل بالدولة المسخ. نبقى حيث نحن... نربي أولادنا هنا وفي كل مكان يوجد فيه فلسطينيون. انظر إلى الجيل الطالع، أتراه جيلاً لبنانياً أو سورياً أو عراقياً أو كويتياً ؟

وهزّ مخلص رأسه موافقاً، واستمر أبو أكرم قائلاً :

ـ طيب. خلال عشر سنوات سيقارب عدد الفلسطينيين في الداخل مليونين وفي الخارج سيصل إلى مليونين... أي نصبح حوالي أربعة ملايين، نصفهم في أرض الوطن والنصف الآخر هنا وفي سوريا والأردن. أما اليهود فلن يصل عددهم إلى أكثر من ثلاثة ملايين... أليس كذلك يا أكرم ؟ يعني خلال عشر سنوات سيفوق عددنا عدد اليهود بمليون شخص، وسيصبح كل ثالث شخص في فلسطين إنساناً فلسطينياً بالرغم من أنف يهود العالم. فما رأيك ؟ وتابع قائلا : «لست أدري يا دكتور... قد يكون التعايش معهم ممكناً وقد لا يكون. قد يكون وضعنا في فلسطين يختلف عن الوضع في جنوبي أفريقيا. المشكلة ليست فقط بالنسبة لهم. المشكلة هي بالنسبة لنا أيضاً. أنا شخصياً لن أنسى ما حصل. وأؤكد لك أني أتكلم باسم أبناء جيلي من الفلسطينيين».

ونظر إلى ساعته وقال :

ـ راحت علينا الأخبار.

والتفت مخلص إلى أبو أكرم وقال :

ـ لنفرض أن ما تقوله قد يقع...

ـ وقاطعه أبو أكرم قائلاً :

ـ ولماذا الافتراض. نحن نتكلم بالأرقام...

ـ فليكن، هل يعني ذلك أنه حينذاك يصبح من الممكن التعايش مع اليهود ؟ اليوم في جنوب أفريقيا نسبة السود للبيض أكثر من خمسة لواحد بصالح السود، وما زالوا تحت سيطرتهم. لنفرض أننا توصلنا إلى اتفاق، إلى حل سياسي.

ـ أتظن أنه إذا قبلنا بخمس أرض فلسطين، أنهم سيرتمون في أحضاننا شاكرين ؟ أنا رأيتهم بأم عيني في الجليل... أنا أعرف اليهود...

قال أكرم :

- لا تنس أن هناك جيلاً غير الجيل الذي عهدته، جيل يرى الأمور بمنظار آخر، فيه قطاعات تؤيد حقنا في إقامة دولة مستقلة...

وقال أبو أكرم بشيء من الغضب :

- الجيل الإسرائيلي الطّالع أكثر شراسة من الجيل السابق... لقد تربوا على كراهيتنا واحتقارنا، وأنت تعرف ذلك. وتعرف أيضاً أن الذين يعترفون ببعض حقوقنا هم قلة صغيرة لا قوة لها.

وقال مخلص :

- إذا كان التفاهم مع اليهود أمراً مستحيلاً والحل السياسي غير ممكن، فما هو المخرج ؟ أن نرمي بهم في البحر بالقوة، كما يقولون أننا نريد أن نفعل عندما نصبح أقوياء ؟

فقال أبو أكرم بهدوء :

- من قال إننا نريد أن نرميهم في البحر ؟ لا حاجة إلى فعل ذلك، نحن لا نريد أن نفعل ذلك. انظر إلي ما حدث في الجزائر. رفض المستوطنون الفرنسيون حتى الاعتراف بأن هناك حقوقاً للعرب الجزائريين، أصروا حتى اللحظة الأخيرة أن الجزائر هي أرض فرنسية، إنها فرنسا... تماماً كما الثورة الجزائرية لم يرم الجزائريون المستوطنين الفرنسيين في البحر... قدموا لهم الخيار بأن يعيشوا في الجزائر أو أن يهاجروا. وعوّضوا عن أملاك الذين اختاروا الهجرة... نحن أيضاً سنقدم التعويضات لكل من يختار الهجرة، أما من يختار البقاء، فأهلاً به وسهلاً. لقد تعايشنا مع اليهود قروناً عديدة، ونستطيع التعايش معهم في المستقبل، لكن ليس تحت حكم دولتهم العنصرية، بل في ظل مساواة كاملة. إنما الصهيونية بطبيعتها غير قادرة على قبول مثل هذه المساواة. ولذلك يجب أولاً القضاء على الفكرة الصهيونية كنظام، كدولة. يا دكتور ما أقوله لك هو الحق. ولا يوجد لدي مطمع في قول غير الحق. فأنا لا أخاف أن أقول ما لا يعجب الأجانب وما يناقض موقف الحكام العرب.

8

عندما خرجا إلى الزقاق، وقف أبو أكرم وزوجته أمام الباب الصغير يودعانهما. قالت أم أكرم لمخلص :

- هذه الزيارة غير محسوبة. المرة القادمة أحضر معك الست.

وسارا في الزقاق الضيق إلى الساحة، وكانت قد خلت من الأطفال. ورأى مخلص امرأة بلباس قروي أمام أحد الأكواخ تعدّ طبخة من الكوسا والأرز. وعندما توقفا أمامها رفعت رأسها وابتسمت.

ثمّ توقفا أمام المدرسة، وكانت مؤلفة من غرفتين، في كل منهما حوالي أربعين طفلاً يجلسون على بنوك خشبية. وقال أكرم للمدرّسة أن تستمر في التدريس بعد أن توقفت عندما دخلا الغرفة وأثار وجودهما اهتمام الأطفال الذين أخذوا يبتسمون ويلوحون بأيديهم خفية، فأخذت المعلمة تضرب الطاولة بعصاها، دون جدوى. وأخذوا يتبارون بإرسال السلامات إلى أكرم ومخلص: «مرحباً عمو، سلامات عمو». وأخيراً هدأ حماسهم، وأخذت المعلمة تطرح عليهم الأسئلة، فانشغلوا يتبارون برفع أياديهم بحماس للإجابة، والكل يريد إبراز نفسه أمام الزائرين. وعندما غادرا الغرفة عاد الأطفال إلى جوهم الطبيعي ـ خليط من الضجر واللعب وأحلام اليقظة.

في الخارج رأوا عدداً من الأطفال الأكبر سناً يقفون في صف طويل للحصول على دفاتر كانت توزعها إحدى المعلمات. وكان يشرف عليهم صبي في حوالي الرابعة عشرة من عمره، يحمل عصا قصيرة ويضرب بها من خرج عن الصف ويصرخ بين الفترة والأخرى مقلداً الكبار:

ـ يلا أنت وهو... بالصف... بالصف يا حمار.

ورآه مخلص يتقدم نحو ولد صغير خرج عن الصف ويصفعه على قفا رقبته، فأخذ الولد يبكي، وأخذ الأولاد الذين كانوا يقفون بجانبه يتراجعون وهم رافعين أذرعهم ليتقوا ضرباته المتوقعة. وبالرغم من ذلك ظل بعض الأطفال يخرجون خلسة عن الصف محاولين التقدم على الآخرين. وكلما اشتكى أحد من الذين بقوا في أماكنهم، صاح به: «اسكت ولا أنت وهو». تماماً كما يفعل الكبار. واستمرّت حالة الفوضى هذه إلى أن وزعت المعلمة كل الدفاتر التي في حوزتها وتفرق الأطفال. فحصل بعضهم على دفتر أو دفترين وبقي البعض الآخر دون دفاتر. وتنادي المعلمة الأطفال إلى الصف، فيتلكأ البعض ويحاول البعض الآخر الهرب. ويلحق بهم الصبي فإذا أمسك بأحدهم لطمه، فيعلو الصراخ ويهرب الأطفال الذين أمسكت بهم المعلمة، وتعود إلى مناداتهم للعودة حتى يدخلوا الغرفة الصغيرة راضخين كالجند المهزوم.

وقال أكرم :

ـ في أيامي كانت المدرسة في خيمة واحدة. كنا ندخل أفواجاً، عشرة أو خمسة عشر طفلاً في الفوج الواحد، فيدرسنا المعلم ساعتين أو ثلاث ثم يلحق بنا الفوج التالي. كنا نلعب معظم النهار، وكان الذهاب إلى المدرسة محبّباً إلينا، ليس مثل الآن، إذ كنا نلعب معظم الوقت. في بعض المخيمات بالقرب من بيروت، المدارس على مستوى مرتفع، والمعلمون ذوو كفاءات. كان والدي يصرّ على تدريسنا بنفسه في المساء بالرغم من أنه كان يدرّس من السابعة صباحاً حتى السادسة مساء. كان يصل إلى البيت تعباً، وصوته مبحوحاً. وكان يجعلنا أنا وأخي الأصغر (وهو الآن يشتغل في قطر) ندرس الحساب والقراءة والإنكَليزية والجغرافية. لولا ذلك لما استطعنا الانتقال إلى المدرسة الثانوية ولما تمكنت أنا من دخول الجامعة. معظم أفراد صفي في تلك الخيمة لم يكملوا دراستهم، وذهب أكثرهم إلى الخليج والسعودية.

وفي السيارة قال أكرم :

ـ كيف لاقيت الوالد ؟

ـ لم أتوقع أن يكون هكذا. توقعته قروياً بسيطاً.

ـ إنه قروي، لكن طول عمره كان يحب الثقافة، أبوه كان فلاحاً أمياً. كانوا لا يملكون كفاية من العيش، وعندهم مسكن مؤلف من غرفة واحدة يقيمون بها هم والدّواب، وقطعة أرض وعرة لا تزيد عن دنمين. كان واحداً من أربعة إخوة وثلاث أخوات، والوحيد بينهم الذي ذهب إلى المدرسة. درس حتى الثانوية وكان يرغب في تكملة دراسته، لكنه اضطرّ للعمل مع والده. وبعد مدة وجد عملاً كمدرس في المدرسة الابتدائية في ترشيحا، ثمّ درس بالمراسلة وحصل على ما يعادل شهادة المتريكوليشن. وعندما غادرنا فلسطين أخذ يدرّس في المخيم. أذكره كئيباً عابساً. بعد انتقالنا إلى نهر البارد أخذ يحضر اجتماعات الجبهة ويقرأ كتبهم ومنشوراتهم، وأخذ يطالع مؤلفات ماركس ولينين. كان له أثر كبير في توجيهي. لم نتطرق في حديثنا اليوم إلى الأمور الاجتماعية، لهذا لم يذكر ماركس مرة واحدة. إنه يكره كل شيء أمريكي، ويعتقد اعتقاداً جازماً بأن أمريكا هي عدونا الحقيقي. بالنسبة له أعظم شعوب العالم هو الشعب الفيتنامي، وأعظم قادة القرن العشرين هو هوتشي منه. وعندما يتسمع إلى الأخبار، يهمه بالمكان الأول، بعد سماع أخبار فلسطين، سماع أخبار الحرب الفيتنامية. إنه واثق أن الفيتناميين سوف ينتصرون على الولايات المتحدة.

9

في اليوم التالي، يوم الأحد، كان مخلص جالساً في الهورس شو يقرأ «لسان الحال» وأمامه فنجان قهوة إكسبرس. بعد مرور شهرين على إقامته في بيروت بات يمل الكلام. في بادئ الأمر، بعد غيابه الطويل، كان يجد متعة كبيرة في التسمع إلى مجرد طق الحنك. أما الآن فأصبحت تلك الجلسات تسبب له ضجراً عميقاً. كل الأحاديث كانت تدور حول مواضيع ثلاث : استغابة الناس، الجنس، والثرثرة السياسية. وكان الموضوع المفضل هو الأول، استغابة الآخرين. ويأتي بعده الجنس وبعد ذلك السياسة. وكان يجد صعوبة في الجلوس بمفرده في محل عام. فإذا جلس على مقعد في الجامعة سرعان ما أطل عليه أحد يعرفه. وإذا حاول تناول قدحا من القهوة على طاولة منزوية في فيصل، انضم إليه من يعرفه ومن لا يعرفه.

وفيما هو يقلب الجريدة، لفتت نظره امرأة في منتصف العمر ترتدي ثياباً مهلهلة، وفي رجلها قبقباً خشبياً، تروح وتجيء على الرصيف أمام المقهى ثم تتوقف أمام أحد الجالسين قبالة الشارع وتمد له يدها استجداء. ورآها شرطي كان يقف مع رفيق له على الرصيف، فاتجه نحوها وقال لها بلطف :

ـ ممنوع الشحادة في المقهى. اتفضلي.

ونظرت إليه كأنها لا تفهم ما يقول، والتفتت إلى شخص آخر يجلس إلى طاولة مجاورة ومدت يدها له. فأمسك بها الشرطي وقال لها بصوت شرس : «قلت لك ممنوع الشحادة هنا». وجاء الشرطي الآخر وأخرج ورقة ليرة من جيبه وناولها إياها قائلاً : «تفضلي، لا حاجة للاستجداء في المقهى». وأدرك مخلص أن الشرطيين كانا على اتفاق مع صاحب المقهى لحماية المقهى من المتوسلين والمتسكعين. وكان الزبائن يتابعون ما يجري باهتمام وقد توقف معظمهم عن الكلام. وفجأة سمع مخلص رجلاً جالساً إلى طاولة بالقرب منه يقول : «أتركوا المرأة تطلب، واللي لا يريد أن يعطي فلا يعطي». وكانت المرأة ما زالت واقفة مكانها، فلما سمعت هذا الكلام استدارت وأخذت تتنقل بسرعة بين الموائد مادة يدها إلى هذا وذاك. وهنا أمسك بها الشرطيان وأخذا يدفعانها نحو المخرج بعنف. كانت تنظر إليهما بدهشة كأنها لا تصدق ما يجري. ورآها مخلص تقف في الشارع خارج المقهى تنظر يميناً وشمالاً كأنها لا تعرف أين تتجه، وما لبثت أن غابت عن ناظريه.

وعاد الزبائن إلى أحاديثهم، وفَرَدَ هو «لسان الحال» أمَامَه ثانية وعاد إلى تصَفُّحِها، وما لبث أن سمع صوتاً غاضباً بالقرب منه يقول :

ـ شو هذا يا عالم... شو هذا يا ناس... قنينة صحة صغيرة بليرة !

ورأى صاحب المقهى، وكان زميلاً له في أيام المدرسة الثانوية، يهرع إلى الزبون الغاضب، ويقول للنادل الذي كان قد فتح قنينة «الصحة» :

ـ ضع القنينة على المائدة. أعطني ورقة الحساب.

وأمسك بورقة الحساب ومزقها قطعاً قطعاً وقال للزبون :

ـ لا تزعل يا أستاذ. هذه على حسابنا.

وطلب مخلص فنجاناً آخر من القهوة، وعاد يقرأ صحيفته، وما هي إلا لحظة حتى سمع صوتاً هادئاً يقول في أذنه :

ـ شو الأخبار اليوم يا دكتور ؟

والتفت متخوفاً، وما لبثت أساريره أن انفرجت عندما رأى وجه أديب أمامه. سحب كرسياً وقال له بحرارة : «اجلس». كان أديب شاعراً معروفاً، ومن الأشخاص القلائل في بيروت الذين أحبهم مخلص حباً حقيقياً.

وقال أديب :

ـ هل أطلب قهوة أم ننتقل إلى الماي فلوار ؟

وقال مخلص وهو ينظر إلى ساعته :

ـ يجب أن أكون في البيت الساعة السابعة... ميشيل، واحد إكسبرس للأستاذ أديب.

وقال أديب :

ـ انتظرناك أمس عند يوسف. ماذا حصل ؟

ـ كنت في طرابلس. في مكان بالقرب من طرابلس. رجعت متأخراً. كيف كانت السهرة ؟

وتناول أديب قدح القهوة الذي رفعه النادل أمامه ورشف منه رشفة طويلة ثم قال :

ـ تركت باكراً... تعبت من نفس الأحاديث. كان عند يوسف ضيوف وتحول الحديث إلى مباراة. كل واحد يريد أن يبرهن بأن العرب ضعفاء، لا يقدرون على شيء، وأن عدوهم قوي وقادر على كل شيء... الذي يحيرني هو هذه الرغبة العجيبة في تحقير الذات ! كأن

همّنا الأكبر أن نحطم أنفسنا، كأن أعداءنا لا يكفون. قال أحد الضيوف : لا أمل للعرب إلا إذا خربت ديارهم. بنظره، فقط عندما تخرب يمكن لها أن تعمر. سألته كيف يمكن أن تخرب أكثر مما خربت، قال : لا مانع في أن تحتل إسرائيل. تصور. خلاصنا بات عبر انتصار إسرائيل.

ـ من هم الضّيوف، هل أعرفهم ؟

ـ أصدقاء ليوسف. يظهرون بين الفينة والفينة... طبعاً تعرفهم. اجتمعنا بهم أكثر من مرة، لن تتذكر الأسماء. إنهم يعبّرون عن ما تشعر به الطبقات الغنية والفئات الحاكمة. الضمير الاجتماعي والحس القومي لا ينشآن من تلقاء ذاتهما. إنها حصيلة التثقيف والبيئة. وبيئتنا وثقافتنا تقومان على القبلية وعلى الأبوية وعلى العشائرية، والتغيير الذي حصل خلال الخمسين سنة الأخيرة لم يمس إلا القشور، حتى لدى الذين تعلموا في الغرب وحصلوا على أعلى الشهادات. وأشار أديب بيده إلى الجالسين حوله. انظر إلى مثقفينا، المقاهي والمطاعم والصالونات ساحات حربهم، في بيروت كما في باريس كما في لندن، كما عندكم في أمريكا. وماذا يفعلون ؟ يخوضون المعارك الكلامية فيما بينهم. يشتمون المجتمع لأنه متخلف، لأنه لا يوفيهم قدرهم. يلعنون ذوي المال والسلطة لأنهم لا يشاركونهم في المال والسلطة ولو فعلوا ذلك لأصبحوا خدماً لهم. إنّها طبقة المفلسين، بكلا المعنيين للكلمة. وتوقف أديب ليشعل غليونه :

ـ أتراني أبالغ ؟ لا أظن ذلك.. بالرغم من تذمرها المستمر لقد حققت هذه الطبقة من البشر عيشاً مريحاً وتخلّت عن الشعب الفقير المذلول. حصيلة صراعها المقالات السخيفة والشعر الغامض والأفكار المشوشة.

كان أديب يدخن غليونه بعصبية، كما كان يفعل كلما تطرق إلى موضوع يثيره. وتطلع إلى ساعته وقال :

ـ حان موعدك. سأسير معك بعض الطريق.

ونادى مخلص النادل ودفع الحساب.

وأخذا يشقان طريقهما عبر شارع الحمراء وقد اختلطت فيه السيارات بالمارة التي ضاق بها الرصيف. وعند مدخل إحدى دور السينما شاهدا جمعاً من الناس التفّ حول شرطي كان ينهال ضرباً على صبي في الثالثة عشر أو الرابعة عشر من عمره، وهو يصيح : «يا ابن الكلب... مش قلتلك ألف مرة إنه ممنوع...» وكان الناس يضحكون و يصيحون، بعضهم يدعم الشرطي والآخر يشفق على الصبي. ولا أحد يقترب منهما.

وقال أديب، وهما يقطعان الشارع :

ـ صياح وفوضى... داعس يا مدعوس... هذا وضعنا.

وابتسم مخلص، وقال عندما وصلا إلى بوابة الجامعة :

ـ سيأتي الوقت الذي لا تعود تُدعس فيه رِقَابٌ في بلدنا... سأتصل بك غداً.

10

لكن مخلص لم يتّصل بأَديب في اليوم التالي ولا في اليوم الذي تلاه. بعد اختطاف الطّائرات واستنفار الأُسطول السّادس ووقوع أيلول الأَسود.

منذ بدء الأَحداث، كان أَكرم متشائماً، وقال إنَّ المقاومة لا يمكنها أن تنتصر، وإن الرؤساء العرب، بمن فيهم عبد الناصر، سيقفون جانباً إلى أن يحسم الأمر في ساحة المعركة.

وبالفعل عندما عقد اجتماع الرؤساء والملوك في القاهرة وتم وقف إطلاق النار في آخر سبتمبر، كانت السلطة الأردنية قد استرجعت سيطرتها في المدن وأخذت بتصفية الوجود المسلح.

وانصب المكتب على دراسة الأحداث وتقييم نتائجها ورسم الخطوط لمجابهة المستقبل الذي بدَا مظلماً من جديد. وكانت الاجتماعات تعقد مع القيادات ومع القادمين من عمان. واقترح أكرم أن يذهب وفد من المكتب إلى الأردن للاجتماع بقادة المقاومة المتواجدين هناك. ورحب الدكتور يونس بالاقتراح، وشكل لجنة برئاسته وعضوية مخلص وأكرم والدكتور رامي، أحد أعضاء المجلس الاستشاري، وحدد موعد سفر اللجنة في مطلع الأسبوع التالي.

11

كان موعد قيام طائرة الشرق الأوسط إلى عمان في الساعة الثامنة صباحاً، فاستيقظ مخلص باكراً، وخرج إلى الشرفة، ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد من وراء صنين، وكان لون السماء رمادياً أزرق خالياً من الغيوم يبشر بيوم مشمس جميل. استحم وارتدى ثيابه، وتناول إفطاراً سريعاً، وقال لزوجته وهو يرتدي معطفه :

- لن آخذ السيارة لئلا يسرقوها إذا تركتها ليلاً في المطار. سأعود غداً أو بعد غد... إذا حصل تأخير فسوف أبرق إليك.

وصل إلى المطار قبل الآخرين، وكانت القاعة قد بدأت تمتلئ بالمودّعين والمستقبلين وبضعة من المسافرين، ولم يكن معه إلا حقيبة يدٍ فأكمل معاملة السفر بسرعة وصعد إلى مطعم المطار وطلب فنجاناً من القهوة. وعندما عاد إلى قاعة السفر وجد الدكتور يونس وأكرم ينهيان معاملتهما، وسأله الدكتور يونس :

- أين الدكتور رامي ؟

وفي هذه اللحظة شاهدوه وهو يهرع نحوهم. وسار الجميع نحو الطائرة، وكانت على وشك الإقلاع.

وجلس الدكتور يونس بجانب مخلص، وعندما صعدت الطائرة في الجو أشار الدكتور يونس بأصبعه قائلاً :

- هناك يقع بيتي، أتراه ؟

وقال مخلص :

- بيتك ؟ أين ؟

- بالقرب من شملان. إني أراه الآن.

- هل تستأجره صيفاً وشتاءً ؟

- إنه ملكي. وضعت في بنائه كل الفلوس التي غنمتها، بهذه الطريقة لا أنفقها سدى.

وتناول مخلص جريدة «النهار» وأخذ يقرأها، بينما استدار الدكتور يونس وأخذ يتحدث إلى أكرم عبر الممر.

وما هي إلا دقائق حتى كانت الطائرة تحلق فوق الجبال المكسوة بالثلج. وارتفع جبل الشيخ إلى يمين الطائرة فوق الضباب الذي أحاط بقمته، وامتدت وراءه هضبة الجولان وشمال فلسطين. من هناك حتى البحر يقيم اليهود. حاول مخلص أن يتبين المستعمرات اليهودية والقرى لكن الطائرة كانت تبتعد أكثر وأكثر. وحاول أن يتبين مدرج التزحلق الذي قيل له إن اليهود بنوه عند سفح جبل الشيخ، فلم يستطع.

وانحازت الطائرة باتجاه عمان، وبانت الأرض البركانية القاحلة تمتد إلى ما لا نهاية. وبعد قليل بدأت تبدو هنا وهناك قرى صغيرة تحيط بها بقع خضراء من الأرض المزروعة. ثم أخذت الطائرة بالهبوط.

كان المطار يعج بالجنود ولم يكن هناك أي مسافرين. أتموا معاملات الجوازات والجمرك بسرعة وخرجوا من المطار. وقال الدكتور يونس وهو يتطلّع حوله :

ـ يظهر أنه لم يأت أحد للقائنا. لنأخذ تاكسي.

وصعدوا في سيارة تاكسي، وجلس الدكتور يونس إلى جانب السائق وقال له :

ـ أتعرف أين مكتب المنظمة ؟

فتردد السائق لحظة، ثم قال : «نعم».

كان مخلص يتوقّع أن يجد الخراب منتشراً في كل مكان. غير أنه لم ير إلا آثاراً طفيفة للرصاص والقنابل في بعض البنايات من أول طريق المحطة حتى بناية البنك العربي في قلب المدينة. وفي الأماكن الأخرى لم يكن هناك أي أثر للحرب الأهلية ـ إلا في نفوس الناس ـ كما اكتشف فيما بعد. كانت الشوارع مليئة بالناس، والحياة تبدو طبيعية. وتوقف التاكسي أمام بناية مؤلفة من طابقين، وكان الشارع خالياً لا أثر فيه للمسلحين. لشدّما تغيّرت الأمور... تذكر زيارته لهذه المنطقة. كانت كلها في قبضة المقاومة. نظر إلى أقصى الشارع وهو يترجل من السيارة : كان في هذا الشارع المكتب الذي التقى فيه بباسم. وسمع الدكتور يونس يقول :

ـ مكتب الأستاذ حيدر في الطابق الثاني. أنا زرته من قبل.

وصعدوا الدرج يتقدمهم الدكتور يونس. وجدوا شاباً يرتدي معطفاً خاكياً مهلهلاً وعلى رأسه طاقية صوف تغطي أذنيه يجلس إلى طاولة لا يوجد فوقها شيء. قال له الدكتور يونس :

ـ الأستاذ حيدر بانتظارنا. قل له أعضاء مكتب التخطيط والتوثيق من بيروت.

وقال الشاب :

ـ الأستاذ حيدر مش موجود.

فنظر إليه الدكتور يونس بشيء من الامتعاض :

ـ كيف مش موجود... أرسلنا له برقية أول أمس.

ـ لا يحضر إلى المكتب قبل الساعة الحادية عشرة.

ـ وأين هو الآن ؟

ـ لا أدري.

ونظر مخلص إلى ساعته، وكانت بعد العاشرة بقليل، وقال :

ـ لننتظر.

وقال الشاب :

ـ تفضلوا انتظروا في الغرفة. أتريدون شاي أو قهوة ؟ ونظر أولاً إلى الدكتور يونس ثمّ إلى الباقين فلم يجبه أحد.

وقال الدكتور رامي :

تفضلوا يا جماعة، أنا سآخذ شاياً.

ـ وأنا كذلك.

ـ إذن شاي للجميع.

وصل الأستاذ حيدر حوالي الظهر، وكانوا يشربون الشاي للمرة الثالثة، بصمت ووجوم.

ـ خير إنشاء الله ! قال بصوت مرح. جاءت بنت أم ماذا ؟

كان الأستاذ حيدر أسمر اللون، في الأربعينات من عمره، يرتدي بذلة بنية جديدة، ورباط رقبة أحمر اللون. قيل إنه في الماضي كان شيوعياً.

سلم عليهم وعانقهم واحداً واحداً، وقال وهو يجلس خلف مكتبه :

ـ متى وصلتم ؟

ـ في العاشرة. ألم تصلك برقيتنا ؟

ـ وصلت أمس. لم نتوقع وصولكم قبل الظهر. أهلاً وسهلاً.

وسأله الدكتور رامي عن الوضع في عمّان.

واستقام الأستاذ حيدر في مقعده وقال :

ـ ممكن أن يكون أسوأ...

وقال الدكتور يونس :

ـ هل بإمكاننا التحدث باطمئنان ؟

ـ طبعاً... طبعاً... تستطيع أن تقول ما تريد. الكلام ما عاد يخيفهم.

وقال الدكتور رامي :

ـ أما زالت هناك ملاحقات ؟

ـ نحن الآن في حالة وقف إطلاق النار، وتحكم علاقتنا مع السلطة اتفاقية القاهرة. جهدنا الأساسي ينصب الآن على التنسيق في داخل المخيّمات. السلطة تريد جمع السلاح.

قال الدكتور رامي :

ـ لمصادرته ؟

ـ لوضعه في ما يسمونه مخزن موحد.

ـ في المخيّم ؟

ـ نعم في المخيّم. لاستعماله عند الحاجة فقط.

ـ ومتى تكون الحاجة ؟

ـ عند هجوم العدو.

وسألهم الأستاذ حيدر إذا كانوا يريدون شاياً أو قهوة، فاعتذر الجميع، وطلب هو فنجان قهوة، وقال :

ـ من جهتنا طبعاً من غير المعقول تسليم السلاح. ولكن بنفس الوقت يجب أن نفتش عن خيار. إذا أطلقت رصاصة واحدة من مخيّم يقومون بالتفتيش ويصادرون ما يجدونه من سلاح. يجب نقل المسلحين من المخيمات.

وقال الدكتور يونس :

ـ وهل يسمحون بنقل المسلحين مع أسلحتهم ؟

ـ ما يريدونه هو سحب السلاح من المخيمات. إذا تمّ ذلك بانسحاب المسلحين يقبلون. حتى الآن لم يتعرضوا لقواتنا في الأحراش.

وقال الدكتور يونس :

ـ هل باستطاعتنا اللقاء اليوم مع أبو عامر أو الأستاذ ؟

ـ إنهما في مقر قيادتهما.

ـ وكيف يمكن الوصول إليهما ؟

ـ بواسطة لجنة المتابعة. سياراتهم توصلكم إلى جرش، ومن هناك ينقلكم الإخوان إلى الأحراش.

والتفت الدكتور يونس إلى زملائه يسألهم إذا كانوا يرغبون في الذهاب في ذلك اليوم أو تأجيل الرحلة إلى اليوم التالي. وقال الأستاذ حيدر :

ـ من رأيي أن تذهبوا اليوم، بل الآن. وزير خارجية تونس موجود هذه اللحظة في

مركز لجنة المتابعة، وسيذهب اليوم إلى الأحراش لمقابلة أبو عامر. باستطاعتكم مرافقته. وإذا أردتم نصيحتي، اذهبوا بمعيته. توفرون على أنفسكم الكثير من بهدلة التفتيش على الحواجز.

وقال الدكتور يونس :

ـ وهل يقبل الوزير أن نرافقه ؟

ـ لن ترافقوه في سيارته. ستلحقون به في سيارة أخرى.

ووافق الدكتور يونس على الذهاب وقام الأستاذ حيدر إلى التلفون وطلب مكتب رئيس الوزراء، وبعد حديث قصير وضع التلفون في مكانه وقال :

ـ وصفي التل موجود مع المصمودي في مكتب لجنة المتابعة. هيا بنا قبل أن يغادروا.

وقال الدكتور يونس وهم يخرجون من الباب :

ـ وما حاجتنا لوصفي التل ؟ نحن لا نريد الاجتماع به.

فقال الأستاذ حيدر مبتسماً :

ـ لن تجتمعوا به. دعني أرتب الأمور.

12

كان مقر لجنة المتابعة ڤيلا مؤلفة من طابق واحد تحيط بها حديقة صغيرة وتقع في مطلع ضاحية الشميساني. كان هناك حرس أمام الباب، لكنهم لم يتصدوا لهم، فدخلوا قاعة الجلوس يتقدمهم الأستاذ حيدر. كان هناك بضعة أشخاص جالسين يشربون الشاي بصمت. أينما ذهب مخلص في المكاتب وجد أفرادا ينتظرون ويشربون الشاي. وانضموا إلى المنتظرين بينما قرع الأستاذ حيدر باب الغرفة في صدر القاعة ودخل. وبعد قليل خرج من الغرفة ذاتها رجل في منتصف العمر، رياضي الجسم، متوسط الطول، يرتدي بدلة كحلية وجرسيه بيضاء مغلقة حول الرقبة، يسير بغطرسة، وتبعه الأستاذ حيدر وقدم إليه أعضاء الوفد، وحياهم الرجل بابتسامة واهية، ثم رفع يده مُحيياً وخرج من القاعة يتبعه حرسه.

وقال مخلص :

ـ من هو ؟ لماذا لم يقدمه إلينا ؟

وهمس إليه الدكتور يونس :

ـ ألم تعرفه ؟ هذا وصفي التل.

وقال الأستاذ حيدر :

ـ ترتبت الأمور. المصمودي سيغادر الآن وستذهبون معه.

وفي تلك اللحظة فتح باب الغرفة وخرج منها رجل قصير القامة يلبس نظارات ذهبية الإطار فهرع نحوه الأستاذ حيدر قائلاً :

ـ سعادة الوزير، اسمحوا لي أن أقدّم أعضاء الوفد القادمين من بيروت.

وصافحهم الوزير قائلاً :

ـ أهلاً بكم تفضلوا.

وخرج من الڤيلا يرافقه أحد الموظفين، وجلس في السيارة وإلى جانبه الموظف.

وقال الأستاذ حيدر وهو يفتح باب السيارة التي كانت خلف سيارة الوزير :

ـ تفضلوا هنا. ستوصلكم السيارة إلى جرش مع الوزير، وستنتظركم لتعود بكم إلى عمان. وأغلق الباب : سوف أراكم عند عودتكم على العشاء في الساعة الثامنة.

لم يدخلوا مدينة جرش نفسها، بل توجهوا إلى منطقة الآثار، ونزلوا أمام مبنى حجري صغير. وكان في استقبالهم ضابط بلباس جيش التحرير، وصعد بهم، يتقدمهم الوزير، إلى قاعة في الطابق الثاني، جلس فيها بضعة أفراد يرتدون الحطات والعقال ويشربون الشاي، تبين أنهم من الأعيان المحليين. وقدم الشاي للوزير وأعضاء الوفد وإلى عدد من الأشخاص الذين وقفوا أمام الباب عندما توقفت السيارات وانضموا الآن إلى الجالسين ليشاركوهم في الجلوس وشرب الشاي.

ومال مخلص نحو الدكتور يونس وسأله بصوت خافت :

ـ أين نحن ؟

ـ هذا مكتب جيش التحرير. سنغادر بعد قليل.

وقام مخلص إلى الشرفة المطلة على الآثار الرّومانية وخلفها جبال عجلون، وشاهد أمام المبنى عدداً من الرّجال في اللّباس القروي الفلسطيني يتمددون على الأرض يتدفأون بأشعة الشمس. عاد إلى الغرفة وقال للدكتور يونس :

ـ سأنتظركم أمام المدخل.

ونزل إلى حيث تمدد القروريون وحياهم، فزد بعضهم، ولم يبد البعض للآخر حراكاً. وسأل أحدهم، وكان يجلس إلى حافة الطريق أمام مدخل البناية :

ـ من فين الأخ ؟

فأجابه وهو ينظر أمامه :

- من رفح.
- وأين تقيم ؟

فالتفت إليه، وتبيّن لمخلص أنه أصغر مما كان يبدو عن بعد، بالرغم من لحيته التي خطها الشيب. فقد كان لا يزيد عن الأربعين من العمر، لكنه بَدَا كهلاً في الستين. وقال وهو يشير بيده :

- في مخيّم غزة.

وسمع مخلص الدكتور يونس ينادي اسمه، ورآه واقفاً عند المدخل وإلى جانبه الضابط الذي كان في استقبالهم. وقال :

- سيأخذنا النقيب إلى الأحراش بنفسه.

وسار مخلص نحو السيارة. وكان القروي يراقبه. وقال مخلص : «مع السلامة». وقام الرجل على قدميه قائلاً : «مع ألف سلامة. الله يكون معك».

جلس الدكتور يونس في المقعد الأمامي بين الضابط والسائق، وجلس مخلص في المقعد الخلفي مع أكرم والدكتور رامي. وسارت بهم السيارة في الطريق العام الذي أتوا منه. وبعد قليل انعطفت بهم في طريق جانبية غير معبدة وأخذت تصعد في طريق ضيقة تحفّ بها الأشجار إلى أن وصلت إلى مكان مرتفع انتشرت فيه أكواخ أنيقة تشبه الشاليهات، وأشار الضابط للسائق أن يتوقف.

وقال الدكتور يونس مازحاً :

- انظروا يا إخوان، شاليهات السائحين تستقبل الثوريين. ولم يضحك أحد.

وقال الضابط.

- هذه غرفة مواصلاتنا. بالإذن لحظة، سأسأل عن الأخ أبو عامر.

ونزل من السيارة ودخل أحد الشاليهات بالقرب من الطريق ثمّ عاد بالتّو.

- وصلَ المصمودي وهو في اجتماع معه. هل تريدون الانتظار أم نذهب إلى مركز قيادة الأستاذ. إنه لا يبعد كثيراً.

وقال الدكتور رامي :

- لنذهب لرؤية الأستاذ. اجتماعات أبو عامر لا تنتهي بسرعة. على الأقل نؤمّن لاجتماع مع الأستاذ.

وسارت بهم سيارة المرسيدس صعوداً في طريق ازدادت وعورة كلما تقدموا فيها. وعند منعطف ضيّق مرّت بهم سيارة لاندروفر آتية من الجهة المعاكسة، وكان في داخلها ثلاثة أفراد بالألبسة المرقطة وكتب عليها «جبهة التحرير العربية».

وأخيراً توقفت السيارة عند قمّة الجبل، وقال الضابط :

ـ لا تنزلوا من السيارة. ثمّ نادى بصوت عال. «وفد من مكتب التخطيط من بيروت».

وخرج من وراء الأشجار شابان يحملان بنادق كلاشينكوف. ونزل الضابط وصافحهما ثمّ قدّم إليهما أعضاء الوفد. وقال أحدهما، وكان الأكبر سناً :

ـ الأستاذ سيحضر قريباً. تفضلوا.

وسار يتبعه الآخرون إلى أن وصلوا إلى ساحة صغيرة بين الأشجار تشرف على غور الأردن وجبال فلسطين. كانت السماء زرقاء مليئة بالغيوم البيضاء، وأشعة الشمس تنفذ من بينها فتضيء رؤوس الجبال لحظة ثمّ تتوارى والريح تهب قوية باردة. ووقف الأصغر من الشابين بجانب مخلص وأشار بيده نحو فلسطين :

ـ هناك القدس. تستطيع أن تراها بوضوح عندما يصحو الطقس. وهناك نابلس... خلف هذه الجبال.

ونادى إليهما الشاب الآخر، وكان هو والباقون ينزلون في خندق حفر في طرف الساحة. فلحقا بهم وسارا وراءهم حتى بلغوا مدخلاً نحت في الصخر حديثاً، ودخل الجميع الواحد تلو الآخر غرفة واسعة منحوتة من الصخر وعلّق في سقفها فانوس غاز وفرشت على أرضها أحرمة صوفية. ورأى مخلص في أقصى الغرفة حفارة كهربائية كالتي تستعمل في حفر الشوارع، وعدّة قطع سلاح، وفي الطرف الآخر أربعة شباب وشابة، وجميعهم يرتدون الألبسة المرقطة، يجلسون على الأرض، وفي أيديهم كتب ودفاتر. وعندما دخل الزائرون، نهضوا واقفين وصافحهم النقيب وقدّمهم إلى أعضاء الوفد. وجلسوا جميعاً ينتظرون الأستاذ.

وتقدمت الشابة نحو مخلص وقالت :

ـ أنت لا تعرفني يا دكتور أنا أعرفك من خلال أصدقاء لك في رام الله ومن قراءة كتابك الأخير.

كانت من رام الله، والتحقت بالمقاومة عام 1968، وألقي القبض عليها وحكم عليها بالسجن عشر سنوات، وتمّ الإفراج عنها عند تبادل الأسرى بعد اختطاف الطائرات.

وطلب إليها مخلص أن تجلس إلى جانبه، وأخذا يتحادثان. سألها عن تجربتها في السجن، وكانت تلك المرة الأولى الذي يجتمع بفتاة فلسطينية اشتركت بالعمل الفدائي -

فأجابته دون تردد :

- كانت معاملتهم في السجن عادية. أول يوم ركلوني وبصقوا في وجهي، وأوقفوني ساعات وأنا رافعة ذراعيّ. لكنهم لم يعذبوني بعد ذلك.

- إذن لا يمارسون التعذيب كما سمعنا ؟

- الوقوع في أيديهم هو نوع من التعذيب. ألا تعتبر الضرب تعذيباً ؟ هناك أنواع أخرى من التعذيب، وهم يستعملونه ضد الذين يخفون معلومات أو الذين قاموا بعمليّات فدائية قتل فيها إسرائيليون. صمتت لحظة ثم قالت :

- أعرف فتيات عذّبن لسحب الاعترافات منهن. لكن معظم الفتيات في السجون الإسرائيلية اعتقلن لأسباب بسيطة، كالاشتراك بالمظاهرات أو لرجم البوليس بالحجارة، ومعظم الأحكام كانت تتراوح بين الستة أشهر والسنة. أنا كنت محظوظة لم يعذبوني كما عذبوا الأُخْرَيات، لم يستعملوا الكهرباء أو العصي أو القناني. كان معنا في الغرفة فتاة ألمانية في الخامسة والعشرين من عمرها استعملوا معها كل وسائل التعذيب، لم أر مثلها قوة وصلابة. علّمناها العربية وهي علّمتنا الألمانية. كانت تُرْسَلُ إلى الانفراد بين الوقت والآخر لأنها كانت ترفض الانصياع للأوامر. لم يزدها ذلك إلا قوة وعناداً. كانت دائماً مرحة، وصارت تتحدث بالعربية بشيء من الطلاقة. وأصبحنا صديقتين. إنها بالنسبة لي أقرب من أختي المتزوجة في بيروت. إنها ما زالت في السجن.

- ومتى أفرج عنك ؟ قبل حوادث ايلول ؟

- كنت في عمان في ايلول. في مخيم الوحدات. كانت التجربة أقسى من تجربة السجون الإسرائيلية.

- يبدو أنك غير ناقمة كثيراً على الإسرائيليين.

ونظرت إلى مخلص بتعجب :

- الإسرائيليون أعداؤنا، ومن الضروري أن نفهم وجهة نظر العدو، أن نتعرف على طبيعته. لسنا بصدد أسود وأبيض، الأمور نادراً ما تكون كذلك. لدينا أعداء في الوطن العربي ولدينا أصدقاء في إسرائيل، أعني بين الإسرائيليين أنفسهم. وتوقفت قليلاً ثم قالت : ليس أبشع من الشوفينية، الوطنية شيء والتعصب الشوفيني شيء آخر. أرجوك أن لا تسيء فهمي. سأعطيك مثلاً حياً عن الشوفينية الصهيونية وأساليبها. وناولته أحد الدفاتر في يدها. وقالت وهي تنهض من مكانها : «إقرأ هذا وسأعود بعد قليل. علي تحضير بعض الأمور قبل قدوم الأستاذ... هذه المواد التي نقرأها في برنامجنا التثقيفي».

وأسند مخلص ظهره إلى الحائط وفتح الدفتر وأخذ يقرأ الكلمات المطبوعة على الآلة الكاتبة.

«مجزرة بلد الشيخ (عن هائرتر، تاريخ 1948/4/7).

«في أواخر شهر ديسمبر الماضي ركزت جماعة «أتزل» ـ الأرجون ـ على مهاجمة أهداف عربية مختلفة في نواحي البلاد. في 30 ديسمبر أُعطيت الأوامر إلى ياريف لمهاجمة تجمعات عربية في مدينة حيفا، ووُضِعَت سيارة تحت تصرّفه لهذا الغرض. وبعد أن قام برحلة استطلاعية في المدينة أبلغ رئيس «الأتزل» في حيفا، صموئيل مايتن، أن التجمع العربي الوحيد في حيفا هو في معمل تكرير الزيت (الريفاينري) فعاد ياريف ورفاقه بالسيارة إلى الريفاينري وألقوا ثلاثة صناديق محشوة بالمتفجرات على تجمع عمال عرب فقتل منهم ستة وجرح آخرون.

« كان في الريفاينري 470 عاملاً يهودياً و1700 عامل عربي. بعد هذا الحادث هجم العمال العرب على العمال اليهود بالعصي والهراوات والحجارة. وعندما حاول اليهود دخول الغرفة التي كان يحفظ بها السلاح، منعهم الموظف البريطاني المسؤول عن الدخول، وقتل 41 يهودياً، وشنع ببعض الجثث إلى درجة لم يعد ممكناً التعرف على هويتها. واستمر الشغب أكثر من ساعة إلى أن وصلت قوى الأمن البريطانية. فأجبرت العمال العرب على أن يستقلوا باصاتهم وأرسلتهم إلى بيوتهم دون أن تسأل عن من كان له يدّ في ما جرى...

« وفي اليوم التالي شنت الهاجانا هجوماً على قرية بلد الشيخ (بالقرب من حيفا) التي قيل إن معظم العمال الذين ساهموا في عملية الريفاينري يأتون منها. ولم يكن هذا المأخذ الوحيد ضد هذه القرية، ولم يكن هجوم الهاجانا عليها أول هجوم تقوم به، إنما هذه المرة كان القصد أن تسدد ضربة إلى العرب لم يعهدوا مثلها منذ بدء الاضطرابات. وما حدث بعد ذلك، يصفه حاييم أفينوم، الذي قاد الهجوم على بلد الشيخ، وافينوم اليوم (أي بعد قيام إسرائيل) ضابط في البوليس الإسرائيلي :

«كنت في ذلك الوقت قائداً من الرتبة الثانية في إحدى كتائب البلماخ، في كيبوتز هازوعا. بعد مجزرة الريفاينري، دعا موشي كارمل، رئيس فرقتنا، دان لينر للقائه في حيفا. وعندما عاد دان من الاجتماع، كانت الأوامر أن نهاجم بلدة الشيخ وأن نقتل مئة رجل عربي، لكن دون التعرض للنساء والأطفال. وكان تحت امرتي أربع فرق، إثنتان منها بقيادة شاكا (إيزك هوفي) والإثنتان الأخريان بقيادة سيكو (الدكتور بنحاس زوسمان وهو الآن المدير العام لوزارة الدفاع) وكان مجموع عددنا 170 رجلاً.

«كانت بلد الشيخ تمتد في ثلاثة جهات من جبل الكرمل. في إحدى الجهات كان يوجد قاعدة للجيش البريطاني، وفي الجبهة المقابلة كان هناك محطة بنزين يقوم البريطانيون بحراستها. أما الناحية الثالثة، ناحية الطريق العام، فكانت تحرسه الدوريات البريطانية. وكانت أقرب مستوطنة يهودية في المنطقة هي مستوطنة نيشر. ولم يكن بإمكاننا الانطلاق منها بسبب الحراسة البريطانية الكثيفة حولها. وكان يتوجب أن نشن الهجوم بأقرب وقت ممكن، وبدا واضحاً أن الجيش البريطاني سيتدخل في القتال ويقطع علينا خط الرجعة إذا جئنا من الطريق العام، فقررنا أن ننطلق من كيبوتز ياجور...

«كانت تلك المرة الأولى التي نضع فيها، عن سابق تصوّر وتصميم، القتل هدفاً لعملنا. كان المقاتلون من المستوطنات تثقفوا في حركة الشبيبة، لذلك كانوا سيواجهون بسبب هذا مشكلة تأنيب الضمير. وأنا أيضاً جابهت شكوكاً داخلية لكنه كان واضحاً أن هذه الحرب هي حرب دفاعية ولم نبدأها نحن، ولذلك كان علينا أن نقوم بما يتوجب القيام به. وقبل الانطلاق جمعت الرجال وفسّرت لهم أسباب العملية وأهدافها. وكانوا ما زالوا تحت تأثير حادثة الريفاينري، فلم يرفض أحد الاشتراك بالعملية. كان هناك بالصدفة شابان من أعضاء البالماخ معنا في ياجور فانضما إلينا. وقُتِل أحدهما فيما بعد في العملية. لم نحمل سلاحاً كثيراً كما كانت عادتنا في تلك الفترة، ولم يكن بحوزتنا سوى مدافع ستن الرشاشة، وعدد من البنادق، وبضع قنابل يدوية وبلطات لتحطيم أبواب البيوت.

«كان المساء رطباً، وصلنا إلى نقطة انطلاقنا بالقرب من القرية بسرعة بواسطة الطريق الصعبة، في تمام الساعة الواحدة والعشر دقائق. ولم يكن هناك وسائل اتصال بين الوحدات المهاجمة. وكان التنسيق بينهما هو الخطة التي وضعناها والإشارات التي اتفقنا عليها.

«وتمت العملية تماماً حسب الخطة. عند وصول الفرق إلى نقطة الانطلاق عند حافة الطريق انطلقت كل منها نحو القرية وهاجمتها بيتاً بيتاً وقتلت كل رجل وجدته فيها. وحاولت إحدى الفرق مهاجمة بيت منفرد ولم يكن ذلك في خطتنا، واشتركت مع من كان في داخل البيت بتبادل النار، ووقع على إثرها رئيس الفرقة هنان زلينجر قتيلاً. وقد سمي المكان باسمه وهو يعرف الآن بـ «تل هنان». وكان لإطلاق العرب النار علينا أثر ضئيل. كذلك أطلق البريطانيون النار علينا من سياراتهم المصفحة ولم يقتربوا من المكان الذي كنا فيه ولم يسببوا لنا إزعاجاً. واستغرقت العملية زهاء نصف ساعة، وكان عامل المفاجأة فيها كاملاً، فقد أطلقت النار علينا من بيت واحد فقط. وفي تبادل النار أصبنا نساء وأطفالاً. وهذا

كان الخروج الوحيد عن الخط. وبعد أن قتلنا أكثر من مئة رجل عربي، عدنا إلى ياجور حاملين على ظهورنا قتيلين وجريحين من رجالنا.

«وكتب حاييم افينوم في تقريره : حققنا الهدف، وكل الرجال تصرفوا تصرفاً حسناً.

«وسألت الدكتور بنحاس زوسمان، المدير العام لوزارة الدفاع الإسرائيلي، إذا كان رجالنا يشعرون بتأنيب الضمير من جراء عمليات كهذه لا تنسجم مع القيم الأخلاقية التي تثقفوا عليها في حركة الشبيبة وفي البلماخ، فقال : بعد مقتل 41 يهودياً في الريفاينري هبطت المعنويات، وكنا مستعدين لأي عمل، لكن بعد أن قمنا بالعملية خطرت لنا أفكار أخرى. لقد استغربت أن أرى هؤلاء الشباب وهم المثقفون ثقافة إنسانية، ونفوسهم صافية وكريمة، يقومون بعمليات قتل بهذه السهولة، دون أية مشاكل. لقد اشتركت بعمليات عديدة قبل عملية بلد الشيخ، لكن هذه العملية كانت بالنسبة لي بداية مجابهة بشاعة الحرب».

وقلب مخلص الصفحة ووجد ترجمة أخرى بعنوان : «فصل من كتاب أوري افنيري» **وجه النقد الآخر**، تل أبيب، 1950 :

«قمنا في الصباح بهجوم على قرية عربية اسمها الدابة. جرى الهجوم مثلما يجري الفيلم السينمائي. كان هناك عدة ضباط، بينهم الضابط المسؤول عن التثقيف السياسي وعدد من الزوار، صعدوا جميعهم إلى برج الماء ليشاهدوا العملية، كأنها عرض مسرحي. وسرنا نحن في قافلة من سيارات الجيب وكان يفصل بين السيارة والأخرى حوالي عشرة أمتار. ثم أخذنا نطلق النار بشدة. وليس من السهل إطلاق النار من مدفع رشاش في سيارة صغيرة، خصوصاً إذا كان المدفع مركزاً بين السائق والجندي الجالس في الأمام. وأثناء مسيرة السيارة وقع المدفع الرشاش من بين أيدي «ناتشا» إلى الأرض وتطاير الرصاص بين رجلي «طرزان» الذي كان يجلس في المقعد الأمامي.

«كانت القرية خالية. فقد هرب سكانها عندما شاهدونا آتين من بعيد. كانت نار الطبخ ما زالت تشتعل أمام بعض البيوت. لقد فاجأناهم عند وقت تناول الفطور. سرنا بسياراتنا في الأزقة الضيقة، وكادت سيارات الجيب أن تتوقف لضيق هذه الأزقة، وكان قد غلبنا الضجر ونحلم بوجبة الطعام التي تنتظرنا في «راهوفوت» وبالدوش البارد في المعسكر. كنا بعد القيام بمثل هذه العمليات الصغيرة كثيراً ما «نختفي» لعدة ساعات في طريق عودتنا إلى قواعدنا.

«فجأة رأينا شيئاً على شكل إنسان. وكان غريباً أن يكون هناك شخصاً حياً في مثل هذا المكان. توقفنا قليلاً، وتبين أنها امرأة عجوز، فوق الثمانين من العمر، تجلس في أثمالها

البالية أمام بيتها. عندما يهرب القرويون العرب يتركون وراءهم العاجزين والعميان. كنا نحن في الطليعة، فتوقفنا، وتبادلنا النظرات فيما بيننا : «لا تحرر». قال «سانشار» في الإجابة على السؤال الذي لم يُسأل.

«عند المنعطف لاحظنا أن الجيب الذي كان فيه «ناتشا» و«طرزان» و«يوموس» لم يكن وراءنا، فعدنا ثانية في نفس الطريق، فوجدنا الجيب متوقفاً أمام بيت العجوز، وكان «ناتشا» واقفاً مقابل العجوز يصوب مسدسه إليها ويصيح : هات مصاري.. هات مصاري...

«كان مثل كل الصبيان، يظن أن كل عربي لديه مال يخبئه مطموراً في الأرض. وكانت العجوز تقول له : مفيش يا خواجه.

«وصاح فيها «ناتشا» قائلاً : في.. في.. ثمّ أطلق عليها النار، فهزّت الرصاصات جسمها الهزيل، واتكأت بظهرها على باب دارها وجلست في نفس الجلسة التي رأيناها فيها عندما مررنا ببيتها أول مرة...

«وشعر «ناتشا» بالخجل لما فعله، ولم يرد أن يذكر الأمر لأحد. إنه دائماً هكذا... لا يستطيع أن يقتل من أجل لذة القتل، كما يفعل «كباب»، فيشعر بأنه بطل ساهم في الحرب. وهو يحاول عندما يقتل قروياً أو أسير حرب أن ينسى ما فعل، ويغضب إذا ذكّره أحد بذلك.

«لكن «كباب» لن يدعه وشأنه، فـ«ناتشا» مثقف ومدير مكتب كبير، والجريمة التي ارتكبها تسرّ «كباب»، إذا كان رجلاً مثله يقتل قرويين، فهو أيضاً يستطيع أن يعتبر نفسه رجلاً شريفاً.

«غير أنه من الصعب أن يغضب المرء على «ناتشا»، فالخطأ ليس خطأه. فأحياناً تستولي عليه رغبة القتل فلا يستطيع مغالبتها. ما عدا هذا فإنه طيب، فهو لا يتخلى عن صديق جريح في ساحة المعركة. ألم ينزل إلى ملجأ فرقة الـ 125 في أصعب لحظة بين مواقع المصريين ليعود بجثة «نين» ؟ غير أني لست واثقاً فيما يتعلق بـ«كباب»، ولا أرغب أن أكون معه وحيداً في دورية خلف خطوط العدو.

«ويسأل «كباب» : ما الذي يقلقك ؟ هل أنت خجل لأنك قتلت تلك العجوز العربية النّتنة ؟ ويقول «طرزان» دفاعاً عن «ناتشا» وهو زميله الحميم : كفى ! لماذا تحلم دائماً بالنساء العربيات ؟ فيجيب «كباب» : لماذا تتدخل فيما لا يعنيك ؟ أنت لا توجد عندك الشجاعة الكافية لأن تقتل عربياً واحداً...

«ويغضب «طرزان» : ليس لدي الشجاعة الكافية ! باستطاعتي قتل سكان قرية بكاملها إذا أردت...

«والحقيقة هي أن طرزان لا يقدر على قتل العرب إلا في حمى القتال. فبالرغم من ضخامة جسده، فإنه رقيق القلب. وهو يستحي لرقة عواطفه.

«ويقول «كباب»: من أين لك أن تعرف؟ أتذكر عندما احتللنا قرية أبو شباك في بداية القتال ؟ لا، لَم تكن هناك. أنا كنت في فرقة أ. وصدر الأمر أن نقتل كل عربي نجده فوق سن الخامسة عشرة، ولم يهرب السكان العرب القذرين من القرية. لم يعرفوننا تمام المعرفة بعد.. دخلت بيتاً ووجدت به رجلاً في الخمسين من عمره ومعه فتاة في الخامسة عشرة، وأمسكت بي الفتاة متوسلة أن لا أقتل الرجل لأنه أبوها.

«ـ وماذا فعلت ؟

«ـ سلمت والدها إلى رفيقي وعدت إلى الفتاة. في بادئ الأمر رفضت، وعضت يدي، ولكنها هدأت عندما صوبت إليها مسدسي. كانت قذرة غير أن جسدها كان بديعاً، ناضجاً كجسد امرأة راشدة... ومن المؤسف أني اضطررت أن أقتلها بعد ذلك».

13

سمعوا لغطاً في الخارج، ونهض الشاب الذي لاقاهم قائلاً : «وصل الأُستاذ».

وما هي إلا لحظات حتى دخل الغرفة رجل متوسط الطول، غزير الشَّعَر، ذو شارب قصير، يرتدي قميصاً سبور، يتبعه عدد من المسلحين، وبينهم الشابة من رام الله. وتساءل مخلص في نفسه، وهو ينهض لمصافحة الأُستاذ، إذا كان سيَذكر لقاءهما في مخيّم الوحدات. وعندما وقع نظره على مخلص مدّ يده مصافحاً بحرارة. ثمّ صافح الآخرين وقال وهو يجلس أرضاً :

ـ تفضلوا. لو كنت أعرف أنكم قادمين لما تأخرت. هل تناولتم الطعام ؟ لابد أنكم جائعين.. هواء الجبال يفتح القابلية.

وأحس مخلص بالجوع فجأة.

ودخل شابان يحملان وعاء كبيراً وعدة صحون نحاسية وخبزاً قروياً ولم يكن هناك ملاعق أو أشواك، فأكلوا بأيديهم. ولم يعرف مخلص تماماً مما تألف الطعام، كان فيه بصل وبيض وبندورة، وأكل بشهية فائقة. وسألته الشابة من رام الله إذا كان يريد المزيد فقال :

ـ «أكلت ما يكفيني لليوم وغداً».

وقدم الشاي، وجلس الأُستاذ في الوسط مسنداً ظهره إلى الحائط الصخري. ودار حديث طويل، وكان الأُستاذ يتكلم بصوت قوي ولغة قريبة من الفصحى وأخذ مخلص في تدوين كلامه.

ـ في نهاية الأمر نقطة الانطلاق هي وضوح الرؤية. وللرؤية وجهان، وجه موضوعي ووجه ذاتي. لنأخذ الوجه الموضوعي.. إن حركة المقاومة هي اليوم ظاهرة أساسية في المنطقة ولا يمكن التغاضي عنها، وقد أخذت تستقطب الجماهير الفلسطينية بشكل عام، وإلى حد ما الجماهير العربية، وأصبحت نموذجاً يؤكّد أهمية العنف الثوري في مواجهة الجماهير لأعدائها. من ناحية أخرى أصبحت تشكل قوة ضاغطة على الأَنظمة العربية، وتمهد لانبثاق حركة وطنية جديدة تتجاوز الأَنظمة وتشكل خطراً حقيقياً على مصالح الإمبريالية في المنطقة..

ـ عفواً. وهل ينطبق هذا على الأَنظمة العربية الثورية أيضا ؟

ابتسم الأُستاذ وقال :

ـ ليس هناك أنظمة ثورية. ولقد كشفت ذلك حرب حزيران.. الأَنظمة عاجزة عن خوض الحرب، وهي غير قادرة على خوض المعركة السياسية وهي ترى في المقاومة مجرد ورقة تكتيكية للضغط على إسرائيل للانسحاب من الأَراضي المحتلة. من هنا تقف موقف التحالف مع حركة المقاومة. غير أن التناقض بينها وبين المقاومة واضح ولا يمكن تجاهله. لقد قبلت الجمهورية العربية المتحدة مشروع روجرز، في حين رفضته المقاومة ورفضت كل مشاريع التصفية السياسية. ربما هناك قوى داخل المقاومة تقبل الحلول السياسية، لكني أؤكد لكم أن القوى اليسارية داخل المقاومة قادرة، من خلال مواقفها السياسية الثورية التي تلف الجماهير حولها، على فرض موقفها على مجمل حركة المقاومة.. من مصلحة الأَنظمة ترويض حركة المقاومة، أو كسر شوكتها، وإرجاعها إلى الحدود التي تبقيها ضمن إطار استراتيجيتها. من هنا أخذت هذه الأَنظمة تنتقل في الأشهر الأَخيرة من موقف التحالف والتساند مع حركة المقاومة إلى موقف التعارض معها والراضي على تقليم أظافرها...

وتوقف الأُستاذ ليشعل سيجارة. واغتنم الدكتور رامي الفرصة ليسأل إذا كان الاتحاد السوڤياتي يدعم الأَنظمة في موقفها ويرضى أيضاً بترويض المقاومة، وقال الأُستاذ :

ـ كان الاتحاد السوڤياتي في بداية الأَمر يؤيد حركة المقاومة تأييدا قوياً ويعتبرها قوة ضاغطة على إسرائيل وعاملاً مساعداً لتطبيق الصيغة السوفياتية للتسوية في المنطقة. لكن المقاومة في المدة الأَخيرة أخذت تتجاوز الحدود المقررة لها، فأصبح الاتحاد السوفياتي

يخشى نتائج أعمالها وتأثيرها في المنطقة، وبالتالي فإنه ليس مستبعداً أن يصبح راضياً ضمنياً عن ترويضها وتقليم أظافرها...

وتريث الأُستاذ برهة ثمّ قال :

ـ هذا على الصعيد الموضوعي الذي تعيشه المقاومة. غير أن الصورة لا تكتمل إلا إذا نظرنا إلى المقاومة من خلال أوضاعها الذاتية. إن حركة المقاومة في واقعها الراهن لا تمتلك الشروط اللازمة للصمود في وجه الإمبريالية وتحقيق الانتصار عليها، فهي حركة لا يقودها حزب ثوري يمثل الطبقة العاملة، بل تخضع لقيادة تحالف البورجوازية والبورجوازية الصغيرة.

وهنا سأل مخلص :

ـ والقيادة اليسارية، أين موقعها ؟

ـ دور القوى اليسارية هو داخل حركة المقاومة، وهو دور محدود. من المؤسف أن هذه القوى ما زالت غير مكتملة في توجهها اليساري، وغير موحدة في مواقعها وغير قادرة على فرض رؤيتها النظرية والسياسية.

وتوقف الأُستاذ لحظة، فسأله مخلص :

ـ وما الذي سيوفر هذه الرؤية ؟

ـ الحزب.. الحزب الجديد الذي يجب أن يقوم ليُنْشِئ الجبهة الوطنية تحت قيادته.

وقال الدكتور يونس :

ـ والمنظمة، أليست هي تلك الجبهة العريضة ؟

ـ التحالف القائم يمثل القيادة البورجوازية والبورجوازية الصغيرة، وليس قيادة الطبقة العاملة وحزبها الثوري. الحزب الثوري وحده قادر على إنشاء الجبهة الوطنية العريضة التي تعبئ كافة قوى الثورة الطبقية والسياسية. إن فقدان هذه الشروط هو الذي أدى إلى الأخطاء الكبيرة في الرؤيا والممارسة التي وقعت فيها المقاومة.

وقال الدكتور يونس :

ـ وما هو الخطأ الذي وقعت فيه المقاومة في الأردن ؟

ـ ليس هناك خطأ واحد، هناك أخطاء، أدت كلها لما حصل في أيلول وإلى النتائج الناجمة عن ذلك. لقد ظنّت المقاومة أن النظام بسبب عجزه عن التصدي لحركة المقاومة بعد هزيمة حزيران، وبسبب الشعارات الخادعة التي رفعها، يمكن أن يكون صديقاً، أو على

الأقل، محايداً. وبنت المقاومة نفسها على أرض الأردن بشكل مكشوف.. قواعدها العسكرية مكشوفة.. تنظيمها مكشوف.. قيادتها وكوادرها مكشوفة.. أماكن تواجدها مكشوفة.. وبالتالي عندما استعاد النظام قوته العسكرية وفرض عليها المعركة، اضطرت أن تخوض المعركة بشكل مكشوف أيضاً. وهذا أخطر ما يمكن أن يحدث للثورات في مراحل نشأتها الأولى...

و قال الدكتور رامي :

ـ وكانت هناك أخطاء أُخرى..

ـ بالطبع كانت هناك أخطاء أخرى، على الأخص خطآن أساسيان. الأول الفشل في التعبئة الجماهيرية الصحيحة، والثاني الفشل في إقامة البناء التنظيمي السليم. فيما يتعلق بالخطأ الأول، فإن المقاومة بكل بساطة عجزت عن إقامة علاقة ثورية حقيقية مع الجماهير الفلسطينية.. أعني علاقة تستند بالفعل على أساس ثوري وتستهدف الوعي السياسي الصحيح. لقد قامت العلاقة فوقية.. كان العمل العسكري فيها بدلاً للنضال الجماهيري. اندفعت الجماهير الفلسطينية للالتفاف حول حركة المقاومة، ولكن حركة المقاومة لم تستفد من هذا الزخم الجماهيري، ولم ترتفع إلى مستواه. وانعكس الضعف التنظيمي على كل المستويات.. في ضعف البناء السياسي بين المقاتلين.. في ضعف الانضباط.. في ضعف الفعالية السياسية والعسكرية.. في الفوارق والامتيازات والشكليات بين القيادات والقواعد.. هناك أمثلة عديدة عن الممارسات الخاطئة الناتجة عن هذه الأخطاء البنيوية. مثلاً القيادات المكتبية البيروقراطية.. الترف والإسراف.. عدم مصارحة الجماهير بالحقائق. الضجيج الإعلامي الفارغ.. الأخطاء السياسية.. بطء التحرك وعدم المبادرة.. التعصبات الحزبية التي عكست نفسها على الوحدة الوطنية.. إساءة استعمال السلاح.. ضعف التدريب العسكري.. الانجرار وراء المظاهر العسكرية.. أساليب القتال الخاطئة.. كل صورة المليشيا.. الكسل في القواعد.. إضاعة الأوقات للمقاتلين سدى.. الفدائي الذي يسيء للمواطن ويعتدي على زرعه أو يهين تقاليده.. إلى آخر ما هنالك من أمراض تجد نفسها في طبيعة البنية الطبقية والذهنية لحركة المقاومة.

وتوقف الأُستاذ عن الكلام، وخيم الصمت في الغرفة.

ثم قال الدكتور مخلص :

ـ وإذا طرحنا هذا السؤال الأخير : ما العمل ؟

فأجاب الأُستاذ :

ـ بناء الحزب، إقامة الجبهة الوطنية العريضة، تعبئة الجماهير، ممارسة العنف الثوري المنظم.

14

كانت الساعة قد تعدّت الرابعة، وفي الساحة كانت الشمس قد انخفضت في الأفق وامتدت ظلال الأشجار واشتدت برودة الريح.

سار معهم الأُستاذ إلى حيث توقفت سيارة المرسيدس، وصافح كلاً منهم، وعندما وصل إلى مخلص، قال له وهو يشد على يده :

ـ متى ستكون زيارتك المقبلة ؟ المرة القادمة سنجلس جلسة طويلة.

ـ قريباً.

ورفع يده بالتحية كما فعل الباقون، وبينهم الشابة من رام الله، وسارت بهم السيارة إلى أن غابت وراء المنعطف.

وقال الضابط :

ـ لقد تأخرنا. أخشى أن يكون أبو عامر قد غادر.

ووجدوا عندما وصلوا إلى الشاليهات أنه قد غادر بالفعل.

أخبرهم ذلك الجندي المسؤول. قال إنه ترك برفقة المصمودي، وعلموا فيما بعد أنه سافر معه في ذلك المساء إلى القاهرة.

وقال الدكتور يونس :

ـ لا بأس يمكننا لقاء أبو عامر في بيروت...

في جرش ودعوا الضابط وساروا بسيارة لجنة المتابعة إلى عمان.

وفي مفرق صويلح توقفوا عند حاجز الجيش، وكان الظلام قد بدأ يخيم وخلت الطريق من السيارات.

تقدم نحو السيارة جندي يحمل بندقية. مدّ رأسه ونظر داخل السيارة. وقال الدكتور يونس بلهجة آمرة :

ـ وفد من لجنة المتابعة.

ولم يعره الجندي انتباهاً، وقال :

ـ هويات.

وأخذ ينظر إلى جوازات السفر الواحد تلو الآخر بدقّة. وعندما ناوله مخلص جواز سفره الأمريكي، رفع رأسه قائلاً :

ـ من صاحب الجواز الأمريكي ؟

فأجاب الدكتور يونس بلهجة مازحة :

ـ إنه عربي. ليس هناك أجانب بيننا.

فالتفت إليه الجندي، وقال بصوت حاد :

ـ أسكت أنت. من هو صاحب هذا الجواز ؟

فقال مخلص :

ـ أنا.

ونظر الجندي في الجواز ثمّ إلى مخلص، وقال :

ـ أنت عربي واسمك عربي، ولماذا تحمل جواز سفر أجنبي ؟

وقال مخلص :

ـ لأني مقيم في الولايات المتحدة.

وكان الجندي يتكلم بجدية، وأراد مخلص أن يقول له إن الأمر لا يعنيك، لكنه قال :

ـ ولأن بلدي محتل.

وقال الجندي :

ـ ولماذا لا تسكن في بلد عربي آخر ؟

ولم يدر مخلص ما يقول. كان البرد قد اشتدّ وأحس بالإنهاك ووضع يده على كتف الدكتور يونس الذي كان يجلس في المقعد أمامه وقال :

ـ لماذا لا أسكن في بلد عربي ؟

ولكن الجندي لم ينتظر جواباً، وأعاد إليه الجواز قائلاً :

ـ ارجع إلى بلادك، يا أخ.

وقال الدكتور يونس للجندي، بعد أن أخذت السيارة تتحرك :

ـ شكراً.

كانت شوارع عمان خالية تماماً فوصلوا إلى أوتيل عمان بسرعة.

وقال الدكتور يونس بعد أن نزلوا أمام مدخل الأوتيل :

- كان يجب أن تقول للسائق أن يأتي ليأخذنا في الصباح إلى المطار.

وقال الدكتور رامي :

- إنها سيارة لجنة المتابعة، وليست تحت تصرفنا.

وقال الدكتور يونس :

- لو قلنا للسائق أن يأتي في السابعة صباحاً لأتى.

- معليش، نأخذ سيارة تاكسي. ذلك أريح.

غير أن الدكتور يونس لم يقتنع :

- في كثير من الأحيان لا يوجد تاكسيات في الصباح الباكر. صارت معي في السابق.

وقال الدكتور رامي :

- لا تخف.. على مسؤوليتي. سأرتب الأمر مع إدارة الأوتيل.. والآن من سيذهب إلى حفلة العشاء الليلة ؟

نسي مخلص الدعوة التي تلقوها بواسطة الأُستاذ حيدر لحضور حفلة عشاء على شرف أحد كبار مناصري حركة المقاومة في الأردن. نظر إلى ساعته وكانت لم تبلغ الثامنة بعد. وأحس بالتعب وبرغبة قوية في النوم. وسأله الدكتور رامي إذا كان سيذهب معهم إلى العشاء، فقال :

- أحتاج إلى حمّام ساخن الآن. متى ستغادرون الأوتيل ؟ إذا قررت الذهاب فسألاقيكم عند المدخل.

- في الساعة الثامنة والنصف.

وهنا قال الدكتور يونس :

- وكيف سنصل إلى الحفلة. لا يوجد تاكسيات في مثل هذا الوقت. وكيف سنعود في منتصف الليل ؟

وقال الدكتور رامي :

- أترك لي هذا الموضوع، واتّكل على الله يا دكتور يا دكتور يونس.

وسار أكرم والدكتور رامي نحو البار، وكان يقوم مقابل المصعد، ولحق بهما مخلص قائلاً :

- هل غيّرتما فكركما عن الذهاب إلى العشاء ؟

فقال الدكتور رامي :

- نريد أن نشرب قدحاً من البيرة. ألست عطشاناً ؟ لن نبقى أكثر من ربع ساعة، تعال معنا.

ودخل مخلص معهما إلى البار، وكان خاوياً، وجلسوا إلى طاولة بالقرب من الشرفة المطلة على بركة السباحة، وطلبوا ثلاثة أقداح بيرة، والتفت الدكتور رامي إلى مخلص قائلاً :

- شعوري أنك لا تريد حضور العشاء الليلة.. سيكون هناك أشخاص قد يهمك التعرف إليهم. وقد يأتي أبو عيَّاد.. إنه رجل هام. أتعرفه ؟

- تعرفت إليه في صيف 1969 عندما زرت عمان.

- إنه فكرياً قريب من الأُستاذ.

وقال أكرم :

- سيكون هناك أبو السعد أيضاً.

- قابلته أيضاً في صيف 1969.

وقال أكرم :

- فكره واضح، وهو حاد الذكاء.

وقال الدكتور رامي :

- الفكر المحافظ دائماً يبدو واضحاً ومعقولاً لسبب ما.

فضحك أكرم وقال بتهكّم :

- أما غموض الفكر اليساري فسببه أنه غير موروث.

وقال الدكتور رامي بنبرة قوية :

- هذا ليس ما أعنيه، الفكر الثوري في مجتمعنا صعب القبول.. القيم الجديدة تتطلب ذهنية جديدة، متحررة، وهذا ما ينقص أبو السعد بالرغم من ذكائه. الذهنية المتحررة هي ذهنية الأُستاذ وإلى حد كبير أبو عياد.

فقال أكرم :

- هناك شيء من التناقض فيما تقوله. هل للعقل أن يكون متحرراً ليستوعب الفكر الذي سيحرره !

وقال الدكتور رامي مبتسماً :

ـ معك حق، قد يكون هناك بعض التناقض فيما أقول. لكنه تناقض ظاهري فقط. إن شرط استيعاب الفكر التحرري هو الاستعداد النفسي، القبول الذهني، وهما حصيلة عوامل موضوعية. إن الأوضاع التي عاشها شعبنا ويعيشها اليوم تجعلنا جميعاً، المتعلم وغير المتعلم، المتحرر والمحافظ، المثقف وغير المثقف، في وضع يمكنه أن يتقبل فيه الفكر الثوري تلقائياً. ونجاح النظرية الثورية، كما قال اليوم الأستاذ، لا يتوقف على الحقيقة العلمية التي تكمن في هذه النظرية، بل على الأساليب العملية والتنظيمية التي يتم بواسطتها غرس هذه النظرية في الوعي الجماهيري وإقامة البنية السياسية التي يعبر عنها الوعي ويترجمها إلى ممارسة فعلية. وهكذا تتحرر الذهنية بسبب استعدادها للتحرر وبفضل النظرية التحررية التي تستوعبها.

وجرع أكرم ما تبقى في قدحه من البيرة، ونظر إلى ساعته وقال :

ـ صارت الساعة الثامنة.. مخلص، هل ستأتي معنا ؟

ـ إني تعب جداً. لا أظن، الرجاء الاعتذار بالنيابة عني. سأراكم صباحاً. في السابعة والنصف، أليس كذلك ؟

15

خرج في المصعد إلى الطابق الخامس، وحين فتح باب غرفته هبت عليه ريح باردة من باب الشرفة الذي لم يصلح فيه الزجاج المكسور. كان الزجاج في معظم النوافذ والأبواب في الأوتيل ما زال مكسراً ولم يصلح بعد. أغلق الستارة على باب الشرفة، ونزع ثيابه وأخذ حماماً حاراً، ثم تمدد في فراشه، بعد أن وضع البطانيات الصوفية التي كانت فوق السرير المجاور فوق سريره.

حاول القراءة كعادته عند النوم، مسنداً رأسه إلى الحائط، لكنه كان تعباً، يغمض عينيه ثم يفتحهما، ويقرأ دون أن يستطيع تركيز أفكاره. وأخيراً أطفأ المصباح إلى جانب الفراش، وانقلب إلى جانبه وأغمض عينيه وغاب في سبات عميق.

استيقظ فجأة في الظلام الحالك.. أضاء الضوء ونظر إلى ساعة يده : الثالثة والربع. أطفأ الضوء وأغمض عينيه. وعاد إلى حلمه.

إنه في طائرة هيلوكوبتر تصعد ببطء من وراء بيت حبيشي، فيرى الشارع الممتد من مدخل السور إلى بيت جده، ثم يحلق فوق سبيل الماء أمام مركز البوليس وفوق الشاطئ الرملي، والصخور والبحر الأزرق الهادي. كانت الأشجار على جانب الطريق قبالة البحر خضراء شديدة الخضرة في ضوء الشمس.. وسكوت يطبق فوق كل شيء، كأنه فيلم صامت.

تغيَّر المنظر. كان ما يزال في الهيلوكوبتر، لكنه الآن فوق المنشيّه يحطّ أمام بيت يعهده، يترجَّل، ويطرق الباب :

- مين.

- أنا.

يفتح الباب من الطابق العلوي بواسطة الحبل المربوط إلى القفل. باب الجيران مفتوح. يصعد الدرج. الحائط ما زال على لونه : زيتي غامق من الأرض إلى علو رأسه، وعلى حافته شريط مدهون بالأبيض والأسود. الدهان يلمع كأنه دهن بالأمس.

إنه يسير نحو البحر.. السماء غائمة والريح تهب قوية.. تطفو أقذار على سطح البحر وتدفع بها الأمواج إلى الشاطئ الرملي.. الشاطئ يعج بنساء يرتدين الملاءات السوداء، ويدرك أنهن لاجئات. يرى بينهن راهبات، أيضاً في ثياب سوداء، يوزعن الطحين على اللاجئات.. اثنتان من النساء يقتربن منه وتمدان أيديهما نحوه تستجديان. يغرس رجليه العاريتين في الرمال. الرمال ملوثة بالزفت. يرفع نظره ويرى المرفأ بعيداً، والسماء تبرق في الأفق، ولكنه لا يسمع رعداً.. يريد العودة، لكنه لا يريد المرور بين اللاجئات، فيسير نحو البيت الصغير المطل مباشرة على الشاطئ. إنه حديقة للأطفال.. هذه الساحة الصغيرة حيث كانوا يلعبون...

إنه الآن في الشارع العام الموازي للشاطئ.. ازدحام.. الناس تسير مسرعة في كل الاتجاهات.. سواح يتكلمون الإنجليزية.. يعرف أنهم يهود. السيدة تقول شيئاً، ثمّ تضحك. الرجل ينظر إلى الناس حوله باحتقار ويقول :

- عرب قذرون.

يجلس الآن في الدكان الذي لا يبعد كثيراً عن حمام اليهود. صاحب الدكان يهودي قديم من سكان المنشية. يقول لليهودي :

- كل شيء ما زال على عهده ؟

ويجيب اليهودي :

- لا. لن تبقى الأمور على حالها.

وينتفض، إذ يكتشف فجأة أن كل ما حوله أنقاض، مثل أنقاض المدن الألمانية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، كما كانت تبدو في الأفلام الإخبارية...

وفجأة يسمع إطلاق نار.. ينظر من نافذة الدكان ويرى شخصاً لا يعرفه، لكنه لسبب ما يشعر بكراهية عميقة نحوه. كان يلوح بمدفع رشاش بين يديه، وحوله رجال مسلحون. ويرى شخصاً آخر يعرفه لكن لا يذكر اسمه، يتبع الرجل الذي يحمل المدفع الرشاش، مثل الكلب الأمين.

ويستيقظ ثانية، وقد بلل العرق جسمه، ويضيء المصباح وينظر إلى ساعته : الرابعة إلا بضع دقائق. ما زال لديه ثلاث ساعات، يسند رأسه إلى الحائط بعد أن يرفع المخدة، ويغمض عينيه...

ما قبل الفجر أصعب الأوقات.. إنه وقت الرعب والوحدة القاتلة.

عاد وفتح عينيه ونظر إلى الستارة، وتذكر بما ذكرته عندما رآها وهو يدخل الغرفة. ذكرته بكوخ الرجل العجوز الذي زاره في يوم قائظ في شمالي عمّان. كان كوخاً مصنوعاً من الزنكَ والخشب ومدخله مغطّى بكيس خيشي بلون هذه الستارة. كان العجوز وحيداً، تعلو وجهه المجعّد ما يشبه الابتسامة الدائمة بسبب خلو فمه من الأسنان، ولم يكن في الكوخ سوى البطّانية القديمة التي جلس عليها فوق الأرض الترابية، وبعض أدوات الطبخ ومصباح غاز. قال إن عمره 72 سنة من بلدة يازور. جميع أفراد أسرته ماتوا أو قتلوا ما عدا حفيده عمر، الذي يشتغل في الكويت.

بدأ ضوء الفجر يتسلّل من تحت الستارة. أغمض عينيه ونام قليلاً، وعندما استيقظ كانت الشمس قد صعدت وسمع زمامير السيارات في الشارع أمام الأوتيل.

قام واغتسل بالماء البارد ونزل إلى مدخل الأوتيل حيث كان زملاؤه بانتظاره.

الفصل الرابع

بيروت (2)

1

قالت له السكرتيرة عند وصوله إلى المكتب :

ـ تلفنت سيدة. تقول إنها وصلت اليوم من إيطاليا. هي في فندق الكومودور، وترجو الاتصال بها حالاً.

ـ هل أعطتك اسمها ؟

ـ سامية... فقط.

لم يتوقع أن تأتي إلى بيروت. ظن أنها عادت مباشرة إلى الضفة.

ـ اطلبيها رأساً. سآخذ التلفون في مكتبي.

وجلس في مكتبه وتناول التلفون.

ـ آلو سامية ؟

وسمع صوتها من بعيد.

ـ منذ وصولي وأنا أحاول الاتصال بك...

ـ متى وصلت ؟

ـ مساء أمس.

ـ ظننت أنك عدت إلى رام الله...

ـ توقفت في باريس بضعة أيام ثم في روما.

ـ وإلى متى باقية في بيروت ؟

- يوم أو يومين. توقفت كي أرى الجماعة. سأراهم اليوم.
- هل سأراك هذا المساء ؟
- من كل بد. سأنتظرك في الأوتيل.
- سأكون عندك في الساعة الثامنة.

2

كانت تعرف دِقّة مواعيده فعادت إلى الأوتيل قبل السابعة واستحمت بسرعة وجلست أمام المرآة تمشط شعرها الأسود الطويل وتنتظر وصوله. اقتربت بوجهها من المرآة وأخذت تصبغ شفتيها بأحمر الشفاه، ثمّ استقامت ونظرت إلى نفسها. ما زالت جميلة، لم يخط الشيب شعرها بعد، وجبينها لم تمسه التجاعيد. وعلت وجهها سحابة غم. ستغادر غداً وستعود إلى سجنها الضيّق... سيوقفونها للتحقيق حتماً... آخر مرة دام التحقيق أسبوعاً كاملاً. «الله يقطع اليهود واللي جابهم..» تذكرت كلمات أمّها الآن. كانت دون العاشرة عندما احتل اليهود عكا. كان بيتهم داخل السور بالقرب من الكازينو. رفض والدها مغادرة البلدة عندما حاصرها اليهود. كان بالإمكان الهرب عن طريق البحر، كما فعل أكثر السكان. قال : «هذا بيتي، ولن أخرج...» فيما بعد حاول اليهود إخراجه بشتى الوسائل. كان يملك مع صديق له شركة باصات صغيرة تعمل على خط عَكّا - حَيْفَا. هاجر شريكه واحترقت ثلاثة باصات ولم يبق إلا إثنان احتجزهما اليهود عندما دخلوا البلدة، ثمّ سلموهما إليه بعد أن رفض أن يبيعهما، وأخذ يسيّرهما بين عكا والقرى المجاورة. وبعد مدة، اشترى باصا ثالثاً، وأصبح قادراً على أن يحافظ على مستوى لائق من العيش لعائلته. فلم تشعر سامية بالفاقة التي ولت بمعظم من تبقى من السكان، واستمرت في دراستها في مدرسة الراهبات، وتعلمت الافرنسية والإيطالية. وبعد بضع سنوات توفي والدها بنوبة قلبية... كان جالساً على الشرفة كعادته كل يوم... أحسّت براحة الآن : لقد مات في بيته لا مشرّداً في الغربة. بعد وفاة أبيها تزوجت من رجل من رام الله يكبرها بعشرين سنة، وأنجبت منه ثلاثة صبيان. كان بيتها في رام الله يطل على التلال المنحدرة نحو الساحل. ارتاحت على الأقل من اليهود. ثمّ وقعت حرب الـ 67، وأراد زوجها الرحيل إلى عمّان «ريثما تنجلي الأمور». قالت له : «كما انجلت الأمور بعد الـ 48 ؟»، ورفضت مغادرة بيتها، كما فعل والدها من قبل. واحتل اليهود رام الله. لم تخف

من اليهود هذه المرة... كانت تعرفهم وتعرف سلوكهم. حققوا معها عندما دخلوا، ولم تستسلم، وبقيت تقارعهم ويقارعونها.

هذه المرة سيكون التحقيق طويلاً، لقد قالت أشياء كثيرة لا تعجبهم في أوروبا وأمريكا. إنها لا تريد التفكير بذلك الآن. أنجع دواء ضد القلق هو عدم التفكير بما يقلق. «سنقطع الجسر عندما نصل إليه». كان هذا شعارها كلما داهمتها المخاوف.

ودقّ جرس التلفون. وسمعت صوت مخلص.

- أنا في القاعة.

- سأنزل حالاً.

كان بانتظارها أمام المصعد. قال بحرارة بعد أن قبّل وجنتيها :

- كل مرة تبدين أكثر شباباً من المرة السابقة.

وشعرت بفرح لرؤيته، وغاب عنها القلق :

- وأنت صحتك منيحة... لكن نقصت وزناً...

وقال وهو يضحك :

- بالعكس وزني زاد... يزيد كلما عدت إلى بيروت... لا أدري لماذا.

3

كانت حديقة الكابتنز كابين خالية، إلا من شاب وفتاة جالسين في إحدى الزوايا. وكان الغسق قد تحول إلى ظلمة شفافة، وظهرت النجوم في السماء من بين البنايات المحيطة. وهبّت نسمة باردة فقال مخلص :

- هل تفضلين الجلوس في الداخل ؟

- لنجلس هنا. ما أجملها من حديقة !

كانت الحديقة صغيرة، في وسطها بركة ماء، ويحيط بها جدار تغطيه الأزهار والورود. ومع خرير المياه، كان يسمع صوت الموسيقى آتياً من الداخل. وقال مخلص :

- هذا المقهى المفضل لديّ في بيروت.

وجاء النادل، وطلبت سامية قدحاً من الكونياك، وطلب مخلص كأساً من الويسكي، وسألها :

- هل نوصي على الطعام ؟.

كان جائعاً، لم يتناول طعاماً منذ الصباح. وتناولت سامية لائحة الطعام :

ـ شيش طاووق ؟

وطلب مخلص شيش طاووق لهما الإثنين.

واحتست سامية رشفة من كأسها وقالت :

ـ أتذكر جلستنا الأخيرة ؟ أحس الآن بنفس الكآبة.

ـ بالكآبة ؟

ـ كآبة الوداع، سأسافر غداً.

ـ لا، غداً ستأتين معنا إلى الجنوب.

ـ إلى الجنوب ؟

ـ إنها فرصة نادرة، سنذهب صباحاً ونعود بعد الظهر. باستطاعتك تأجيل سفرك إلى بعد غد...

وترددت لحظة، ثمّ قالت :

ـ أستطيع ذلك.

ثمّ قالت وقد أحسّت بمرح :

ـ سيأتي يوم نقضي فيه على الوداع إلى الأبد.

فقال مبتسماً :

ـ حلم المشرّدين والعشّاق.

ـ حلم المقاتلين أيضاً.

وأمسكت بيده فوق الطاولة وقالت بحرارة :

ـ هل سننتصر... هل أنت متفائل ؟ سنعود ؟ هل ستبني بيتاً في رام الله كما أخبرتني في نيويورك ؟.

ونظر إليها مخلص متردداً، هل يقول ما في صدره ؟

وجفلت لِمَا رَأَتْهُ في عينيه من حزن مفاجئ، وقالت بصوت خافت :

ـ بماذا تفكر ؟

فقال، وهو يسحب يده من تحت يدها ببطء :

ـ لقد أضعنا الفرصة...

وعرفت ما سيقول فقاطعته قائلة :

ـ نقبل بمشروع التقسيم ؟

ـ مشروع التقسيم ! انتهى منذ عشرين سنة. بطل تنفيذه عندما تركناهم يحتلون الجليل ويصلون إلى العقبة.

ـ كل الناس تقول إن مجرد اعترافنا بهم سيجعلهم ينسحبون من الأرض المحتلة...

فقال بمرارة :

ـ الناس تعبر عن ما تأمل أن يحصل... لن ينسحبوا لا غداً ولا بعد غد. لن ينسحبوا طالما بقينا على حالنا.

وأمسكت بكأسها، وقالت بصوت خافت :

ـ والنتيجة ؟

ـ لا أدري...

ـ وما سيحل بنا في الداخل ؟

ـ لست أدري...

ـ والذين في الخارج ؟

ـ لست أدري... لقد حافظنا على هويتنا طيلة هذه السنين، قد نستمر كما نحن جيلاً آخر. الأرمن حافظوا على هويتهم...

فقاطعته قائلة :

ـ ولماذا لا تقبل بتسوية ـ قبل فوات الأوان...

وامتدت أمام وجه سامية يد تحمل وردة حمراء. ورفعت رأسها فرأت امرأة عجوزاً تبتسم لها. وأخذ مخلص الوردة وناولها لسامية وأعطى العجوز ورقة من النقود، ثم أسند ظهره إلى المقعد وقال مبتسماً :

ـ لنتحدث عن أشياء أخرى. لن نستطيع حلّ كل مشاكلنا الليلة.

وجاء النادل بالطعام، وطلب منه مخلص أن يجلب قنينة نبيذ كسارا أبيض.

وذهب النادل ثم عاد :

ـ ما في عندنا كسارا.

وقال مخلص :

ـ طيب شو في عندك نبيذ أبيض ؟

ـ نبيذ أبيض ؟

ـ نبيذ أبيض.

وغاب مرة ثانية، ثم عاد :

ـ عندنا نبيذ فرنساوي.

ـ ما نوعه ؟

ـ فرنساوي.

ونظر مخلص إلى سامية وكانت تخفي ابتسامة وراء يدها.

ـ فهمت، شو نوع النبيذ الفرنساوي. بوردو ؟ شابلي...؟

وغاب مرة أخرى، وعاد يحمل في يده قنينة بوردو.

ـ عال، افتحها.

وعندما ذهب النادل، رفع مخلص كأسه قائلاً :

ـ لنشرب نخباً.

ورفعت كأسها وقالت :

ـ نخب ماذا... نخب الجيل الطالع...

وشرب مخلص كأسه ووضعه على الطاولة، وقال :

ـ مسكين الجيل الطالع... كم حمّلناه من فشلنا...

ـ كما حمَّلَنا الجيل السابق من فشله...

ـ هل سنمضي سهرتنا هكذا ؟...

ـ معك حق... كفانا غمّاً... متى ستقوم بزيارتنا ؟

ـ كيف لي أن أدخل الضفة ؟

ـ بجواز سفرك الأمريكي. لا تحتاج إلى فيزا أو إذن دخول.

ـ أدري... أعني كيف تريديني أن أزور الضفة واليهود يسرحون ويمرحون فيها ؟ لا أستطيع أن أتصور اليهود في رام الله.

ـ أتستطيع تصورهم في يافا ؟

ـ لا... لا أتصورهم في يافا. غير أن جرح الـ 67 أبتلع جرح الـ 48 وأصبح الجرحان ألماً واحداً.

ـ وكيف تتصور معاناتنا نحن في الداخل ؟ كيف تتصور جندياً إسرائيلياً في الثامنة عشرة من عمره لا تشتريه بقرش يأمرك بالنزول من السيارة في المطر لا لسبب إلا لأنه يريدك أن تفعل ذلك ؟ كيف تتصور جندية إسرائيلية شكلها مثل البومة في مكتب الحاكم العسكري تصفع رجلاً في الخمسين من عمره جاء يتوسل من أجل ابنه المعتقل، دون سبب ؟

وسألها :

ـ هل حدث لك مثل هذه الإهانات ؟

وضحكت قائلة :

ـ نعم... مراراً...

ـ ولماذا تضحكين ؟

ـ للانطباع الذي ارتسم على وجهك. كأنك أهنت.

فقال :

ـ أعني هل تعرضتِ أنت بنفسك لهذا النوع من الإهانة ؟

ـ مرارا... الرجل العربي تثور رجولته عندما تتعرض المرأة للإهانة.

ـ وماذا يُضحك في هذا ؟

ـ لأنه لا يرى نفسه، وما يفعل للمرأة. بعد الحرب ذهبت إلى عمّان للعمل فترة في أحد المخيمات. كنا نشتغل في المخيم طيلة النهار حتى تنكسر ظهورنا، وكان بعض الرجال يقفون على قارعة الطريق ويستهزئون بنا : «ها هن الفدائيات». أبو عامر قال في خطاب منذ بضعة أشهر أن المرأة الفلسطينية يجب أن تحارب مع المقاتلين جنباً إلى جنب... علينا أن نؤمن لهن قبل ذلك حرية الخروج من بيوتهن في وضح النهار دون أن يتعرضن إلى التحرش والاستهزاء... الرجل لا يعرف الجحيم الذي تعيش فيه المرأة في هذا المجتمع. ربما وضع المرأة الفلسطينية قد تحسن قليلاً بسبب الاقتلاع، لكنني أتحدث عن المرأة العربية إجمالاً... لا أظن أن هناك مجتمعاً في العالم قد قسى على المرأة كما قسى عليها المجتمع العربي، بتقاليده وعاداته وقوانينه ومسلك ذكوره. في مجتمعنا المرأة تنتهي حياتها في الأربعين... أما هو فيطلّق ليتزوج في الأربعين. كأن الحياة صنعت له فقط، كأنما صنعت لنصف أفراد المجتمع فقط. لماذا نفتش عن أسباب فشلنا بعيداً...؟

ـ تحرير المجتمع سيؤدي إلى تحرير المرأة...

ـ لا... لا أعتقد ذلك أبداً. أنظر إلى وضع المرأة في الجزائر..
ـ لن يحدث هذا في فلسطين... مجتمعنا أكثر تقدماً...
ـ أكثر تقدماً من العرب الآخرين ؟ لا تصدق. كلنا في نفس المغطس، من المحيط إلى الخليج، وإن اختلفت الأوضاع والأساليب. حالة المرأة العربية أينما كانت هي كما كتب عنها قاسم أمين منذ 75 سنة، لم تتغير..

وقال مخلص وهو يرفع كأسه :
ـ طيب... لنشرب نخب المرأة.
ونظرت إليه عاتبة :
ـ أتهزأُ أنت أيضاً...
ـ إني لا أهزأ...
وشربت رشفة من كأسها وقالت :
ـ ما قلته سابقاً عن المستقبل ؟
ونظر إليها ملياً، ثم ابتسم :
ـ لا تصدقي كل ما أقوله... قد يحدث عكس ما قلت...
ـ تعاملني كطفلة تحتاج إلى مسايرة.
وشد على يدها قائلاً :
ـ بالعكس إني أعاملك معاملة النّد للنّد، أفتح صدري لك، وأحادثك بصدق... أعني ما أقول. قد يحدث عكس ما قلته إذا تغيرت الأوضاع في الدول العربية، أو في بعضها...
ـ أعطني مثلاً...
ـ مثلاً، إذا حصل اتحاد بين سوريا والعراق... لا تنسي أن عامل الزمن بصالحنا، وهو ضد إسرائيل... لهذا أقول لابد أن يحدث تحول عاجلاً أو آجلاً... الزمن بصالحنا...

وفجأة رأى الدمع يترقرق من عينيها... فتحت حقيبة يدها وأخرجت منديلاً أبيض صغيراً، وأخذت تمسح عينيها. وقالت، وهي تحاول الابتسام :
ـ آسفة... أعصابي تعبة. ربما الأفضل أن أعود إلى الأوتيل وأنام باكراً الليلة. أي ساعة نذهب غداً ؟
ـ في الساعة التاسعة...

ودفع مخلص الحساب وخرجا إلى الشارع المقفر وسارا إلى شارع الحمراء، وكان مليئاً بالسيارات والمارة، وقالت وهي تتطلع أمامها :

ـ في رام الله تقفر الشوارع عند الغروب.

وعندما وصلا إلى الأوتيل قال مخلص :

ـ سأمر عليك في التاسعة تماماً.

ـ سأكون جاهزة.

وقبّل وجنتيها، وظل يراقبها حتى غابت عن نظره داخل الأوتيل.

4

في الساعة التاسعة تماماً، توقفت السيارة أمام الكومودور وفتح مخلص الباب وقال لأكرم الذي كان يجلس إلى جانب السائق :

ـ سأعود بعد لحظة.

وعاد بعد قليل ومعه سامية. كانت ترتدي بلوزاً أخضراً وبنطلوناً رمادياً ووضعت على عينيها نظارات سوداء كبيرة. فبدت أنيقة تلفت النظر. وعرفها إلى أكرم والسائق علي، الذي كان يعمل في المركز بواباً وسائقاً ومسؤولاً عن تحضير القهوة والشاي. واستدار أكرم في مقعده بعد أن سارت السيارة، وقال وهو يرمق سامية بإعجاب :

ـ الطقس جميل اليوم... من حظك.

وقالت له مبتسمة :

ـ نحن الفلسطينيين دائماً محظوظون... هل تناولتم الفطور ؟ أنا لم آخذ حتى فنجان قهوة.

وسأل مخلص السائق علي إذا كان بالإمكان التوقف في صوفر. فقال :

ـ في شتورة أفضل.

وعندما وصلوا إلى مفرق ضهر البيدر، شاهدوا عدداً من السيارات متوقفة أمام حاجز تفتيش. وقال أكرم لعلي :

ـ على مهلك...

وقال له أكرم بحدة :

ـ على مهلك... فين رايح ؟

وتعدت سيارتهم كل السيارات المتوقفة وأصبحت في مقدمة الصف. وجاء ضابط ووراءه جنديان يركضان باتجاههم. وقال أكرم لعلي :

ـ عجبك...

ونزل أكرم من السيارة، وسار نحو الضابط وأخذ يحادثه. وكان هذا يشير بيده نحو السيارة ويلوح بيده في الهواء. وأخذ أكرم يحادثه ثم وضع يده على كتف الضابط، ثم تصافحا. وعاد أكرم إلى السيارة، وقال لعلي :

ـ يلا... سر بسرعة.

وأشار لهم الضابط بالمرور وهو يبتسم، ثمّ رفع يده بالتحية العسكرية وحذا حذوه الجنديان الواقفان خلفه وأخذ مخلص يضحك وقد تذكّر عدنان في القدس :

ـ ما الذي حدث ؟ ما الذي قلته للضابط ؟

والتفت إليهما أكرم وعلى وجهه ابتسامة عريضة :

ـ قلت له إنك مبعوث خاص آت توّاً من القصر.

ـ مبعوث خاص ؟

ـ لم يسأل، قلت له إننا كنا نتناول فنجان قهوة مع الرئيس منذ نصف ساعة، زال غضبه. قلت له إننا في طريقنا إلى دمشق.

ـ لماذا دمشق ؟

ـ لست أدري... هذا ما خطر على بالي. المهم أنه صدق ما قلت.

والتفت إلى علي قائلاً :

ـ أترى المأزق الذي كدنا نقع فيه ؟

وابتسم علي ولم يقل شيئاً.

في شتورا، توقفوا وشربوا القهوة في حديقة المقهى الكبير الواقع عند مدخل البلدة، وبعد قليل استأنفوا السير. وعند المفرق المؤدي إلى مشغرة اتجهوا جنوبا. وقال علي وهو يأخذ بيده تسجيلاً ويضعه في فتحة في أسفل المذياع :

ـ هل من مانع سماع أغنية لعبد الحليم حافظ ؟

وعلا صوت عبد الحليم حافظ يروي قصته مع العرّافة. وبعد قليل خرجت السيارة عن الطريق العام وسارت في طريق فرعي فقال مخلص :

ـ إلى أين ؟

وقال أكرم :

- سنتوقف لحظة في مركز الاتصال.

وفي قرية صغيرة إلى جانب الطريق، توقفت السيارة أمام بيت صغير تحيط به حديقة خضار مهملة انتشرت فيها بضع دجاجات ضامرة تجري هنا وهناك كأنّها تفتّش عن شيء فقَدَته. وتجمّع حول السيارة أولاد كانوا يلعبون في الشارع أمام البيت، وأخذوا يراقبونهم بصمت. وسأل أكرم أحدهم :

- أين أبو صبحي يا شاطر ؟.

- هناك. عند عز الدين الحلاق.

وقال أكرم لعلي أن يسير في الاتجاه الذي أشار إليه الولد. وسارت السيارة ببطء يتبعها الأولاد مع بعض دجاجات سارت وراءهم.

وجدوا أبو صبحي جالسا أمام دكان صغير. كان رجلاً ضخماً يرتدي بزّة شبه عسكرية ويدخّن غليوناً. وما أن شاهد السيارة حتى هبّ واقفاً وأسرع نحوهم. وعانقه أكرم بحرارة.

- تأخرتم... لقد انتظرناكم منذ الصبح.

وعرّفه أكرم إلى مخلص وسامية وعلي، ثمّ سأله :

- هل الطريق سالكة ؟

- كان هناك قذف في الصباح وتوقف منذ ساعتين. سأتصل بالخيام... تفضلوا استريحوا... بتريدوا قهوة أم شاي ؟

وطلبوا قهوة، وجلسوا يحتسونها بصمت. وبعد قليل عاد أبو صبحي :

- الاتصال متعذر الآن. بظرف ساعة على الأكثر يتم الاتصال.

والتفت أكرم إلى مخلص وسامية قائلاً :

- من رأيي أن لا ننتظر... خوفي إذا تأخرنا كثيراً أن نضطر للعودة إلى بيروت... أبو صبحي يعلمهم أننا في طريقنا إليهم.

وقال أبو صبحي :

- كما تريدون... سأبقى أمام الجهاز حتى أتصل بهم.

5

عادت بهم السيارة إلى الطريق العام وصوت عبد الحليم حافظ يملأ الجو، وساروا جنوباً باتجاه حاصبيا. كانت الطريق خالية، مما جعل علياً يزيد من سرعته. وبدت حاصبيا عن بعد، وأصبحت الطريق محفوفة بالأشجار والزرع. وعند الجسر طلب أكرم من علي أن

يتوقف. ونزل من السيارة ودخل كوخاً صغيراً يختفي بين الأشجار، وعاد بعد قليل وقد علا وجهه الاضطراب.

ـ يظهر أن هناك قصف مدفعي.

وقال مخلص :

ـ غير القصف في الصباح ؟

ـ يبدو كذلك.

وقالت سامية :

ـ يعني لن نتمكن من الوصول ؟

ـ ليس لديهم وسيلة اتصال مباشر. يجب أن نذهب إلى نقطة المراقبة القريبة من هنا ومن ثم نرى. وقال لعلي : «سر على مهلك».

وسارت بهم السيارة صعوداً، ثم انحرفت في طريق فرعية ملتوية إلى أن وصلت إلى مكان في كتف الجبل انتشرت فيه بضعة بيوت قروية، وأشار أكرم إلى بيت منزو وقفت أمامه سيارة لاندروفر، وقال لعلي :

ـ توقف بجانب اللاندروفر...

ونزل من السيارة وقرع على الباب، ثم دخل، وما لبث أن أطل برأسه منادياً :

ـ أتفضلوا... علي إبْق في السيارة.

دخلوا إلى غرفة تكاد أن تكون عارية من الأثاث، كل ما فيها ثلاثة كراس وطاولة صغيرة كالتي تستعمل في المقاهي، وفي الزاوية بضع قطع سلاح وأكياس مختلفة الأحجام. وكان في أقصى الغرفة باب يؤدي إلى غرفة تصدر منها أصوات جهاز لاسلكي.

وقالت سامية لأكرم :

ـ هل أستطيع أن أغسل يدي ؟

ـ الحمّام، كما أذكر من هنا. وقادها إلى الخارج من الباب الذي دخلوا منه. وبعد قليل فتح باب غرفة اللاسلكي وظهر منها شاب باللباس المرقط يحمل في يده ورقة. حيّاه أكرم، وعرّفه إلى مخلص قائلاً :

ـ الأخ سمير، المسؤول عن الاتصالات اللاسلكية.

وأخبرهم سمير بأن القصف توقف كلياً ولم يتجدد، وقال :

ـ لكن الخوف أن يعود في أية لحظة.

وعادت سامية إلى الغرفة وقالت وهي تمد يدها مصافحة سمير :

ـ إنشاء الله لن نعود إلى بيروت بعد أن قطعنا ثلاثة أرباع الطريق.

فقال سمير :

ـ الأمر ليس بيدي. والتفت نحو أكرم قائلاً : إذا أردتم المسير فإني لا أستطيع منعكم.

ـ ماذا قال المسؤول في الخيام ؟

ـ إنه ليس في القاعدة.

ـ جهازهم معطّل.

ـ الجهاز ليس معطلاً. إنما تنقطع الاتصالات أحياناً لسبب أو لآخر.

ـ حاولنا أن نتصل من عند أبو صبحي، ولم نستطع.

ـ سأعود إلى الاتصال مرة أخرى، ربما يكون أبو الرؤوف قد عاد... هل تريدون قهوة أو شاي ؟

ـ شكراً... لا شيء.

وقالت سامية عندما عاد سمير إلى غرفة اللاسلكي وأغلق الباب خلفه :

ـ أتريدون رأيي ؟ أقترح أن لا ننتظر أكثر من خمس دقائق وبعدها نسير مهما حدث.

وقال مخلص :

ـ وإذا عاد القصف ؟

ـ إني لا أسمع قصفاً. كل شيء هادئ...

والتفت مخلص إلى أكرم :

ـ ما رأيك ؟

ـ لننتظر ما يستجد مع سمير.

وقامت سامية إلى النافذة الصغيرة وأخذت تراقب الطريق. ورأت سيارة لاندروفر تتوقف أمام البيت، وينزل منها أربعة شباب مسلحين، ويصافحهم علي ثم يسير معهم نحو البيت. قال علي :

ـ الإخوان قادمون من الخيام. يقولون إن الطريق سالكة. هناك حرائق في بعض الكروم، لكنها صغيرة.

وعانق الفدائيون أكرم، ثمّ صافحوا مخلص وسامية. وفتح أحدهم باب غرفة اللاسلكي وقال :

ـ سمير. الأخ أبو الرؤوف بحاجة إليك.

وخرج سمير من الغرفة يمسح يده بقطعة قماش :

ـ إني أحاول الاتصال به.

هناك عطل في المولد الكهربائي. ويريدون أن تذهب لإصلاحه.

ـ لكني لست مهندساً كهربائياً..

ـ لا يوجد عندهم أحد يستطيع إصلاحه. اتصل به الآن. لقد تركناه في طريقه إلى القاعدة. لابد أن يكون قد وصل. جرّبه مرة أخرى.

وسألت سامية أحد الشباب الذي جلس أرضاً وأسند ظهره للحائط عن وضع الطريق :

ـ الطريق سالكة. إنما القذف قد يعود من جديد. أمس قتل فلاح كان يحرث أرضه.

وسُمع نداء على الجهاز اللاسلكي، فأسرع سمير إلى الغرفة وأغلق الباب خلفه، ثمّ عاد وقال لأكرم إن أبو الرؤوف على الخط ويريد التحدث إليه. وقام أكرم إلى اللاسلكي بينما التفت سمير إلى الشاب الجالس على الأرض قائلاً :

ـ أبو الرؤوف يريد أن يرافق اثنان منكم سيارة الإخوان بالروفر.

وقال أحدهم، وكان الأصغر سناً :

ـ من سيذهب منا ؟

قال الشاب الجالس على الأرض :

ـ أنا وشفيق.

ثم قال لسمير :

ـ وأنت، هل ستأتي معنا ؟

ـ سأذهب معكم ونعود قبل المغيب. مصطفى سيستلم الجهاز اللاسلكي.

وخرج أكرم من غرفة اللاسلكي مبتسماً :

ـ هيا بنا. الأخ أبو الرؤوف بانتظارنا.

6

وعادت بهم السيارة في الطريق الملتوية التي قدموا منها، تتقدمهم اللاندروفر الضخمة. والتفت مخلص إلى أكرم :

- ماذا قال لك أبو الرؤوف ؟

- أن نحضر حالاً، ولا خوف من قصف جديد.

وعندما وصلوا إلى الطريق الرئيسية، توقفت اللاندروفر ريثما لحقوا بها، ثمّ عاودوا السير في الطريق العام. وأخذت السيارتان تتسلقان الطريق المتعرجة إلى أن وصلتا إلى المسطح المشرف على الخيام.

وأشار أكرم بيده :

- هناك مرجعيون.. وهناك قلعة الشقيف...

وزادت اللاندروفر سرعتها وأشار سمير بيده يحث بالإسراع. ونظر مخلص إلى سامية والسيارة تنطلق بسرعة في الطريق المكشوفة المليئة بالحفر، وكانت ممسكة بظهر المقعد الأمامي تتطلع أمامها بنشوة دون أن تلتفت يمنة أو يسرة.

وانعطفت اللاندروفر بين أشجار الزيتون مخففة من سرعتها، ثمّ توقفت. وعندما صاروا بمحاذاتها قال سمير محدثاً علي :

- سنأخذ الطريق الفرعية.. اتبع على مهل، وحاول أن لا تثير غباراً.

وانحدرت اللاندروفر الكبيرة أمامهم في طريق وعرة بين أشجار الزيتون، وقال أكرم لعلي :

- اتبعهم على أقل من مهلك.

وسارت السيارتان ببطء شديد تارة في صعود وتارة في نزول إلى أن وصلتا إلى مدخل الخيام حيث كانت الطريق معبدة. وهنا تبين أمامهم آثار القصف المدفعي.

كان الدخان يتصاعد من حقل أُحرقت فيه معظم الأشجار، وأصبحت تربته سوداء كأنها شويت بالنار.

كانت البلدة خالية من السكان، لا صوت فيها ولا حركة، إلا أنين الريح وصوت عواء كلب بعيد. وكانت معظم أبواب ونوافذ البيوت مغلقة كأن أصحابها على سفر، وكان البعض الآخر مفتوحاً، كأن أهلها قد غادروها لوقت قصير وسيعودون. وهنا وهناك كان يوجد بيت مهدم كلياً، كأنه أصيب بصاعقة. أما الأعمدة الكهربائية، فكان معظمها على حاله، إلا أن أشرطتها كانت مقطعة ومنتشرة في الطريق.

وانعطفت اللاندروفر أمامهم في شارع ضيّق إلى اليمين، وقبل أن ينعطفوا وراءها، ظهرت أمامهم سيارة جيب مسرعة يرفرف عليها علم أسود في وسطه زوبعة حمراء، وكادت

السيارتان أن تصطدما لولا أن علياً انحرف بسرعة إلى اليمين، خلف اللاندروفر، متوقفاً إلى جانب الطريق. أما الجيب فاستمر مسرعاً إلى أن اختفى.

وقالت سامية وهي تسترد أنفاسها :

- من هم هؤلاء ؟

وقال أكرم :

- حلفاء لنا.

- وماذا يمثل العلم ؟

- علم الحزب السوري القومي.

- هل يوجد منهم كثيرون ؟

- لست أدري عددهم. إنهم حلفاؤنا، ومقاتلون أشدّاء، وإخوتنا في السلاح وإن كادوا أن يقضوا علينا...

وتوقفت اللاندروفر أمام منزل يحيط به سور متوسط الارتفاع، وتوقفت سيارتهم خلفه. وكان عند المدخل عدد من الشباب المسلحين، بعضهم بالملابس المرقطة والبعض الآخر يرتدي ملابس مدنية مختلفة. وعندما نزل أكرم من السيارة عرفه عدد منهم فتعانقوا ثمّ سار الجميع إلى داخل البيت. ودخلوا قاعة جلوس واسعة علّقت في صدرها صورة تمثل رجلاً يرتدي بذلة من الطراز القديم ورباط رقبة ضخماً، تقف إلى جانبه امرأة تبدو أنها زوجته، وأمامهما ثلاث بنات تتراوح أعمارهن بين الخامسة والعاشرة. والتفتت سامية إلى مخلص وقالت بصوت خافت :

- أصحاب البيت.

كان في القاعة، فوق الأرض العارية، عدد من الكراسي الخشبية، جلسوا عليها.

وكانت الشبابيك مغلقة ما عدا الشباك المطل على الطريق. وما هي إلا دقائق حتى جاء الشاي، وجلسوا يحتسونه بصمت.

7

بعد قليل سمعوا سيارة تتوقف في الخارج، وما لبث أن دخل القاعة رجل باللباس العسكري أسود الشعر، متوسط القامة، يحيط به عدد من الشباب المسلحين. وقام إليه أكرم معانقاً، ثمّ قدّمه إلى سامية ومخلص قائلاً :

ـ الأخ أبو الرؤوف قائد المنطقة الجنوبية.
ـ تفضلوا.. هل تريدون قدحاً آخر من الشاي ؟
وقال أكرم :
ـ جئنا لنسمع منكم عن الأوضاع.
وقال أبو الرؤوف مبتسماً :
ـ الأوضاع كما هي لم تتغير. يقذفوننا بمدافعهم وطياراتهم ونقذفهم بما لدينا.
وقال مخلص :
ـ وما هدف القصف ؟ لقد رأينا آثاره في مدخل البلدة ؟
ـ يريدون تهجير السكان والإخلال بتوازننا العسكري بحيث نبقى في حالة توتر وتشتت. هدف التهجير ليس فقط إخلاء الجنوب بل أيضاً خلق شعور من الحقد نحو المقاومة الفلسطينية. وبالفعل هناك الآن شعور بالعداء نحونا. لكن بالطبع هناك أيضاً عناصر ما زالت معنا. الإسرائيليون يريدون خلق لاجئين لبنانيين.
وقال مخلص :
ـ وهل نجحوا بذلك ؟
ـ إلى حد ما، كما ترى، لكن نجاحهم يتوقف على مقدرتنا في ضبط علاقتنا مع السكان.
ـ وكيف علاقتنا مع السكان ؟
ـ أحياناً جيدة وأحياناً متوترة. الجو مليء بالقلق. انظر إلى هذه البلدة الجميلة. أين سكانها ؟ رحلوا بسبب القذف الإسرائيلي المستمر. نحن لم نكن في البلدة عندما بدأوا بقصفها ولم نقم بأية عمليات من هنا... ومع ذلك استمر الإسرائيليون بقصفها بشكل متواصل. عندما تفقد بيتك وتصبح لاجئاً يصعب قبول المنطق. نحن السبب. غير أن قساوة الأساليب الإسرائيلية، وإن كانت ناجحة في السياق القصير، فإنها فاشلة في السياق الطويل، ستعود عليهم بنتائج وخيمة وهم يعرفون ذلك، ولهذا تزداد ردود فعلهم قساوة.
وقال أكرم :
ـ السيدة سامية عاشت بينهم طويلاً، وتعرف طباعهم جيداً.
وسألها أبو الرؤوف :
ـ من أي بلد في فلسطين الأخت ؟
ـ من عكا.. ورام الله..

وقال وقد أضاءت ملامحه ابتسامة عريضة :

- أنا من الكابري.. عكا والكابري بلد واحد.. ثم قال : أتحبين رؤية شمال بلادك ؟

وقالت، ولم تفهم تماماً ما قصد :

- إني عائدة غداً.

وقال وهو ينهض من مكانه :

هل رأيت الجليل والحولة ؟ لنصعد إلى السطح. سترين فلسطين أمامك.

وصعدوا في درج ضيق يتبعهم الشباب المسلحون الذين كانوا يتسمعون إلى ما يجري بشغف. كانت وسائل الترفيه محدودة، ولهذا كانت كل مناسبة من هذا النوع بالنسبة لهم حدثاً اجتماعياً كبيراً.

كان البيت يشرف على الحولة والجليل الشمالي مباشرة، فتظهر المستعمرات الإسرائيلية بكامل تفاصيلها. وكان بالإمكان أيضاً من الناحية الشرقية رؤية مرتفعات الجولان وأولى هضبات جبل الشيخ والعرقوب.

وقال أبو الرؤوف وهو يقف بالقرب من المدخل :

- الرجاء عدم الابتعاد عن المدخل لأننا مكشوفون تماماً لمنظار العدو.

ووقف مخلص خلف سامية يحاول تبين الأماكن التي كان يشير إليها أبو الرؤوف. كانت السحب قد انقشعت وصفا الجو. ورأى انعكاس الضوء فوق البرك المائية التي أقيمت مكان البحيرة لتربية الأسماك، وإلى جانبها بملاصقة الحدود أشجار السرو على جانبي الطريق المؤدية إلى قصر الأمير مجيد في المجيدية، وفي الغرب في الأفق البعيد، خيل إليه أنه يرى رأس الناقورة عند حافة البحر الذي كان يلمع فضياً في شمس الظهيرة.

واستدار أبو الرؤوف وقال وهو يشير في اتجاه حدود البلدة عند بداية الانحدار المؤدي إلى الأرض السهلية :

- مواقعنا المتقدمة هناك.

وقالت سامية :

- هل بإمكاننا رؤيتها ؟

ونظر أبو الرؤوف إلى أكرم وكان يقف إلى يساره وقال :

- إذا أردتم..

- هل تتوقع أن يعودوا للقصف ؟

ـ ليس اليوم. مع أنه لا يمكن التأكد من ذلك مئة بالمئة.

فقالت سامية :

ـ إذاً لنذهب..

8

جلس أبو الرؤوف بجانب مخلص وسامية في الخلف، وجلس أكرم بجانب السائق علي، وتبعهم في سيارة أخرى أربعة من الشباب المسلحين. وقال أبو الرؤوف لعلي أن يسير باتجاه الساحة. ومرّوا أمام مسجد صغير جلس عند مدخله رجلان متقدمان في السن كانا يراقبان السيارة بصمت.

وقال مخلص :

ـ من سكان البلدة ؟

وقال أبو الرؤوف :

ـ بقي في البلدة بضعة مسنّين ليس لديهم عائلات.

ـ وكيف يعيشون ؟ من يقدم لهم الطعام ؟

ـ نعطيهم من مؤننا.

ـ هل يلومون المقاومة لما حدث للبلدة ؟

ـ يلومون الحكومة وأعيان المنطقة. الجنوب منطقة منسية، مزرعة لبضعة إقطاعيين. الأموال التي خصصت للجنوب اختفى معظمها..

ـ ومن يقف إلى جانب المقاومة من الأهالي.

ـ الناس الواعيين، العناصر الشابة. طبعاً الذي هدم بيته يقول لولاكم لما حصل ذلك.. من ناحيتنا، حاولنا بقدر الإمكان التخفيف من الآلام التي تعرض لها السكان. هناك مخصصات مالية نوزعها على السكان. لكن توزيعنا أيضاً لم يكن دائماً على المستوى المطلوب، ارتكبت أخطاء كثيرة.. عدا عن التصرفات الفوضوية التي تركت أثراً عميقاً في نفوس المواطنين وقتلت في بعضهم الثقة بنا، وعرضتنا للإشاعات والأقوال. هذا هو الواقع المر، ويجب الاعتراف به لإصلاحه.

وعندما وصلت السيارة إلى حدود البلدة، أشار أبو الرؤوف إلى علي أن يصعد إلى حافة المرتفع.

ـ توقف هنا.

وتوقفت السيارة عند مدخل معسكر خال.

ـ كانت هذه ثكنة للجيش. نستعملها الآن مركزاً للمراقبة.

ولاحظ مخلص آثار القصف في مباني الثكنة. وتناول عند نزوله من السيارة شظية وجدها على الأرض وأخذ يقلبها بين يديه. كانت مستطيلة ذات حد يجرح كالموس عليها كلمات بالعبرية. لفها بمنديله ووضعها في جيبه. وسار بهم أبو الرؤوف إلى برج المراقبة، وكان في أقصى الثكنة ويطل جنوباً. كان فيه مدفع رشاش مضاد للطائرات جلس حوله ثلاث شباب في الألبسة المرقطة وظهورهم مسندة إلى الحائط المنخفض.

وقال أبو الرؤوف وهو يصعد الدرج :

ـ يعطيكم العافية.

ونهض الشباب الثلاثة يسلمون على الزائرين، وقدّمهم أبو الرؤوف قائلاً :

ـ الأخ مفيد والأخ وليد والأخ أبو أحمد.

كان مفيد بذاته. عرفه مخلص حالاً.. تغيَّر كثيراً. بدأ ضامراً وأكبر سناً، وتلوحت بشرته وأصبحت بلون التراب الأسمر. وعندما رأى مخلص مدّ إليه يده مبتسماً :

ـ هل تذكرني...

ـ بالطبع ـ أخبروني في عمَّان أنك هنا.

قال مفيد :

ـ هل تذكر ياسر وأبو أحمد.

وقال مخلص وهو يصافحهما.

ـ بالطبع.. وهل يذكراني ؟ ثم التفت إلى مفيد قائلاً :

ـ وأنت كيف حالك.. طمني.. سنوات مضت بسرعة...

ـ كما ترى...

ومرت بذهن مخلص صورة لقائهما الأول في الغور بالقرب من النهر.. والكرامة.. والرجل في المئذنة..

وتقدمت نحوهم سامية، وعرفها مخلص إلى مفيد وزميليه. وسألت سامية وهي تشير إلى مبنى رمادي صغير يرفرف عليه علم أزرق اللون ولا يبعد كثيراً عن برج المراقبة :

ـ هذا مركز للأُمم المتحدة، أليس كذلك ؟
وقال مفيد :
ـ إنه مركز مراقبة.
ـ مراقبة ماذا ؟
ـ الاشتباكات، خرق اتفاقات الهدنة.
ـ وما هو عدد المراقبين ؟
ـ عادة لا يوجد أكثر من ضابطين يتغيران دورياً. يأتيان أحياناً لزيارتنا في المساء.. هما في مثل سننا، واحد من إيرلندا والآخر من السويد.
وقالت سامية، وهي تظلل عينيها بكفها :
ـ وماذا يفعلون عندما يحدث قصف مدفعي أو غارة جوية ؟
ـ يبعثون ببرقية لاسلكية إلى قيادتهم، وتنقلها هذه إلى الأمين العام في نيويورك.
ـ وبعد ذلك يتوقف القصف ؟
وبعد ذلك يسجل الخرق في الأُمم المتحدة.. وعندما ينشر التقرير السنوي يرد عدد المرات التي خرقت فيها إسرائيل اتفاقات الهدنة.
ـ وأنتم، ألا تأخذون إجازات ؟ ألا تذهبون إلى بيروت ؟
وقال مفيد وهم يبتسم :
ـ بالطبع. نذهب إلى بيروت أو صيدا. أحمد والدته تسكن في بيروت. لكن عندما يكون الوضع متوتراً في الجنوب، نبقى مدة طويلة دون إجازة.
والتفتت سامية إلى أبو الرؤوف الذي كان يقف إلى جانبها :
ـ وأين بقية المقاتلين ؟ إني لا أرى أحداً ؟
وقال أبو الرؤوف :
ـ البعض يقوم بتمارين والبعض في خنادقهم والبعض الآخر في البلدة.
وصمتت سامية لحظة ثم قالت، والشباب المسلحون الأربعة الذين أتوا في اللاندروفر الأُخرى يتسمعون إليها باهتمام من موقعهم عند رأس الدرج :
ـ أتظن من الممكن أن يقوم الإسرائيليون بهجوم شامل ؟
وقال أبو الرؤوف :
ـ ليس هناك شك بمقدرتهم على ذلك. أما التوقيت فيتوقف على عوامل كثيرة. كلما زادت قوتنا في الجنوب ازدادت رغبتهم للقيام بعملية ضدنا.

ـ وإذا قرروا الهجوم.. ماذا ستفعل قواتنا ؟

ـ لدينا أكثر من خطة.

ـ مثلاً ؟

ـ الانسحاب من المواقع المكشوفة.

ـ وبعد ذلك ؟

ـ ندعهم يتقدمون.

ـ إلى نهر الليطاني ؟

ـ إلى حيث يشاءون.. ربما إلى الليطاني. ثم نضربهم في الجانب ومن الخلف.. هذه أرض تصلح لحرب العصابات.

وقالت سامية :

ـ لكن هل بذلك نربح المعركة ؟

ـ هدفنا ليس ربح المعركة بالمعنى الكلاسيكي. هدفنا تكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة وإقناعه أنه لا يستطيع سحقنا. ونجاحنا في تحقيق ذلك هو بمثابة ربح المعركة.

ـ وماذا يحدث إذا امتدت الحرب إلى بيروت والشام.. ماذا نفعل عند ذلك ؟

ـ نسحب الأسلحة الثقيلة، ثم نختفي في الخنادق والوديان.. وننطلق من أماكن مختلفة..

ـ وماذا سيكون أثر ذلك عسكرياً ؟

ـ أثر كبير، خصوصاً إذا كبادناهم خسائر في الأرواح...

وجاء صبي في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره في لباس مرقط، وتوقف أمام أبو الرؤوف وقال :

ـ الغذاء جاهز..

وقال أبو الرؤوف للزائرين :

ـ الطريق إلى الخندق الأمامي مكشوفة، لكن لا يوجد خطر. من الأفضل أن لا نسير كلنا سوياً فنلفت النظر، بل كل اثنين على حدة.

وغادروا الثكنة، وتوقفوا عند منعطف الطريق في ظل آخر بيت في البلدة، وكان سقفه القرميدي مكسراً وحيطانه ملأى بعشرات الثقوب، ونوافذه محطمة، ما عدا نافذة واحدة تدلى منها ستار أبيض ناصع كان يلعب به النسيم.

وقال أبو الرؤوف وهو يشير إلى حرش صغير يبعد حوالي 100 متر من البيت :

ـ سأقطع أنا والأخ أكرم إلى هناك، ثم يلحق بنا مخلص والأخت سامية. وبعد ذلك الإخوة.. هيا بنا.

كانت الطريق محفورة في كتف التل ومكشوفة من ثلاث جهات، ويخيّم عليها صمت مطبق لا يسمع فيه إلا أزيز الحشرات في أشجار الصنوبر ووقع خطوات أبو الرؤوف وأكرم المبتعدة.

وجاء دور مخلص وسامية، فأمسك بيدها وسارا بسرعة، خافضي الرأس. وبشكل تلقائي أخذت سامية تركض فشدّها مخلص من يدها، وعادت تسير سيراً طبيعياً.

وحين وصلا إلى الحرش الصغير رأى مخلص شخصين يراقبانهما من وراء الأغصان، ثمَّ يتقدمان نحوهما. كانا من الأشبال في مثل سن الصبي الذي أتى يعلن الغذاء، وكانا محلوقي الرأس يحمل كل منهما مدفعاً رشاشاً. وقال أحدهما وهو يشير بيده :

ـ الخندق إلى اليمين، ثمَّ يساراً.. هناك..

وقال مخلص مبتسماً ؟

ـ وما الغذاء ؟

فقال الشبل دون أن يبتسم :

ـ فول برز.

وسارا، مخلص في الأمام وسامية وراءه تمسك بيده، بضع خطوات إلى أن وصلا إلى فسحة صغيرة في طرفها نفق، وفرشت على أرض الفسحة حصيرة في منتصفها وعاء كبير يتصاعد منه رائحة الفول والرز الشهية وحوله الصحون المعدنية. وكان أبو الرؤوف وأكرم جالسيْن وإلى جانبهما ثلاثة شباب مسلحين. وبعد قليل وصل مفيد ورفيقاه ثمَّ المسلحون الأربعة، وجلس الجميع حول الوعاء وأخذوا يأكلون بشهية.

وبعد الغذاء، سأل أبو الرؤوف سامية إذا كانت ترغب في مشاهدة الخنادق، فقالت بحماس :

ـ أحب ذلك جداً.

كان النفق يؤدي إلى طابقين حفرا تحت الأرض، في أولهما ممرات تؤدي إلى مواقع المدافع الرشاشة ومخابئ المؤن والذخيرة. وكانت الصواريخ ما زالت في صناديقها. وفي الثاني غرف نوم ومخازن أسلحة أُضيئ كل منها بقنديل «لوكس» يتدلى من السقف. وكان في إحدى الغرف ثلاثة شباب بألبستهم المرقطة يغطون في نوم عميق.

وقالت سامية هامسة :

ـ يجب أن لا نوقظهم.

وعندما عادوا إلى الخارج، أخذ أبو الرؤوف يشرح لهم طريقة إطلاق الصواريخ. وتناول صاروخاً من أحد الصناديق المفتوحة ووضعه أرضاً وأخذ يفسر تركيبه، وكيفية تصويبه نحو الهدف.

وقال سامية :

ـ الأفضل أن لا تدخل في التفاصيل. سيحققون معي عندما أعود ولا أريد أن أحمل معلومات قد تكون ذات فائدة لهم.

ـ معكِ حق. وأعاد الصاروخ إلى الصندوق وقال : تفضلوا لنشرب الشاي.

8

بعد انتهاء الغذاء، أخذ مخلص يتحدث إلى أحمد، أحد رفيقي مفيد. سأله عن عائلته ومن أين أتت وأين تسكن.

ـ والدتي في بيروت، مع أخواتي.

ـ هل لديك إخوة ؟

ـ ثلاث أخوات... أنا الصبي الوحيد. وأضاف أن أخته الكبرى، واسمها صفا، صمّاء بكماء. توقّف لحظة ثم قال : توفي أبي من زمان، أنا لا أعرفه. قتل أثناء هربنا من القرية. سمعت تفاصيل ما حدث مرات لا تحصى، حتى بتّ أعتقد أني شاهدت ما جرى بنفسي. كنت رضيعاً في ذلك الوقت. أبي رفض مغادرة البيت عندما احتلّ اليهود القرية وأمروا الأهالي من خلال مكبرات الصوت أن يخرجوا من بيوتهم. حملت عائلات القرية ما استطاعت حمله وخرجت إلى الشارع العام، إلا نحن... تحصّن أبي في البيت وظل واقفاً أمام الباب مصوباً بندقية الصيد التي اشتراها بعشرين جنيها، وأمي وراءه تحملني بين يديها وإخوتي الصغار يبكين من الخوف وهو يحاول إسكاتهن، وأمي تترجاه أن يضع البندقية جانباً ويخرج مثل بقية أهل القرية. وهدأت الأصوات في الخارج، ثمّ سمعنا صوت إطلاق نار، ثمّ صراخ نساء وأطفال، فقالت أمي : إنهم يقتلون الناس... هيا بنا قبل أن يأتوا إلينا يا راجل... وأخيراً رضخ، فأخذته من يده وخرجنا نحمل بعض الأغراض إلى الشارع العام، وهناك وجدنا أهل القرية

متجمعين على قارعة الطريق والمسلحون اليهود يأتون ويذهبون حولهم. ومرّ بنا جندي إسرائيلي ورأى بندقية والدي، وكانت ما زالت في يده. فأمره أن يسلمه إيّاها، فرفض والدي، فذهب اليهودي وعاد ومعه إثنان يحمل أحدهما مدفعاً رشاشاً، وأمر هذا والدي أن يسلمه البندقية، فرفع والدي بندقية الصيد، وفي الحال أطلق اليهودي عليه النار فأرداه قتيلاً. وتناول بندقية الصيد من الأرض وانصرف هو وزميلاه. وحفرت أمي قبراً في الحقل إلى جانب الطريق ودفنته فيه. كان عمره 25 سنة. تقول أمي إنه كان رجلاً طيباً... كانت تحدثني عنه منذ صغري وتقص علي القصص عن بيتها وقريتها والحقول، وهي تطبخ فوق نار الحطب أو ترتق ثيابنا الممزّقة أو تمسح الأرض. كانت دائماً تنهي كلامها بالقول : «الله يلعنهم، أخذوا منا كل شيء، الله يريهم مثل ما أرونا». كراهيتها للإسرائيليين صارت مع الأيام شيئاً مقدساً تحافظ عليها كإيمان ديني. بكت عندما التحقت بالثورة. قالت «ستتركني مثل ما تركني أبوك».

وسأله مخلص :

ـ وهل تذهب لزيارتها ؟

ـ كلما ذهبنا إلى بيروت أنا ومفيد وياسر. مرة كل شهرين أو ثلاثة.

وجاء مفيد وجلس بجانب مخلص قائلاً :

ـ ألا ترغب في مشاهدة الخنادق.

ـ رأيت مثلها في جرش.

ـ إنها أكثر تطوراً هنا. بماذا يحدثك أبو أحمد ؟

ـ تحدثنا بمواضيع مختلفة.

وفي هذه الأثناء كان الجميع قد عادوا وجلسوا فوق الحصيرة، وكان نقاش حاد يدور بين أبو الرؤوف وأكرم.

ـ من لا يريد حرباً شعبية ؟ قال أبو الرؤوف هل نحن قادرون على خوض حرب شعبية ؟ الرغبة شيء والمقدرة شيء آخر. وإذا كنا غير قادرين فلماذا نستمر بطرح الشعارات ؟ طرحها يبعث الثقة في النفس، لكنه يكلفنا غالياً. يخدم أغراض العدو مثل ما خدمته خطب الشقيري حول الرمي في البحر...

وقاطعه أكرم قائلاً :

ـ الشقيري لم يقل ذلك أبداً.

ـ ليس مهماً... قال أقوالاً مماثلة استغلت بنفس الطريقة.

- لا أريد أن أدافع عن الشقيري... إني بصدد موقف. قل لي، هل تعتقد أنـه من الممكن التوصل إلى حل دون أن نغير الوضع العربي ؟

وتمهل أبو الرؤوف في الإجابة ثم قال :

- يجب عدم التعرض للأنظمة العربية. يجب العمل من خلالها. التعرض لها الآن يدخلنا في معارك جانبية تصْرِفنَا عن المعركة الرئيسية.

- إذاً، لماذا لا نضع الثورة جانباً وننصرف إلى العمل السياسي !

- الثـورة مراحـل... في هـذه المرحلـة يجب أن نعـالـج الـواقـع الـذي نجـابهـه ضمن إمكانياتنا... ماذا فعل لينين عندما جوبه بواقع مماثل ؟ وقّع معـاهـدة برست ليتوفسـك وأنهى الحرب مع الألمـان. وعنـدمـا حصل الضيق الاقتصـادي، مـاذا فعل ؟ أعلن النظـام الاقتصـادي الجديد، وسمح بالسوق الحرة والربح الفردي. بذلك أنقذ ثورة أكتوبر، أليس كذلك ؟

وقال أكرم :

- لكن وضعنا يختلف عن وضع الثورة البلشفيـة. نحن لا نملـك أرضـاً، ثورتنـا لم تنضج بعد، لذا أقول يجب عدم التنازل عن الموقف الثوري.

وقال أبو الرؤوف :

- بـالعكس، لأن وضعنـا كمـا وصفتـه يجب أن نتحرك سيـاسيـاً لنحمي الثـورة التي لم تنضـج... يجب أن نلعب أوراقنـا حسب متطلبـات المرحلـة. كـل مرحلـة لهـا أسلـوبهـا ولهـا أهدافها. هدف المرحلة الحاضرة هو استرجـاع الأرض ولو جزء منهـا. وفي هـذه المرحلـة نحن غير قـادرين على تحقيق ذلـك إلا من خلال العمـل السيـاسي... فـإذا اغتنمنـا الفرصـة ولعبنـا أوراقنا جيداً حققنا هذا الهدف، وتمكنـا من الانتقـال إلى المرحلـة التـاليـة. صـدقني أن هـذا الخط يخيف العدو أكثر مما تخيفه كل شعارات الحرب الشعبية...

- إذاً، الموقف الثوري في هذه المرحلـة هو موقف خـاطئ والموقف المسـاوم هو الموقف الصحيح ؟

وابتسم أبو الرؤوف، ووضع كأس الشاي الذي كان في يده على الأرض، وقال :

- لينين رجـع خطـوة إلى الـوراء ليتمكن من التقـدم خطـوتين إلى الأمـام، ولـولا استراتيجيته المرحلية ومرونته السياسية لما تقدمت الثورة خطوة واحدة.

- لينين كان قـائـداً ثوريـاً. ولهـذا كـان بـإمكـانـه عنـدمـا يتراجع خطوة إلى الوراء أن يحسب حساب الخطوتين إلى الأمام. قياداتنا ليس لديها حسابات من هذا النمط.

وأشعل أبو الرؤوف سيجارة وقال :

ـ طيب... أنا معك... ليس لدينا قادة ثوريون. لكن القيادة القائمة قادرة موضوعياً على تحقيق الهدف المطروح في هذه المرحلة إذا لاقت الدعم الكافي. لهذا أقول يجب أن ندع القيادة تفعل ما بقدرتها على تحقيق هذا الهدف، وأن لا نرفع بوجهها الشعارات التي نعرف تماماً أنها غير قادرة على تحقيقها في هذه المرحلة. فإذا نجحت كان به، وإن لم تنجح، سنركز على الخيارات الأخرى المطروحة أمامنا...

ـ القيادات الثورية لا تمانع بإقامة دولة. ما تقوله هو أن التنازلات السياسية لن تجدي نفعاً، إن العدو سيرفض أية تسوية سياسية، وبالتالي فإن إقامة دولة فلسطينية بغير قوة السلاح أمر مستحيل.

ـ في هذه الحال، سيكون التوصل إلى إقامة الدولة، إذا نجحنا انتصاراً كبيراً، أليس كذلك ؟

وقال أكرم مبتسماً :

ـ ذلك لن يحدث... إن موازين القوى لا تسمح بذلك، وإذا توصلنا إلى حل ما فسينعكس عدم التوازن في أي اتفاق يتم التوصل إليه.

ـ أنا مثلك، لا أقبل بموازين القوى الراهنة مقياساً نهائياً لعلاقتنا بالعدو. فلو قبلنا بهذه الموازين لكان علينا أن نرمي بأسلحتنا ونستسلم... إننا نتكلم عن حقوق وأهداف يساندنا بالمطالبة بها العالم بأجمعه.

وقال أكرم، وكأنه يريد أن يستثير أبو الرؤوف :

ـ آسف أن أقول إن هذا تفكير غير علمي. إسرائيل قادرة على تحدي العالم ومنع إقامة الدولة الفلسطينية طالما أن الولايات المتحدة تدعمها وطالما بقيت الرجعية العربية على ما هي عليه.

وهنا قالت سامية :

ـ لنفرض أن التوصل إلى الهدف الذي يتكلم عنه أبو الرؤوف ممكن، فماذا ستكون النتيجة عندما نقيم الدولة... نقبل بإسرائيل ؟

وقال أبو الرؤوف :

ـ إني لا أتوخى في النقاش تسجيل انتصارات لفظية، إننا في صدد موضوع مصيري، وهو موضوع متعدد الجوانب ولا يجوز معالجته من ناحية واحدة. لو كان المشكل مشكل

اعتراف أو عدم اعتراف، لسهل الأمر. إسرائيل أصبحت الآن أمراً واقعاً، نتيجة لعجزنا عن كسرها عندما كان ذلك ممكناً.

وقال أكرم مقاطعاً :

- وإذا كان ذلك ممكناً في الماضي، فلماذا لا يكون ممكناً في المستقبل ؟

وقال أبو الرؤوف :

- كان استرجاع فلسطين ربما ممكناً في الخمسينات. كان العالم لا يعارض استرجاعنا حقوقنا بالصورة التي خسرناها فيها. الأمم المتحدة اعترفت بحقوقنا وبحقنا في العودة. كان ممكناً أيضاً في حرب 1956 وفي حرب 1967. كانت حرب 1973 آخر فرصة لدينا. لكن بعد حرب 1973 لم يعد الحل العسكري مقبولاً بالنسبة للعالم. حل إطار جديد للقضية وأصبحت فكرة إزالة الكيان الصهيوني عسكرياً، على فرض أن العرب سيصبحون يوماً قادرين على ذلك، فكرة لا تقبلها أو تسمح بها المجموعة الدولية، بما فيها الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية. لقد أضعنا الفرصة التاريخية.

وقال أكرم بإصرار :

- لكنني أتحدث عن الجيل القادم. هل نحرمه من حقه في وطنه لأننا عجزنا عن تحقيق التحرير ؟

- أنا أيضاً أتحدث عن الجيل القادم. إننا نخدم الجيل القادم بتحمل المسؤوليات التي تجابهنا اليوم. ليس أسهل من الهرب من مشاكل اليوم باتخاذ موقف شامل يتمسك بأهداف المستقبل البعيد.

وقال أكرم بنفس الإصرار :

- إذاً أنت ترتئي بأن نتنازل لليهود عن حقنا في يافا وحيفا والجليل مقابل عودتنا إلى الخليل ورام الله ونابلس ؟ وأضاف بتهكم : ترى ما الذي نفعله بموضوع القدس ؟ هل نقنع اليهود بالانسحاب من القدس أيضاً ؟.

- إني لا أدعو إلى التنازل عن حقوقنا. حقوقنا باقية ولن يستطيع أحد أن يتنازل عنها. ما أدعو إليه هو استرجاع جزء من أرضنا، يمكن استرجاعه الآن وخلال فترة محدودة زمنياً. إني أدعو إلى السير مع التاريخ لا إلى استباقه أو الهرب منه. قد تستغرب إذا قلت لك إني أعتقد أن التعايش مع اليهود ليس مستحيلاً، وأن السلم قد يفتح أبواباً مقفلة كنا نظنها مقفلة إلى الأبد. إني أقول إننا ما زلنا قادرين على هزيمة الصهيونية. لكن لن يكون ذلك برفع

شعارات مرحلة مضت... قوانا يجب أن تنصب على تحقيق إمكانيات المرحلة التي نحن فيها واستعمال الوسائل التي توفرها هذه المرحلة لتحقيق هذه الإمكانيات. أليس هذا ما تسميه أنت بالعقلانية ؟

ـ وما هي هذه العقلانية ؟

ـ لقد ذكرتها... إنها الوسائل التي لم نستعملها جيداً حتى الآن، وسائل العمل السياسي الذكي.

وصمت أكرم لحظة، ونظر إلى مخلص وكأنه ينتظر منه دعماً، ثم قال بلهجة أقل إصرارا :

ـ أكرر، أن الموقف الثوري لا يرفض العمل السياسي الذي تتكلم عنه، بالعكس، العمل السياسي هو جزء من النشاط الثوري، شرط أن ينسجم مع أهداف الثورة.

فأجاب أبو الرؤوف بصوت هادئ :

ـ كلام جميل، لكني بصراحة يا عزيزي، لا أفهمه... لنتكلم بوضوح...

ـ لماذا لا نتكلم بالعامية إذن أو بالإنكَليزية فإنهما أكثر وضوحاً...؟

ـ كلماتي أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى، وأنا لا أتكلم الإنكَليزية لسوء الحظ... لكن معك حق، فبالإضافة إلى كل مشاكلنا فإننا بحاجة لحل مشكلة التفاهم اللغوي فيما بيننا... أتذكر كيف كان عبد الناصر يخطب بالعامية ويعود دائماً إلى الفصحى ؟ الأمور تفقد ضخامتها إذا قيلت بالعامية... والجماهير تعودت على غموض الفصحى.

وجاء الشبلان يحمل أحدهما أقداحاً أخرى من الشاي والآخر صينية عليها برتقال. وأخذ أكرم برتقالة وأخذ يقشرها. وقال أبو الرؤوف :

ـ نحن الفلسطينيين على نوعين، أتعرف ما يفرق النوع عن الآخر ؟

فقال أكرم دون تردّد :

ـ الانتماء الطبقي...

وقاطعه أبو الرؤوف قائلاً :

ـ أنا فلاح ابن فلاح...

وقاطعه أكرم بدوره :

ـ هذا يؤكد ما أقوله...

ـ واستمر أبو الرؤوف في كلامه :

ـ المفهوم الطبقي لا يكفي للتمييز الصحيح، إنه لا يكفي لتحليل الوضع الذي نحن فيه. نحن كما قلت أنت بنفسك، شعب مشرّد تعوزه وسائل الإنتاج...

وقال أكرم بتحد :

ـ من قال إن جميع الفلسطينيين مشرّدون ؟ هناك عدد كبير منهم غير مشرّد... هناك قطاعات واسعة استقرت وأثرت وهي تسكن بيوتاً فخمة، وتمارس أعمالاً ومهناً مربحة، وتملك جوازات سفر لا بطاقات لاجئين مثلنا. هذه القطاعات تشكل طبقة معينة واضحة المعالم...

ـ المال، والبيوت الفخمة، وجوازات السفر لا تغيّر من وضع الإنسان الفلسطيني مهما كان. فهو يبقى، موضوعياً، مشرّداً ومحروماً من حقوقه مهما تغيرت أوضاعه الذاتية.

ـ لكنك توافقني على أن هناك طبقة من الفلسطينيين قادرة بسبب مالها ومركزها على تحمل الحرمان بمرارة أقل. وضحك أكرم قائلاً : في صالونات بيروت يتحسرون لعدم وجود المثقفين على رأس الثورة...

وقال أبو الرؤوف بتؤدة :

ـ يجب أن لا نطلب من إنسان ما هو فوق طاقته يا أكرم... لكل فرد دور يلعبه حتى بين أفراد الطبقات المثرية والمثقفة... الثورة الفيتنامية قبلت في جبهتها الوطنية حتى الفئات المحافظة.

ـ إنَّك لم تفهم قصدي. ما أُريد قوله هو أن البورجوازية الصّغيرة المسيطرة غير قادرة موضوعياً على تحقيق التحرير. إنها قادرة فقط على تحقيق الحل الوسط... ويبدو أن حتى الحل الوسط دون قدرتها... إنها اليوم في نفس المأزق الذي كانت فيه القيادات البورجوازية القديمة... الحاج أمين كان يتمنى حلاً على يد الملوك والرؤساء العرب تماماً مثل ما تتمنى اليوم قيادتنا البورجوازية الصغيرة الحل على يد الملوك والرؤساء والأميركان والسوفيات.

وقال أبو الرؤوف بصوت هادئ :

ـ إذن، الذي تريده هو تفجير الصراع الطبقي وإعلان الثورة ضد الأنظمة العربية، النقطة التي انطلقنا منها ؟

ـ نعم... نريد ثورة ضد الأنظمة العربية، ثورة تقلب الأوضاع العربية رأساً على عقب. وإلى أن يتم ذلك سنبقى كما نحن، تحت رحمة إسرائيل وأمريكا وتحت رحمة الإقطاعيات القبلية والدكتاتوريات العسكرية...

كان الجميع يصغون بانتباه. وتوقف أكرم لحظة ثم قال :

ـ السؤال، لماذا نحن ساكتون عن عرب النفط، ولا أعني بعرب النفط عرب الخليج والجزيرة فقط، بل الطبقة الجديدة التي خلقها النفط... لماذا نحن ساكتون عن الذين يتحكمون بمقدراتنا ويهدرون ثرواتنا ويلعبون بمصيرنا القومي لإشباع شهواتهم ؟ أرأيت حكامنا وأغنياءنا كيف يتصرفون ؟ يبنون القصور على مرمى من الأكواخ... لماذا السكوت عن هؤلاء الفاجرين ؟ ليس هناك مجلة أو صحيفة لم يشتروها أو لم يكمّموا أفواه أصحابها بالمال أو الإرهاب... والجيل المثقف الذي نشأ في ظلهم، علموه كيف تباع الضمائر وتشترى العقول. حتى النجار والحداد، حتى الفلاح والعامل البسيط لا هدف له سوى الحصول على الفيزا والسفر إلى الجزيرة أو الخليج... الفُتات تلقى لنا تحت المائدة فنركض لاهثين كالكلاب الجائعة لالتقاطها... لماذا تحني الثورة رأسها أمام كل هذا وتسكت ؟ أريد أن أعرف...

ورفع أبو الرؤوف يده مهدئاً وقال :

ـ إني أفهمك يا أكرم وأفهم غضبك... وصدقني أن شعوري مثل شعورك... دعني أجيبك وبنفس الصراحة. إن الوضع العربي، على سوئه، ليس كما رسمته تماماً. نعم هناك فوضى أخلاقية، وتدهور اجتماعي، وانهيار لم يعهده العرب منذ عصور الانحطاط، لكن هناك أيضاً تغييرات جذرية هنا وهناك، وهناك عناصر مخلصة حتى في قلب الطبقة التي تتحدث عنها. هذا من ناحية، من ناحية أخرى الأنظمة تقدم لنا شيئين، المال والدعم السياسي. دون المال لا نقدر على العيش، ودون الدعم السياسي تنسانا الدول ويداس علينا...

وقاطعه أكرم قائلاً :

ـ ما الذي أعطونا من مال ؟ فُتات الفُتات... إلى متى نرضى بهذا الإذلال ؟ إلى متى نبرر مواقفنا بالقول إن تعاملنا معهم هو على صعيد المصلحة الآنية ؟ إلى متى نقبل بهذا الوضع المهين ؟ بيدهم سلاح النفط ولا يستعملونه... بيدهم الأموال المكدّسة ولا يستعملونها إلا على ملذاتهم... ينكسرون في كل حرب يخوضونها ويعجزون حتى عن تحقيق التسوية...

وبنفس الوقت يقيمون أنفسهم أسياداً علينا... يحرموننا من أبسط الحريات الديمقراطية والإنسانية، إلى متى..؟

وساد صمت لم يقطعه إلا هدير طائرة بعيدة. وانتبه مخلص أن الوقت قد حان للعودة إلى بيروت.

9

كان الوداع قصيراً تبودلت فيه كلمات قليلة، ووقف مفيد وياسر وأبو أحمد صفاً واحداً بجانب أبو الرؤوف، بعد أن صعدت سامية إلى السيارة ولحق بها مخلص وأكرم، ولوَّحوا مودعين. تذكر مخلص وداعاً مماثلاً في أحراش جرش...

كانت الشمس قد مالت فوق البحر وكادت تلمسه، وامتدت الظلال طويلة فوق الطريق.. وجلسوا في السيارة صامتين. كان النسيم يهب بارداً ولا يسمع إلا صوت المحرك في الطريق الخالية. وبعد أن قطعو إبل السقي لحقت بهم اللاندروفر الكبيرة ثم سبقتهم، ولوَّح لهم سمير مودعاً. في شتورا توقفوا وشربوا القهوة، ووصلوا إلى بيروت في حوالي الساعة التاسعة.

عند مدخل الكومدور، نزلت سامية بعد أن ودعت أكرم وعلي، ونزل معها مخلص وسارا بصمت نحو المصعد.

- لم أعرف أن أكرم ينتمي إلى منظمة الأُستاذ... أعجبني نقاشه.

وقال مخلص :

- إنه قريب من الأُستاذ لكنه مستقل. أراد استدراج أبو الرؤوف ليرينا ما يسمى بالموقف المعتدل. لقد أعجبني حديث أبو الرؤوف.

ووقفا أمام المصعد.

- في أي وقت تقلع الطائرة غداً ؟

- في الثامنة.

- هل أحضر لإيصالك إلى المطار ؟

ووضعت يدها فوق ذراعه، وقالت بصوت خافت :

- لا أرجوك.. سأودعك الآن. هكذا أسهل.

- ومتى سيكون لقاؤنا القادم ؟ بعد سنة ؟ بعد سنتين ؟ بعد ثلاث سنوات ؟

لم تجبه.. عانقته بسرعة وركضت نحو المصعد.

10

كان مخلص واقفاً أمام النافذة يراقب الأشجار وهي تتمايل في الريح العاصفة عندما رنَّ جرس التلفون وسمع زوجته تقول :

- نعم موجود.

وجاءت إليه مسرعة :

- يبدو أن هناك حدثاً هاماً.

أحس بانقباض وهو يرفع سماعة التلفون :

- نعم ؟

كان الدكتور يونس.

- انفجر طرد بريدي في غرفة أكرم. احضر حالاً.

شعر بهدوء غريب يغمره.. كل شيء حوله أصبح ساكناً إلا وقع المطر فوق أرض الشرفة. توقف الزمن وحضر العالم في هذه اللحظة من الصفاء. دائماً الخطر والفراق يجلبان الحضور. أما الأمن والاستقرار فيأتيان بالنوم والغياب.

ورنت في أذنه ضحكة أكرم الخافتة. كانت الفكاهة سلاحه الأكبر في وجه ما عانى من قسوةٍ وآلام.

رأى سيارة فرقة 16 أمام مدخل المكتب، وفي الداخل بعض أفراد الكفاح المسلح. صعد الدرج ركضاً، ولم يوقفه أحد. كان الدكتور يونس جالساً وراء مكتبه يحتسي القهوة وقد بدَا على وجهه القلق والخوف. وعندما رأى مُخلصْ وضع فنجان القهوة على الطاولة وقال بصوت عال مرتجف :

- أرأيت.. هذه نتيجة عدم أخذ الاحتياطات.

- أي احتياطات ؟

- لو سمعتم كلامي لما حدث ما حدث.. من الآن فصاعداً لا يدخل البريد هذا المكتب قبل أن يفحص على الآلة.

- كيف حال أكرم ؟

- لست أدري.. إنه في مستشفى الجامعة.

- كيف وقع الحادث ؟

وأشار الدكتور يونس إلى سكرتيرة أكرم.

ـ كانت في الغرفة عنده حين وقع الانفجار.. جميلة أخبريه ما حدث.

وروت السكرتيرة ما حدث.

كان أكرم يفتح بريده كعادته صباح كل يوم. وكان ضمن البريد طرد كتب عليه مطبوعات وسمعته السكرتيرة يقول : «قرأت هذا الكتاب منذ سنوات». في نفس اللحظة وقع الانفجار. شاهَدَتْهُ يرفع يده اليمنى إلى وجهه ويقع فوق المكتب والدم يسيل من رأسه. ووقعت هي أرضاً من قوة الانفجار، ولكنها لم تصب بأذى. وهرع الدكتور يونس وباقي الموظفين إلى الغرفة، وعندما رأى الدكتور يونس أكرم مضرجاً بالدماء أخذ يصيح : «اضربوا تلفون إلى مستشفى الجامعة.. سيارة إسعاف..».

في قاعة المستشفى، في الطابق التي تقع فيه غرفة أكرم، أخذ مخلص يدفع طريقه نحو الباب المؤدي إلى غرف المرضى. قالت له الممرضة إن أكرم ما زال في غرفة العمليات. وسألها عن حاله، فقالت :

ـ لا نعرف بعد.. هل تريد أن تنتظر هنا ؟

وأشارت إلى كرسي في الغرفة المجاورة. كانت النافذة فيها موصدة والظلمة مخيمة. فجلس يستمع إلى الريح التي كانت ما زالت تعصف في الخارج. تذكر مخيم أكرم عندما كانت تهب عليه العواصف. كانت الخيام تطير من فوق رؤوسنا، فنركض للإمساك بها، ونعود مبللين يكسونا الوحل ونجلس ننتظر طلوع الشمس. سمع ضحكته الخافتة. في الشتاء كنا نموت برداً وفي الصيف نفطس من الحر.. كانت أمي تطبخ على نار الحطب خارج الخيمة.. فتضع ثلاث أحجار وتشعل الأغصان اليابسة وتنفخ فيها حتى تدمع عيناها...

عند الظهر أخرجوه من غرفة العمليات.

قال الطبيب لمخلص :

ـ لقد فقد عينه اليمنى وربما اليسرى أيضاً. وقد شطرت شظية حنجرته، ويده اليمنى قد شلت كلياً.

ـ هل أستطيع رؤيته ؟

كان الطبيب صديقاً لمخلص منذ أيام الدراسة.

ـ لن تستطيع التكلم إليه.

كانت الغرفة غارقة في ظل كثيف يتخلله نور ضئيل ينبثق من المصباح الكهربائي على المائدة بالقرب من الفراش. كان أكرم مضجعاً على ظهره وقد لف وجهه ورقبته بالضماضات البيضاء فلم يظهر من وجهه إلا الفم والانف. اقترب منه مخلص، ينظر إليه بصمت. وأحس بيد الطبيب على كتفه، وخرجا ثانية من الغرفة.

لم يستيقظ أكرم من غيبوبته وتوفي عند المغيب.

الفصل الخامس

الجنُوب

سمع مخلص الخبر في السيارة من إذاعة لندن، وهو في طريقه إلى المكتب.. ثم سمع الخبر ذاته بعد وصوله إلى المكتب من إذاعة فلسطين : مجموعة فدائية دخلت الأرض المحتلة، واصطدمت بدورية إسرائيلية وقتل ثلاثة فدائيين، وانسحب الباقون عبر الحدود.

جلس إلى مكتبه كئيباً. الأخبار المفجعة تتوالى يوماً بعد يوم. إلى متى هذا النزيف.. قام إلى النافذة المطلة على الشارع، وأخذ يراقب سيل المارة والسيارات، وهو شارد الفكر.

وسمع قرعاً خفيفاً على الباب، مدت السكرتيرة رأسها من الباب تقول :

- يوجد شاب يريد مقابلتك. قال إنك تعرفه من الخيام. اسمه سمير.
وتذكره مخلص حالاً.

- دعيه يدخل.

كان سمير يرتدي لباساً خاكياً مجعلكاً كالذي كان يلبسه في مركز الاتصال يوم التقى به لأول مرة. وكان يحمل تحت إبطه محفظة جلدية قديمة. صافحه مخلص ودعاه للجلوس.
وبعد لحظة صمت، قال سمير وكأنه يبحث عن الكلمات :

- هل سمعت الخبر ؟
- أي خبر ؟
- عملية أمس..
- نعم.. نعم.. سمعت الخبر التو.. هل لديك تفاصيل ؟

لم يجب سمير على الفور، وبقي جالساً ينظر إلى الأرض. ثم رفع رأسه وقال بصوتٍ خافت :

ـ كان مفيد قائد المجموعة. استشهد هو وياسر وأبو أحمد.

صعق مخلص.

ـ كيف.. متى حصل ذلك.. ؟

ـ أفراد المجموعة الذين عادوا أعطونا التفاصيل.

ـ ما الذي حصل ؟

ـ وقعت المجموعة في كمين بعد اختراق الشريط الحدودي.

ـ متى ؟

ـ أول أمس أو صباح أمس. كانت المجموعة مؤلفة من خمسة أفراد. اثنان عادوا ليلة أمس.

ـ الإسرائيليون لم يذيعوا الخبر إلا صباح اليوم.

ـ بعد أن تأكدوا أن الباقين قد أفلتوا من أيديهم.

ـ وماذا قال الاثنان الذين عادوا ؟

ـ كان الكمين معداً.. استعملت فيه الآليات. ظلوا يسمعون أصوات النار والانفجارات حوالي ساعتين بعد أن انسحبا.. اختبئا حتى هبوط الظلام، ثم اخترقا الشريط من موقع يعرفانه.

لف مخلص صمت داخلي وهو يستمع إلى سمير. فجأة وصل إلى سمعه أصوات الشارع وأصوات السيارات والبائعين.. كأن راديو قد فتح بأعلى صوته.

مفيد مات.. لم يعد موجوداً. تذكره في الأغوار، ثم لاحت صورته وهو في الخيام بجانب المدفع المضاد للطائرات هو ورفيقيه... كم كان عمره ؟ ثلاثة وثلاثين، أربع وثلاثين ؟ وياسر وأبو أحمد كم عمرهما... وسمع سمير يقول :

ـ ليلة مغادرته سلمني هذه المحفظة، وقال بالحرف الواحد : «سلمها للدكتور مخلص إن صار ما صار...».

وناوله سمير المحفظة.

ـ علي أن أسير الآن، هناك بعض حاجيات تخص مفيد، هل أرسلها إليك ؟ ليس لديه أقرباء أو أصدقاء هنا غيرك.

ـ ارسلها إلي.

فتح مخلص المحفظة، وأفرغ محتوياتها فوق المكتب أمامه. كان هناك غلافين كتب على أحدهما اسمه، وكان الثاني بلا اسم ولا عنوان، ودفتر مدرسي، وبضعة أقلام رصاصية.

فتح الرسالة المرسلة إليه.

أخي العزيز،

عندما تستلم هذه الرسالة أكون أغلب الظن قد «استشهدت»، لا تؤاخذني لاستعمال هذا التعبير، فالكل يستعملونه كيفما كان الموت. أكتب إليك هذه الكلمات قبل أن نغادر في عملية صار لنا مدة طويلة نعد لها. إنْ حدث ما لا يتوقّع، زميلنا سمير سيسلمك هذه الرسالة مع أوراقي، والرسالة المرفقة إلى زوجتي. أما الأوراق الأُخرى، فافعل بها ما تشاء. إنها مجرد خواطر كنت أدوّنها في الخيام في ساعات الأَرق.

إني أكتب هذه السطور فوق سطح البيت الذي زرتنا فيه في الصيف الماضي. أتذكر المكان ؟ كل شيء ساكن الآن، ولا يسمع إلا صوت أزيز صراصير الصيف في شجرة الصنوبر في الحديقة وعواء كلب في الوادي. كنت على وشك أن أمزق هذه الرسالة الآن. سأمزقها على كل حال عندما نعود، ربما لن تراها عيناك، وسأخبرك عن كل ما جرى بنفسي.

مفيد

ونظر مخلص إلى الغلاف الآخر، ووضعه في جيبه، وتناول الدفتر المدرسي وأخذ يقرأ فيه :

الأَربعاء في 10 مارس :

أَخيراً جاء الربيع، العصافير تعلن ذلك، لكن في الليل يعود البرد.

الساعة الآن قد قاربت السابعة. أعرف ذلك من خلال موقع الشمس في الأُفق. إنها فوق رأس الناقورة تماماً. البحر الهادئ يلمع بآلاف البقع الفضية.

لقد وضعنا المدفع المضاد للطائرات في البرج الجنوبي المطل على مركز المراقبة التابع للأمم المتحدة. تمرنا على استعماله حتى أصبحنا قادرين على إطلاقه في مجرى يقارب التسعين درجة. ياسر بالأخص، أصبح خبيراً في تخمين المسافات وتقدير المعدل المناسب لسرعة إطلاق النار. لكن حتى الآن، لم تتح لنا الفرصة لإطلاقه نحو طائرات العدو التي تحلق على علو مرتفع.

مر علينا المسؤول الإداري في المنطقة، في سيارة الروفر، وسألنا إذا كنا نرغب في شيء من بيروت. لم نطلب شيئاً. سنذهب أنا وياسر وأحمد إلى بيروت في عطلتنا الشهرية بعد بضعة أيام.

كان اليوم دور ياسر في إعداد طعام الغداء، وجبتنا الرئيسية، وأعد فصوليا خضراء وأرزاً وسلطة بندورة طازجة. تناولنا الطعام في ظل الخيمة. كان نسيم البحر يصلنا بارداً، إنّه مثل نسيم يافا.

مر اليوم هادئاً، خالياً من أي حادث. لحقت بياسر وأبو أحمد بعد انتهاء مدة حراستي، فوجدتهما يتحدثان مع أفراد من الحزب القومي عند مدخل الحديقة. كان الجميع يدخنون السجائر ويشربون الشاي. إني لا أحب التدخين، لكني دخنت سيجارة معهم.

السبت 13 مارس :

حلّقت اليوم طائرتان فوق مواقعنا. صوّب عليهما ياسر مدفعنا المضاد للطائرات، ولكنه لم يطلق النار لعلوهما. قال أحمد : «متى سنسقط لهم طائرة ؟». وأجابه ياسر : «عمّا قريب. سترى بعينيك».

كلما أثرت موضوع الدولة الفلسطينية، دار نقاش حاد بين المقاتلين. جميعهم، تقريباً، يرفض الفكرة. أرضنا تمتد أمامهم. يرونها صباح مساء. كيف ستقام دولة ليست هذه الأرض جزءاً منها ؟ لماذا نقاتل إذن ؟

إسرائيل، بالنسبة للمقاتلين، شيء غير ثابت. إنها واقع غير حقيقي، بالرغم من طائراتها ومدافعها ودباباتها. عندما ينظرون إلى هذه الأرض يرون الحولة والناقورة وما بعد. إنهم لا يرون إسرائيل، يرون فلسطين فقط. اليهود هنا بصورة مؤقتة، بسبب عطل تاريخي حصل سنة 1948، ولابد أن يصحح.

سألت ياسر مرة :

ـ ما الذي ستفعله لو تأكد لنا يوماً أنه من المستحيل التغلب على إسرائيل ؟

أجاب بعد تفكير قصير :

ـ قد لا نستطيع التغلب عليهم عسكرياً الآن. لكن هذا لا يوقفني لحظة عن قتالهم. سأبقى على قتالهم مادمت حيّاً، لن أدعهم ينسون أنّنا أحياء.

ـ وإذا تمّ التوصل إلى حلّ سلمي ؟

ـ عال.. نعود إلى بيوتنا وقرانا.

وسألته مرة أخرى ونحن نجلس تحت الخيمة، بالقرب من المدفع المضاد للطائرات :

ـ هل تعتقد أنه بالإمكان العيش جنباً إلى جنب مع اليهود ؟

فأجاب دون تردد :

ـ أنا لا أستطيع العيش مع اليهود. ربما الجيل القادم يقدر على ذلك. إنه لا يعرفهم وجهاً لوجه كما عرفناهم.. بعد الذي فعلوه بي، بأبيّ وبأمي.. بجيراننا.. بشعبي النازح والمقيم.. لا أستطيع أن أغفر لهم. إذا عدنا سأتعايش معهم، لكن عن بعد، لا جنباً إلى جنب.

الأحد في 20 مارس :

اليهود على نوعين كما قال إسحاق دويتشر : هناك اليهود اليهود، وهناك اليهود اللايهود (غير اليهود).

لليهودي «اليهودي» نظرة خاصة للعالم وللإنسان، يحتل هو فيها منزلة خاصة، متميزة. في إسرائيل، تغرس هذه النظرة في الأطفال والمجندين الذين هم الهدف الأول لعملية التنفيذ.

من في عالمنا العربي يعرف الكتاب التلمودي المدعو «هيرسونات شاس» المتداول في إسرائيل ؟

يُفرض على كلّ يهودي، عندما يمر بمقبرة، أن يدعو بالبركة على أرواح الموتى إذا كانت المقبرة يهودية. أما إذا كانت المقبرة «جوييم»، غير يهودية، فيتوجب لعن أمهات الموتى...

من من العرب له إلمام بكتاب حركة الـ«هباد»، المسمى «هتافيا»، الكتاب المقدس لدى آلاف اليهود في إسرائيل وخارجها، ومن بينهم أفراد في قيادات الأحزاب الإسرائيلية الدّينية وغير الدينية، وفي قيادة الجيش الإسرائيلي ؟ يقول، هذا الكتاب إن غير اليهودي هو من صنع الشيطان، ليس فيه ذرة خير، وأن وجوده (حياته) غير ضروري، وأن الله خلق العالم من أجل اليهود فقط...

أغرب وأبشع ظاهرة لدى اليهود في إسرائيل شعورهم بأنهم لم يذنبوا بحقنا. إنهم لا يعترفون بأننا طردنا من وطننا وبيوتنا بحد السيف وبالإرهاب اليهودي، عندما لم يكن لدينا القوة الكافية للدفاع عن النفس. إنهم يعترفون بوجود الفلسطينيين كلاجئين فقط. أما كيف أصبحنا لاجئين فأمر يمكن تفسيره بغاية السهولة : لقد غادرنا بلادنا بإرادتنا، طوعاً لا إكراهاً، بالرغم من دعوة اليهود إلينا بالبقاء، وهكذا أصبحنا لاجئين. العرب الآخرون هم المسؤولون.. ويقبل هذا التبرير الأكثرية الساحقة من اليهود...

بنظرهم نحن في فلسطين غرباء، حتى لو أقمنا فيها منذ بدء التاريخ. العربي إذا قورن باليهودي، هو إنسان من نوع آخر، أقل إنسانية. إنه في المنظور الديني - وهو المنظور الطاغي في إسرائيل - وعلى صعيد الشعور الذاتي، «قذارة»، واقتلاعه مما يظنه وطنه، ورميه في الصحراء، أمر يتوجب فعله لحماية الذات ولا يشكل مشكلاً أخلاقياً.

قتل العربي - فردياً وجماعياً - لا يثير السخط أو الشعور بالذنب.. فقط الشعور بالقلق بالنسبة للرأي العام العالمي، وبالنسبة للاعتبارات السياسية العملية. إذا اغتيل عربي، لا تعير السلطة اهتماماً. أما إذا قتل يهودي، فتقوم الدنيا ولا تقعد، إلا عندما يُعثر على الجاني ويُنتقم منه.

إني واثق أنه لولا الرأي العام العالمي لذبحوا من بقي من العرب في إسرائيل منذ زمان، أو رموا بهم عبر النهر. إنّهم يلصقون بنا تهمة «الإرهاب» لأنهم يمارسون الإرهاب ضدنا منذ وطئت أقدامهم أرضنا. إنها نزعة الإسقاط

(Projection) بأوضح معانيها. يا ترى، أكان فرويد يعبر عنها بهذا الشكل لو أتيح له مشاهدة ما حدث ويحدث في فلسطين ؟

كيف يمكن تبرير ضرب اللاجئين بالطائرات والمدافع والزوارق الحربية وبشتى الوسائل إزاء أنفسهم وإزاء الرأي العام العالمي، إذا لم يمارسوا هذا الإسقاط واعتبار ما يقولونه حقيقة موضوعية ؟

إن ياسر يعتبر، عن طيبة قلب، ان «العودة» هي مفتاح «التعايش» ولو «عن بعد». إنه لا يقول إن شرط «العودة» هو «رميهم بالبحر»، وهو لا يدري أن الذي يريد التعايش معهم لا يريدون التعايش معه، مهما كانت الظروف. إنهم يعملون للقضاء عليه، لرمي شعبه في الصحراء، لذبحه إذا سمحت الظروف. لهذا جعلوا الجيش أساس وجودهم. لهذا صنعوا القنبلة الذرية. ساذج من يعتقد أنهم سيقبلون السلام والتعايش. السلام الوحيد الذي يقبلون به هو السلام اليهودي، السلام الذي يفرض بالقوة، ليس فقط في فلسطين، بل على صعيد المنطقة كلها. في الماضي، كان الناس يعتبرون كلاماً كهذا مُبَالغاً فيه : إن إسرائيل لا تريد أكثر من السِّلم.. لم يدرك ياسر بعد، ولم يدرك زملاؤه حقيقة المشروع الصهيوني.

نعم، هناك النوع الآخر من اليهود، اليهود الذين «ليسوا يهوداً». نعم.. التعايش معهم ممكن، حتى التفاهم والتعاون والمحبة المتبادلة. لكنهم قلة في إسرائيل، قلة في العالم، وعددهم يقل مع الأيام في إسرائيل وفي العالم...

ياسر تعلم التدخين فقط منذ نزوله إلى الجنوب. يذكر قول غيفارا : «التدخين متعة المقاتل الوحيدة». وهو يدخن حوالي 40 سيجارة في اليوم.

كثيراً ما يطلب إلي ياسر وأحمد، عندما نجلس بعد الغداء وندخن في ظل شجرة البلوط العالية، بالقرب من مدفعنا، أو في المساء على سطح البيت الذي نقيم به، أن أحدثه عن إسرائيل والصهيونية. أحياناً لا يصدقان ما أروي لهما.. أقول لهما أن العرب لا يعرفون عدوهم، وما يعرفونه عنه هو مجرد تخيلات وأوهام لا تمت إلى الواقع بصلة. (لايحرق قلبي مثل سماع امرأة فلسطينية تسترحم جندياً إسرائيليا أثناء زيارتها لابنها في السجن، أو على حاجز بعد إلقاء قنبلة، أو على الجسر في طريق العودة إلى البيت والأهل : «أبُوس ايدك يا خواجة... منشان الله يا خواجة... الله يخلي شبابك يا خواجة...»).

رويت لهما أمس حادثة نقلتها الصحف العبرية عن امرأة يهودية جاءت من روسيا وأقامت في بيت في القدس صادرته الدولة من عائلة عربية بعد أن أجبرت العائلة إلى الانتقال إلى بيت قديم مجاور. مع الأيام تعرفت العائلة على السيدة اليهودية، ونشأت بينهم علاقة جيدة. وكانت العائلة العربية تضم بين أفرادها أربعة أطفال صغار، تتراوح أعمارهم بين الثالثة والحادية عشر. وكانت السيدة اليهودية تزور العائلة العربية وتلعب مع الأولاد. ويوماً، جاءت إلى بيت جيرانها، وكان الأب ما زال في عمله، والوالدة متغيبة عن المنزل، وأعطت الأولاد بعض السكاكر، تبين فيما بعد أنها مسممة. نجا الأطفال من الموت بمجرد الصدفة، فقد منعتهم أختهم الكبرى من تناولها قبل العشاء. وعندما ذاقت الأخت السكاكر أخذت تتقيأ، واكتشفت محاولة التسميم. حقق مع السيدة اليهودية واتضح أن عملها كان مقصوداً وليس عن خبل، كما ذكرت الصحف. وقالت للمحققين : «يجب أن نتخلص من العرب بأية وسيلة».

ورويت لهما حادثة أخرى وردت في صحيفة أخرى وقعت في النقب. جاء الجنود الإسرائيليون ليطردوا جماعة من بدو النقب صودرت أراضيهم. ولم يكن في القرية إلا النساء والأطفال، فالرجال كانوا غائبين في المراعي. أو في عملهم في بئر السبع. وأجبر الجنود النساء والأطفال على الصعود إلى السيارات الشاحنة. وفي إحدى الشاحنات، لسبب ما، أطلق أحد الجنود النار على امرأة تحمل طفلها بين يديها فقتلت على الفور، وحقق مع الجندي، وصدر حكم المحكمة بسجنه 38 يوماً، أي مدة توقيفه، وخرج حراً.

الحقيقة أن ما حصل ويحصل للعرب في فلسطين، ليس خافياً على أحد. غير أنه في الغرب ما يحصل للفلسطينيين ليس أمراً في غاية الأهمية، وهو ليس بنفس الأهمية لما يحصل لليهود. فالفلسطينيون شيء، واليهود شيء آخر. إنّ المنظار الذي تقاس من خلاله الأمور، هو «وجود إسرائيل» و«أمن إسرائيل» أما وجودنا فلا قيمة له وقد نسف من جذوره. ولن نعيد تثبيته إلا بقوة سواعدنا، وبرفض الواقع الذي يحاولون فرضه علينا.

الإثنين في 4 أبريل

نزلنا أمس إلى صيدا عن طريق جزين. صيدا تذكرني بعكا، وبخاصة المرفا والبلدة القديمة، رائحة البحر، والهواء المالح الرطب. جلسنا في مقهى البلدة، وطلبنا سفن أب. وعلى صخرة أمام المقهى، جلس شاب يصطاد سمك البوري الصغير. منذ وصولنا لم يصطد سمكة واحدة، مع أن البحر كان عالياً، والمياه عكرة، كما يجب أن تكون، والريح تهب بالسرعة المناسبة. إنه لا يعرف كيف «يعلف»، والطعم في السنارة كبير، يلعقه السمك بدل أن يبلعه. كدت أقوم إليه وأعلمه صيد البوري، كما كنا نصطاده في عكا.

ذهبنا إلى مطعم صغير داخل المرفا، يعرفه ياسر، وطلبنا لحماً مشوياً. تناولنا الغداء في شرفة صغيرة مطلة على المرفإ... كان هواء الظهيرة يهب ناعماً، وعن بعد، خلف القلعة، رأيت مركباً شراعياً يقترب نحو المرفا والريح تملأ شراعيه. خيل إلي أني أسمع صوتاً يناديني. التفت ورأيت الأولاد على الشاطئ يركضون وينادون بعضهم بعضاً كما كنا نفعل عندما كنا في سنهم...

كلما شاهدت الجامع الفخم، الذي شيّده «محسن كبير» على مدخل مخيم عين الحلوة، تساءلت في نفسي عن الدوافع التي جعلت هذا المحسن يختار بناء مسجد بدلاً من مدرسة أو مصحّة.

قال ياسر، وكأنه يقرأ ما يدور في ذهني :

ـ الأغنياء يحاولون رشوة الله بالإحسان.

الثلاثاء في 5 أبريل

استشهد يوم أمس ثلاثة من مقاتلينا. في عصر اليوم السابق كانوا معنا في حديقة الدار يشربون الشاي. وقع الحادث رأساً بعد اختراقهم الشريط الحدودي. كان أكبرهم في العشرين من عمره، من ترشيحا، والآخران أحدهما في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من الكابري، والثالث في السابعة عشرة من حيفا. جميعهم ولدوا وترعرعوا في مخيم عين الحلوة. كانت هذه أول مرة تطأ فيها أقدامهم أرض فلسطين...

رافق ياسر المجموعة في الروفر إلى قرب المكان الذي عبروا منه.

غادروا إبل السقي في الساعة السابعة، وساروا ما تبقى من الطريق على الأقدام. قدروا أن قص الأسلاك يحتاج إلى حوالي الأربع ساعات، وأن العبور سيكون في الثانية صباحاً، مما يعطيهم الوقت الكافي للابتعاد عن الحدود والاختباء قبل طلوع الشمس.

جلسنا أنا وأحمد ننتظر عودة ياسر. وفي الساعة التاسعة سمعنا محرك الروفر عند مدخل البلدة.

قال ياسر، بعد أن صعدنا إلى السطح وجلسنا على الكراسي الخشبية الصغيرة بالقرب من المدخل:

ـ كانوا يقطعون الأسلاك عندما تركتهم. كان كل شيء هادئاً...

أحياناً يستغرق قطع الأسلاك ساعة واحدة، وأحياناً أربع أو خمس ساعات. كان علينا أن ننتظر حتى الساعة الثانية على الأقل، لنطمئن أنهم عبروا. العبور أصبح صعباً، يحتاج إلى صبر ومعرفة. الخطر الأكبر هو الدوريات. إذا اكتشفت المجموعة على الشريط، يصعب عليها الانسحاب أو العبور، ويصبح وضعها في غاية الخطورة. إذا سمعنا صوت إطلاق النار، قبل الساعة الثانية، فيعني ذلك أن المجموعة قد اكتشف أمرها قبل أن تعبر...

في الساعة الثانية لم نسمع صوت إطلاق نار أو انفجارات. لقد عبروا. نزلنا إلى الغرفة وتمددت على فراشي أحاول النوم... خلال لحظات كان ياسر وأحمد يغطان في النوم. بعد قليل صعدت إلى السطح ثانية. كانت ظلمة زرقاء تخيم على كل شيء. إنهم الآن في فلسطين... يعبرون إلى فلسطين كأنهم ذاهبون إلى عرس... بعد ذلك نرى وجوههم الطافحة بشراً في الصور الملصقة على الحيطان في شوارع بيروت.

الأربعاء في 13 أبريل

صباح اليوم حلقت فوقنا مرة ثانية طائرتان على ارتفاع كبير. وبعد الظهر أغارت طائرات على مخيم الرشيدية ومنطقة الفريدس، وقصفت المدافع الإسرائيلية النبطية، ومنطقة حاصبيا، ووقعت عدة قنابل على الخيام وإبل السقي، واشتعلت النيران في بعض الحقول.

أصبح الخراب يمتد إلى أقصى قرى الجنوب. هذا ما فعلوه في اربد والسلط وغور الأردن. إنهم يريدون إفراغ القرى من سكانها ومنع الأهالي من تقديم العون للمقاتلين. أعداد اللاجئين تزداد يوماً بعد يوم. صيدا وصور، تعجان باللاجئين وليس هناك من يهتم بأمرهم. إنهم في نفس الحالة التي كان فيها اللاجئون الفلسطينيون منذ أكثر من ربع قرن...

في فيتنام الجنود الأمريكيون يجدون تسلية بإطلاق النار على المزارعين من طائرات الهلوكوبتر، ويقصفون القرى الفيتنامية بواسطة قاذفات القنابل ب 52 ويرشون المزارع والأحراش بالأدوية السامة. وبالرغم من كل هذا فقد استمر الفيتناميون في القتال. وفي آخر الأمر انتصروا على عدوهم وطردوه من بلادهم بالقوة.

يهاجمنا الإسرائيليون، تماماً كما كان يهاجم المارينز الأمريكيون الفيتناميين. يأتون جواً بواسطة الطائرات والهلوكوبتر، وبرّاً بواسطة حاملات الجنود المدرعة والدبابات، ويطوقون منطقة ويقتلون ويدمرون، ويعودون من حيث أتوا : «التفتيش والتدمير».

نحن بالنسبة لليهود كالفلاح الفيتنامي بالنسبة للغزاة الأمريكيين، دونهم في المرتبة الإنسانية، لا ينجع فينا إلا القوة والنار.

وبعد غارة أمس مررنا بعائلة قروية، مؤلفة من ثمانية أفراد، بينهم طفلان وامرأة عجوز، جالسين على قارعة الطريق في حالة من الذعر والذهول. سألناهم من أين أتوا، فأشارت العجوز بيدها جنوباً، وسألنا الرجل الهرم إلى أين هم ذاهبون. فلم يجب... أعطيناهم ما كان معنا من طعام.

أصبح اللبنانيون لاجئين، نعطيهم الطعام والماء. هل نسينا ما معنى أن يكون الإنسان لاجئاً ؟ هل نسينا مرورنا بهذه القرى منذ أكثر من عشرين عاماً عندما كانت الحياة تساوي لقمة عيش وشربة ماء ؟

ليست التجاوزات وحدها هي سبب التباعد بيننا وبين القرويين، فالتجاوزات يمكن إحاطتها والتغلب عليها. إنه الاقتلاع الذي يخلق هذه الهوة. اليهود يعرفون ذلك ويستمرون في تخريب الجنوب.

الخميس في 21 أبريل

كان الجو صافياً، والهواء بارداً عليلاً. من موقعنا كنا نرى الطريق المؤدية إلى رأس الناقورة. وكان لا يعكر السكون إلا صوت العصافير وأزيز الصراصير في شجرة الصنوبر الهرمة في منتصف الساحة.

كان ياسر يتكئ إلى الحائط المنخفض أمام مدفعنا الصغير. لم أره منذ ثلاثة أيام. كان غائباً في بيروت لحضور ندوة اشترك فيها وفد من الأساتذة الفلسطينيين الجامعيين الآتين من الولايات المتحدة. أخبرني أن وجهة النظر الغالبة في الندوة كانت في صالح المبادرة السياسية. وقال أحد الأساتذة إن النشاط العسكري بحد ذاته لا يمكن أن يوصل إلى نتيجة حاسمة في هذه المرحلة، وليس أحب إلى الإسرائيليين من أن يقتصر العمل الفلسطيني على الكفاح المسلح.

وقال ياسر :

ـ لنفترض أننا قبلنا بهذا المنطق، واعتمدنا الأسلوب السياسي، فما الذي ستقدمه إسرائيل، دولة في الضفة وغزة ؟ وهل مجرد إعلان قبولنا هذا الحل سيجعل الصهاينة يقبلون به ؟

وأشعل سيجارة، ثمّ قال :

ـ قال أحدهم إنه يجب ممارسة الصراع السياسي حتى لو رفضت إسرائيل ما نطرحه عليها. فالهدف هو تكبيد إسرائيل خسائر سياسية ومعنوية في الغرب، وبخاصة في أمريكا، وأنه باستطاعتنا تكبيدها بهذا الأسلوب خسائر أكبر وأفدح من خسائرها الناتجة عن أعمالنا العسكرية.

وعندما سألته إذا كان يرى في هذا القول بعض المنطق قال :

ـ ربما، فيما يتعلق بالتأثير على موقع إسرائيل في الولايات المتحدة. يقول الإخوان القادمون من أمريكا إن هناك بداية تحول في الرأي العام الأمريكي، وأن هناك قلقاً في الأوساط اليهودية الأمريكية بسبب هذا التحول. لكن كيف يترجم هذا إلى نتائج سياسية محسوسة ؟ هل نقصت المساعدات الأمريكية لإسرائيل ؟ هل مورس الضغط الأمريكي على إسرائيل ؟ بالعكس، لقد

ازدادت المساعدات ولم تمارس أية ضغوط. يقولون إن الإسرائيليين يتمنون أن يتعمق العداء بين العرب المعتدلين والولايات المتحدة لكي تصبح إسرائيل الحليف الأكبر والوحيد لأمريكا في الشرق الأوسط. على رأسي. لكننا نرى أنه كلما ازداد العرب اعتدالاً، ازداد دعم الولايات المتحدة لإسرائيل وازداد احتقارها للعرب وعدم اكتراثها بهم.

ـ إذن في رأيك ليس هناك إلا الاستمرار في النشاط العسكري.

ـ كل ما أقوله، هو أننا إذا كنا أقوياء وقادرين عسكرياً، يمكننا أن نعمل سياسياً. هذا أمر واضح للجميع. إن العمل السياسي بلا قوة عسكرية ناجعة، مجرد استجداء، والاستجداء لم يوصل يوماً إلى تحقيق الأهداف القومية.

ـ ما العمل إذن ؟

ـ يجب أن نكون واضحين حول نقطة أساسية وهي أن الديبلوماسية وحدها لا تستطيع تحقيق ما لم نقدر على تحقيقه عن طريق الكفاح المسلح. إن محاولة تحقيق هذه الأهداف عن طريق الديبلوماسية بسبب عجزنا عن تحقيقها عسكريا سيؤدي إلى خسائر أفدح مما تكبدنا حتى الآن. لو قبلنا بالمعادلة المطروحة، أي بقبول الوجود الإسرائيلي والتخلي عن الكفاح المسلح، مقابل إقامة الدولة في الضفة والقطاع، فما الذي نستطيع تحقيقه فعلاً عندما ندخل في المفاوضات ؟ إسرائيل ترفض المعادلة المطروحة علناً، وهي مستمرة في استيطان الأرض، وكل ما تقدمه لنا مقابل تنازلاتنا لا يصل إلى الحد الأدنى من مطالبنا القومية. برأيي، أن ما يطلب منا باسم الديبلوماسية، هو بالفعل، الاستسلام للشروط الإسرائيلية. إسرائيل تغلّبت علينا في الحرب، والعرب لا يريدون حرباً أخرى، والولايات المتحدة تريد استسلامنا على الشروط التي تقدمها إسرائيل. سؤالي هو، هل مصيرنا أن نستسلم، وهل هذا أفضل من رفضنا للحل السياسي المطروح ؟

لم يتوقع ياسر مني جواباً، أو بدا وكأنه لا يتوقع جواباً. فجلسنا صامتين. إني أعرف العدو الصهيوني أكثر مما يعرفه هو، هو يعرفه بالحدس فقط. لو كان باستطاعة الصهاينة نزع الجلد عن ظهرنا، لنزعوه. لكن بالرغم من هذا، لو تمكن العرب من الاتفاق على سياسة موحدة، لاستطاعوا بالفعل تكبيد إسرائيل خسائر فادحة، يكون لها أثر أعمق مما تصوره ياسر. فالواقع هو أن الورقة الرابحة في

هذه المرحلة ليست ورقة القوة العسكرية، بل ورقة الإمكانيات السياسية والاقتصادية، وهي ورقة يتوجب لعبها الآن، لا عندما نحصل على القوة العسكرية الكافية لجعل موازين القوى لصالحنا وهذا يستغرق زمناً. إنما ياسر على حق حول مشروع الدولة وعدم إمكانية تحقيقه من خلال المفاوضات. فبدون إيجاد وسيلة لفرض الانسحاب وإخلاء المستعمرات التي أقيمت في الضفة وغزة والجولان لا يمكن للحل المطروح أن يحقق عملياً. لست أدري إن كان قبولنا المشروط بالتسوية الجزئية قد عطّل فعلا إمكانية العودة إلى المواقف الأساسية... لست أدري إن كنّا قد وصلنا بالفعل إلى الطريق المسدود، أو إذا كان بإمكان العرب لعب ورقتهم الرابحة واجتياز هذه المرحلة الخطرة التي نحن فيها.

الثلاثاء في 10 أغسطس

منذ أسبوعين، مررنا بمخيم النبطية، ولفت نظري موقع المدرسة : على رأس تل يطلُّ على البحر، ولا يوجد حولها ما يخفف من حدة بروزها. هدف مثالي لأية طائرة مغيرة من جهة البحر.

واليوم، رأينا الطائرات الإسرائيلية تغير على مخيم النبطية، وتنقض من جهة البحر. ومن حسن طالع اللاجئين، اليوم عطلة، فلم يصب إلا الحارس وامرأة كانت تنظف غرفة الدراسة. أما في المخيم، فقد كانت الخسائر مرتفعة لعدم وجود ملاجئ : قتل وجرح عشرون شخصاً، معظمهم من النساء والأطفال، وامرأة أصيبت بشظية في رأسها وفقدت بصرها.

شاهدنا الغارة من موقعنا المرتفع. كانت طائرات السكاي هوك الثلاث تأتي على علو منخفض، ثمّ ترتفع سريعاً بعد إلقاء قنابلها الواحدة تلو الأخرى، ونرى الانفجارات قبل أن يصلنا صوتها. قيل إن إحدى الطائرات أُصيبت بنيران المدفعية المضادة، وشوهدت تعبر الحدود على علو منخفض والدخان يتصاعد منها. لكن لا يمكن التأكد من صحة هذا الخبر، فكثيراً ما تبدو الطائرات النفاثة حين تبتعد وكأنما أصيبت بسبب الدخان الذي يتصاعد من محركها. لقد رأينا

الطائرات الثلاث تتجه نحو الجنوب، وتغيب عن النظر، اثنتان فوق رأس الناقورة والأخرى باتجاه طبريا، ولم يسقط أي منها.

بعد انتهاء الغارة جلس ياسر صامتاً، ثم قام وسار باتجاه مدخل الساحة، وتوقف قليلاً كأنه يتردد في اختيار الاتجاه الذي يريده، ثم رأيته يسير في الطريق المؤدّية إلى خارج البلدة باتجاه الجنوب، وغاب ساعة وعاد على نفس الطريق.

جلس في مكانه قرب الحائط.

ـ متى سنسقط لهم طائرة. طائرة واحدة ؟

قالها بهدوء خال من الغضب. هذا هو السؤال الذي يسأله أبو أحمد دائماً.

لم أجب. لست أدري متى سنسقط لهم طائرة، لكني أعرف أن ذلك سيحدث يوماً. إنهم الآن ينعمون بتفوقهم. لكن عندما تنعدم الثغرة التي تفصلنا، ماذا يا ترى سيفعلون ؟ أم يظنون أنهم باقون على تفوقهم إلى الأبد ؟

قال لي ياسر منذ بضعة أيام في طريق عودتنا من دورية استطلاع خارج البلدة :

ـ أتدري... لا يهمني أن أرى يوم التحرير. ربما أكون قد متُّ قبل مجيء ذلك اليوم. كل ما أطلبه هو رؤية أحدهم يخرج من دبابة رافعاً يديه إلى أعلى...

الأربعاء في 28 أغسطس

سألت ياسر عما يريد أن يفعله بعد الحرب :

ـ أظن أني سأموت قبل أن تنتهي.

ـ أعرف، كلنا سنموت. لكن على فرض أنك لم تمت، ماذا ستفعل ؟

ـ لا أستطيع رؤية ما هو أبعد من هذا الأفق...

ـ أي أفق ؟

ـ هذا الذي تراه أمامك... كل شيء خارجه هو وهم وخيال...

الجمعة في 12 سبتمبر

توفت أول أمس جدة ياسر... كان يحبها حباً عميقاً. حدثني عنها بعد عودته من بيروت حيث تمّ دفنها. كان لها من العمر 81 سنة. قبل اللجوء، لم تعرف من العالم سوى بلدتها ترشيحا. تزوجت وهي في الرابعة عشرة من عمرها. سنة 48 لجأت هي وجميع أفراد عائلتها إلى بيروت ما عدا ابنها الكبير الذي بقي هو وعائلته في ترشيحا. ونسف اليهود الدار فوق رأس ابنها وعائلته لأنهم رفضوا الخروج عنها. عندما سمعت الخبر أخذت تبكي وتنوح : «من سيواريهم التراب... كيف يتركون في العراء...».

وفجأة اختفت جدة ياسر من البيت. خرجت ولم تعد. فتّشوا عنها، ولم يجدوها. قال أحدهم إنه رآها تسير في الشارع العام. وبعد ثلاثة أسابيع عادت إلى البيت.

ذهبت إلى ترشيحا، وحدها، سيراً على الأقدام. من بيروت إلى صيدا إلى صور، ثمّ عبرت الحدود. في ترشيحا وجدت بيتها ما زال قائماً، تسكنه عائلة يهودية كانت في الماضي تسكن بيتاً صغيراً بالقرب منهم. صعدت الدرج وقرعت الباب، ولكن جيرانها القدامى أبوا أن يتعرفوا عليها وطردوها. نامت تلك الليلة في العراء خارج البلدة، وفي اليوم التالي، ذهبت إلى دار ابنها وأخذت تفتش بين الأنقاض عن جثة ابنها إلى أن وجدتها، وحفرت قبراً بمساعدة رجل مسن بقي في البلدة، ووارته التراب. وفي اليوم التالي عادت تفتش عن زوجته وأطفالهما. وشاهدتها دورية إسرائيلية تبحث بين الأنقاض، فأخذتها ورمت بها عند الحدود اللبنانية بالقرب من رميش. وعادت سيراً على الأقدام إلى بيروت. كانت تنام على حافة الطريق وتأكل ما تحصل عليه من خضار أو فاكهة في البساتين.

وبعد أسبوع عادت إلى ترشيحا مرة أخرى، وبنفس الطريقة. وتمكنت من العثور على جثة امرأة ابنها وأحد الأطفال، وواراتهما الثرى بالقرب من ابنها. واعتقلها الإسرائيليون مرة أخرى، ووضعوها في سيارة وألقوا بها هذه المرة في غور الأردن، بالقرب من بيسان. فسارت إلى اربد ثمّ إلى الحدود الأردنية

السورية ثمّ إلى دمشق، ومن دمشق سارت بمحاذاة الطريق العام إلى أن وصلت إلى بيروت، واستغرقت رحلتها ثلاثة أسابيع.

قال ياسر، إنها كانت الوحيدة بين أفراد العائلة التي فرحت عندما انضم إلى المقاتلين. قالت له أمام والديه : «شو صار لو مت. ما كلنا عم نموت». كان لديها كره عميق لليهود. لم تكن تكرههم قبل الـ 48. «شو عملنا لهم حتى يعملوا فينا اللي عملوه ؟ حتى الميتين ما خلونا نقبرهم. أنجاس ولاد كلب، ما في بقلبهم رحمة».

حياتها توقفت بعد الـ 48 كما توقفت حياة كل من كان فوق الأربعين. لم يكن يحييها إلا فكرة العودة. بادئ الأمر لم تصدق أن اليهود قد احتلوا البلاد، وأنهم أقاموا فيها دولة. وعندما أيقنت أن الجيوش العربية لن تعيد الحق إلى أصحابه، أصبح لديها حل وحيد، الثورة. وعندما قامت الثورة، فتحت لها قلبها وبيتها في برج البراجنة، الذي ملأه الفدائيون ليل نهار. كانت تطبخ لهم وتخدمهم بكل ما أوتيت من قوة. وتمّ فرحها عندما انضم ياسر، حفيدها المفضل، إلى الفدائيين.

في المرحلة الأخيرة من حياتها، بقيت على قوتها ووضوح ذهنها، إلى أن أصابتها سكتة دماغية فأفقدتها الوعي لأربعة أيام. واستيقظت من غيبوبتها نصف ساعة قبل أن تموت. لم تدرك أنها في بيروت. وأخذت تسأل عن أشخاص لم ترهم منذ 48، وتستفسر عن الزرع والمحاصيل، وفارقت الحياة وهي تظن أنها في بيتها في ترشيحا...

السبت في 27 سبتمبر

عندما أخبرني ياسر عن وفاة جدته لم أخبره عن وفاة والدتي. كان موتها راحة لها وحرية لي. في فلسطين كانت معلمة في مدرسة ثانوية للبنات. كانت لها سمعة واسعة لوطنيتها. اشتغلت بالتنظيم النسائي وكانت من الأوائل اللواتي نزلن إلى الشارع وسرن في المظاهرات ضد الإنكَليز.

أصابها المرض في الستينات، ولم أستطع زيارتها قدر ما كنت أتمنى. آخر مرة زرتها في بيروت كانت قبل أحداث 1970، في شقتها الصغيرة في محلة

المزرعة. كان عندها بنت صغيرة تقوم بخدمتها وكان الجيران يزورونها بين الوقت والآخر. عندما رأتني بكت من الفرح. كم تغيرت... شعرها أصبح شائباً، هزلت وتهدلت وجنتاها، وانطفأ النور في عينيها. قعدت في فراشها وأجلستني على طرف الفراش. أذكر كلماتها جيداً. كانت تدرك أنها على وشك الموت.

ـ لا أشعر بألم... لست خائفة... ذهب الخوف وذهب القلق. ياريت كنت أعرف أنه ما في فائدة من الخوف والقلق. إنهما لا يغيران شيئاً في الحياة.. فقط ينغصانها ويعكرانها. لم يعد في فكري شيء إلا ما حدث لشعبنا. كل هذا العذاب... كنت أحلم بالعودة وباليوم الذي سنحاسب فيه الذين كانوا سبب عذابنا... كيف يكون الإنسان بلا أرض، بلا وطن ؟

الخميس في 8 أكتوبر

بجانب الطريق المؤدية من سوق الغرب إلى شملان، في موقع جميل يطل على بيروت والبحر، يقع «بيت إسعاد الطفولة» مدرسة أطفال الشهداء. في فصلي الربيع والصيف تعقد في «بيت إسعاد الطفولة» ندوات دراسية يشترك فيها المدرسون والمثقفون والأساتذة وأفراد من الكوادر المختلفة في الثورة. ومنذ بضعة أيام دعينا للاشتراك في إحدى هذه الندوات. وأود أن أسجل هنا تحليلي للأطروحة التي عالجناها في الندوة.

تتناول هذه الأطروحة مشكلة النظرية والتطبيق (الممارسة). إنني من جهة لا أستطيع وضع تصور واضح للنظرية الثورية التي يمكن اعتمادها لتفهم واقعنا الاجتماعي والعلاقات القائمة فيه. من ناحية أخرى أجد صعوبة في تحديد المقولات الجدلية التي تربط التحليل النظري بالممارسة وبالتنفيذ العملي.

هناك حقيقة أولية نجابهها في كل الندوات التي نقيمها، وهي أن المستوى الثقافي لدى معظم كوادرنا منخفض إلى درجة بحيث تصبح معالجة القضايا النظرية مجرد تجريدات فكرية لا علاقة لها بالمشاكل العملية، فيصبح النشاط الفكري معزولاً عن الممارسة، وتصبح النصوص النظرية مجرد شعارات وتعابير إنشائية، مما يزيد في خلل الممارسة وخلل التخطيط والتنظيم والتنفيذ ومما

يقوي الاعتماد على الأساليب التقليدية التي لا تنسجم مع طبيعة الثورة والعمل الثوري. وهكذا نعيش على مستويين، مستوى «الثورة» ومستوى الوضع القائم، مستوى الكلام ومستوى العمل، وليس هناك علاقة حقيقية بعد بين المستويين.

عندما يقول ياسر ـ كما يفعل كلما خرجنا من إحدى هذه الندوات ـ لقد شبعنا نظريات، إنه لا يرفض التحليل النظري، بل يعبّر عن إحساسه باليأس الناتج عن التجريد وغياب الفهم الصحيح.

من الواضح أننا لن نتمكن من تثبيت النظرية الثورية ما لم تتعمق فينا مفاهيم الثورة وممارساتها الحقيقية. فالثورة، كما قال لينين، لا يمكن أن تنهض دون نظرية ثورية حقيقية. لهذا لا بد من التوصل إلى النظرية الثورية أو لامتلاك المفاهيم والأساليب التي من خلالها يمكننا إرساء النظرية في تجربتنا الواقعية.

الخميس في 15 أكتوبر

أثناء وجودنا في «دار إسعاد الطفولة» قمنا بتفقد المدرسة، فوجدناها في حالة يرثى لها. لو كان قصد القائمين على المدرسة هو إتعاس أطفال الشهداء لا إسعادهم، لَمَا نجحوا في تحقيق ذلك أكثر من نجاحهم في «دار إسعاد الطفولة». اكتشفنا هذا الوضع لدى نزولنا إلى الطابق الأسفل من البناية لمشاهدة الأطفال في فترة اللعب والاستراحة. كان هناك ما يقرب من الخمسين طفلاً وطفلة، بين الثالثة والثانية عشرة من العمر، في قاعة كبيرة خالية من الأثاث، يجلسون على الأرض أو يركضون هنا وهناك. لفت نظري أنه لم يكن في أيديهم أي نوع من أنواع اللعب. عندما دخلنا القاعة، توقفوا وأخذوا ينظرون إلينا. ثم اقترب بعضهم نحونا، وقال طفل هزيل أصفر البشرة، في الخامسة أو السادسة من عمره : «مرحباً عمو». وتشجع الآخرون وأخذوا يرددون : «مرحباً عمو»، ودقّ الجرس في تلك اللحظة، فهرع الجميع إلى منتصف القاعة، ووقفوا صفاً واحداً، ثم خرجوا من القاعة الواحد تلو الآخر، تتبعهم إحدى المعلمات.

طلبنا مقابلة مدير المدرسة، فقيل لنا إنه موجود في دمشق. وكررنا طلبنا في اليوم التالي، فقادنا أحد المعلمين إلى غرفة فخمة تقع في الطابق الموازي

للشارع. كان المدير جالساً وراء مكتب ضخم، يتكلم بالهاتف وعندما دخلنا وضع التلفون جانباً بحركة مسرحية، وقام يصافحنا ببشاشة مشيراً إلينا بالجلوس على المقاعد الجلدية الوثيرة أمام مكتبه. كان شكل المدير ملفتا للنظر، فقد كان ضخم الرأس، أبيض الشعر، كبير العينين، قصير القامة، ذا صوت أشج. وبالحال، أخذ يحدثنا في مواضيع مختلفة دون أن يفسح لنا مجالاً للكلام، إلى أن قاطعه ياسر قائلاً :

- لو سمحت، لدي سؤال.

فتوقف المدير عن الكلام، ونظر إلى ياسر بشيء من الاستغراب وقال :

- تفضل.

- لماذا لا توجد ألعاب في أيدي الأطفال ؟

- ألعاب ؟ من أخبرك أنه لا توجد ألعاب ؟

- زرنا قاعة اللعب، ولم نر أي نوع من أنواع اللعب. لم نر كرة واحدة.

فنظر المدير إلى ياسر بامتعاض، وقال :

- الألعاب كثيرة، ولكننا نحتفظ بها في مكان أمين.

- وما فائدة الألعاب إذا لم يستمتع بها الأطفال ؟

فصمت المدير لحظة، ثم قال، وابتسامة هزيلة تعلو شفتيه :

- لو وضعناها بين أيديهم، لكسّروها في يوم واحد.

وبدَا واضحاً أن المدير لا يريد الاستمرار في الحديث عن الألعاب، فسألته إذا كان بإمكاننا مقابلة بعض المعلمين والمعلمات.

- لماذا ؟ ماذا تريدون من المعلمين والمعلمات ؟

- لنستفهم منهم عن المدرسة وأساليب التعليم وما شابه... هل هناك من مانع ؟

فتجهم وجه المدير وقال :

- إنهم مشغولون، ولا نستطيع أن نلهيهم عن عملهم بالمقابلات.

وهبّ واقفاً، وانتهت المقابلة.

بعد الغداء، قبل أن تبدأ دروس بعد الظهر، صعدنا أنا وياسر إلى الطابق الذي تقع فيه غرفة المعلمات دون أن نخبر أحدا، وقرعنا باب إحدى الغرف ففتحت لنا فتاة في العشرين من عمرها، وكانت إحدى المعلمات. وعندما أخبرناها من

نحن وما نريد، رحّبت بنا ودعتنا إلى الجلوس معها في القاعة المجاورة. وسرعان ما تبين من أجوبتها أن الوضع في المدرسة أسوأ مما توقعنا. لم يكن هناك بين المعلمين والمعلمات مختصون أو مُختصات بتربية الأطفال، ومعظم التعيينات كانت بالواسطة، بما في ذلك تعيين المدير. وكان أسلوب معاملة الأطفال شديد القسوة بسبب جهل المعلمين والمعلمات بسبب التنافس فيما بينهم وبسبب الخوف من المدير. وكان الأطفال يدفعون الثمن. ووصفت المعلمة الحالات المرضية التي يعاني منها الأطفال، والشعور لديهم بالضعة والامتهان واحتقار الذات.

وقال ياسر بغضب :

ـ ولماذا لا ينقل هذا الكلام إلى المسؤولين ؟

ـ المسؤولون يعرفون كل هذا، جميع أعضاء مجلس الإدارة يعرفونه. جاءت لجان وذهبت لجان، وحتى الآن لم يحصل شيء ولم يتغير شيء...

وفجأة علا صوت موسيقى عسكرية في القاعة الخارجية.

ـ ما هذا..؟

ـ انتهت فرصة القيلولة.

ـ ولماذا هذه الموسيقى ؟

ـ المدير يصر على استعمال الموسيقى العسكرية في كل المناسبات. حتى في الصباح عند إيقاظ الأطفال. بنظره ترسخ الروح الثورية في الأطفال... وهي تعجب الزوار الذين يأتون لرؤية أبناء الشهداء...

في طريق العودة من المؤتمر، قال ياسر، وهو ينظر إلى البحر من نافذة السيارة :

ـ إذا كانت مدرسة الشهداء هكذا، فكيف ستكون الدولة عندما نقيمها ؟

الإثنين في 16 نوفمبر

أمضينا نهاراً كاملاً في بيروت، زرنا خلاله عدة مكاتب، واجتمعنا بعدد من المسؤولين. كان الحرس أمام المكاتب يسألوننا أحياناً عن هويتنا وعن هدف

زيارتنا، وأحياناً كنا ندخل دون أن يوقفنا أحد. كانت المصاعد الصغيرة ملأى بالزائرين، تحمل أكثر من الثقل المسموح به، وتصعد ببطء. وكانت الممرات معتمة وقذرة، والأرض مكسوة بالأوراق والجرائد.

وعندما انتهت زيارتنا الأولى، قال ياسر وكأنه يحدث نفسه :

ـ البيروقراطية والثورة، أي منهما سينتصر ؟

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة، توقفنا لشراء بعض الكتب من مكتبة «الطليعة» بالقرب من جامعة بيروت العربية. لم يكن في المكتبة إلا شاب كانَ جالساً وراء طاولة صغيرة في ركن مظلم. وسأله ياسر :

ـ هل يوجد لديكم كتاب مقدمات في دراسة المجتمع العربي ؟

ـ تعني مقدمات لدراسة المجتمع العربي ؟

ـ بالضبط.

ـ نفذ عندنا لكن قد تجده في المكتبة هناك... وأشار بيده إلى الشارع المقابل المتفرع عن الشارع العام وفي المبنى الذي يوجد فيه المكتب الذي كنا نقصد زيارته. فتوقفنا في المكتبة، واشترينا الكتاب، ثم دخلنا المبنى نفتش عن المصعد. واعترضنا شاب يحمل كلاشينكوف :

ـ مين بتريدو يا شباب ؟

فأخبرناه.

ـ تفضلوا. الطابق الرابع.

في الطابق الرابع كان المكتب مزدحماً بالناس. فجلسنا ننتظر المسؤول ونراقب الداخلين والخارجين. ومضى ما يقارب الساعة، ولم يحضر المسؤول، وقال لنا السكرتير معتذراً :

ـ أبو نافد تأخر اليوم، مش من عادته.

وكان يمسك بين أصابعه زهرة فل، يرفعها بين حين وآخر ويشتمها بعمق. وأخيراً وصل أبو نافد وعندما رآنا أخذنا بين ذراعيه بحرارة ودخلنا معه مباشرة إلى مكتبه.

لم تستغرق زيارتنا أكثر من نصف ساعة.

قال ياسر، عندما عدنا إلى الشارع وهو ينظر إلى ساعة يده :

ـ أبو أحمد سيلاقينا في الساعة الثالثة، ما رأيك بغداء في الغلاييني ؟ ما زال لدينا متسع من الوقت.

قلت عال. وركبنا سيارة تاكسي إلى الغلاييني، وجلسنا إلى طاولة تطل على البحر. وكان المطعم خالياً تقريباً، فجاء طلبنا بسرعة، سمك مقلي، وحمص وسلطة. لم نتمتع بوجبة كهذه منذ زيارتنا الأخيرة لصيدا.

كان اتفاقنا مع أحمد أن نلتقي أمام مدخل الجامعة الأمريكية. بعد أن انتهينا من الغذاء، أخذنا سيارة تاكسي إلى رأس بيروت، وعندما وصلنا طلعة المنارة قال ياسر :

ـ لا يزال لدينا شوية وقت، لنتمشى إلى الجامعة.

كان ياسر خريج الجامعة الأمريكية، وكثيراً ما حدثني عن حياته في بيروت أثناء دراسته. كانت هذه المرة الأولى التي أدخل فيها حرم الجامعة. دخلنا من بوابة جانبية وتوقفنا أمام مبنى قديم يتألف من ثلاثة طوابق، وأشار ياسر بيده قائلاً :

ـ كانت غرفتي هناك، عند الشباك الثاني بعد الشرفة. وفي هذا المبنى درسنا اللغة العربية، في إحدى الغرف الخلفية في الطابق الأرضي. كان الأستاذ يمنعنا من التثاوب، وإذا تثاءب أحد الطلاب طرده من الغرفة فوراً.

وسرنا في طريق يطل على ملعب كرة القدم والبحر من ورائه يمتد حتى الأفق. وكان الحر شديداً، فجلسنا على أحد المقاعد في ظل شجر السرو. وكان الهواء يهب من البحر لطيفاً ناعماً. وبعد برهة، قال ياسر :

ـ لنشرب سفن أب قبل أن يأتي أبو أحمد.

وقمنا إلى مبنى قريب حيث كان المطعم، وكراسي وموائد منتشرة تحت الأشجار، فجلسنا تحت شجرة صنوبر، وبيد كل منا قنينة سفن آب. كانت تجلس بالقرب منا أربع فتيات، يتحدثن ويضحكن بصوت مرتفع. وكلهن يرتدين الفساتين الصيفية الأنيقة، ويدخنّ السجائر الطويلة. قال ياسر : «حان الوقت. لنمش».

كان الشارع مقفراً أمام المدخل الرئيسي، وليس للروفر وأبو أحمد أي أثر. انتظرنا ما يقارب النصف ساعة، ثم رأينا السيارة آتية من بعيد في الشارع الخالي. قال ياسر وهو يفتح باب السيارة ويجلس إلى جانب أبو أحمد :

ـ وما هو عذرك هذه المرة ؟

ـ ليس عندي عذر. ضعت في الطريق..

وصمت أبو أحمد كأنه أخذ على خاطره. وكان ياسر يعرف طبعه، فيشاكسه أحياناً، لكنه دائماً يعود ويراضيه. أحمد يحب ياسر محبة عمياء. لا يذهب يسر في دورية إلا ويصر أحمد أن يكون معه فيها. إنه صديقه وحارسه الأمين.

بعد أن خرجت السيارة من بيروت، وبدأت تصعد طريق عالية، قال ياسر :

ـ أخبرنا يا أبو أحمد، مين شفت في بيروت ؟

ـ ما شفت حد..

ـ ما رحت عالبيت ؟

ـ خمس دقائق فقط..

ـ وكيف حال الوالدة والأخوات ؟

ـ عال. الوالدة بتشكي من أمراض، زعلانة لأني لا أزورها كفاية.

ـ هل تغذيت عندها ؟

بعد أن أوصل الأمانات إلى أصحابها، وآخذ البريد من المكاتب، وأشتري الأغراض، لا يبقى عندي من الوقت لأي شيء..

ـ إذاً، لم تتناول طعام الغذاء بعد ؟

ـ لا، ما أكلت شيء بعد.

ـ عندما نصل إلى شتورة نتوقف ونشتري سندويشا خصيصاً لك.

وتوقفنا بشتورة قليلاً ثم تابعنا سيرنا ولم نصل إبل السقي إلا عند غروب الشمس، وكانت تشع بعيوننا مباشرة ونحن نسير في البلدة الخالية. وعندما وصلنا إلى المفرق المؤدي إلى الخيام قال ياسر :

ـ دير بالك يا أبو أحمد...

دعس أحمد على البنزين وأخذت السيارة تنهب الأرض نهباً إلى أن وصلنا إلى الطريق الترابية ثم إلى المنعطف المؤدي إلى داخل البلدة.

أدون هذه السطور بعد أن نام الجميع.. لا أستطيع النوم.. صعدت إلى السطح، ووجدت الحارس يدخن، وعندما رآني حاول إخفاء سيجارته، فقد كان التدخين ممنوعاً فوق السطح بعد غياب الشمس، وتظاهرت بأني لم أره، وتحدثت معه قليلاً ثم نزلت ثانية إلى الغرفة وحاولت أن أنام.

أتوق للنوم، ليس لأني تعب، بل لأهرب من الأفكار التي تلاحقني في هذه الفترة من الليل. الفجر بات قريباً.. أشعر بحنين يصاحبه قلق غامض لا أعرف مصدره. حنين حلو ومر، كغصة في القلب، كذكرى بعيدة، كهبوط في مطب مفاجئ.

في الصباح، تحدثنا ونحن جلوساً بالقرب من مدفعنا الصّغير عن عكا، بلدة ياسر، والبلدة التي أحبها كثيراً. سألني وهو يتمدد على الأرض ويداه خلف رأسه :

ـ أتذكر محل أبو عادل.. محل ما كنا نشتري الشوكولاتة قبل الذهاب إلى السينما ؟

كيف لا أذكر أبو عادل ومحله، كيف لا أذكر سينما اللبابيدي، وقهوة حبيبو المجاورة لها.. عالم راح وبقي فقط الذين يذكرونه. قلت ذلك لياسر فقال : نعم أدري.

الثلاثاء في 19 نوفمبر

كيف نعالج هذا الواقع.. لقد قام جيل يهودي لا يعرف إلا فلسطين موطناً له مقابل جيلنا الذي لايعرف إلا فلسطين موطناً له. وفلسطين بالنسبة لكل من

الجيلين شيء مختلف تماماً. لقد تغيرت معالم فلسطين ولم نعد نجابه مهاجرين فقط، بل جيلاً يهودياً يدافع عن مسقط رأسه..

أعود وأقول في نفسي، فلسطيننا باقية.

فجأة نسمع هدير طائرتين نفاثتين آتيتين من جهة البحر على علو منخفض، ثم دوي انفجارات إلى الشرق، في منطقة العرقوب. لم تكن هذه الغارة الأولى في نفس المكان.

قال أحمد :

- إنهم يقصفون معسكر التدريب.

قال ياسر، وكان يراقب المشهد من منظاره الحربي :

- المعسكر نقل من مكانه منذ أيام.. إنهم يقصفون أرضاً خاوية..

وغابت الطائرتان فوق الجولان.

وفي المساء، في طريقنا إلى البيت سأل ياسر أحمد عن موعد مغادرة الروفر إلى بيروت في صباح اليوم التالي.

- لا يوجد سفرة إلى بيروت غداً، الروفر ذاهب إلى صيدا غداً، هل تريد شيئاً ؟

- أريد الذهاب إلى بيروت.

- كنا هناك منذ ثلاثة أيام.

أعرف ما يعاني منه ياسر. إنه يعاني ما يعاني منه كل مقاتل في الجبل، ولا شفاء مما يعانونه.

في البيت، صعدنا فوق السطح. كانت الشمس على وشك المغيب، ومياه البحر هادئة كالزيت. كان الهواء ساكناً والصمت يخيم على كل شيء، قال ياسر :

- يسألنا الناس متى ستسقطون طائرة. ونقول لهم، صراعنا طويل، وسيأتي يوم نسقط فيه طائرة، ونسقط فيه هيلوكوبتر، وندمر فيه دبابة، ونأسر فيه جنوداً إسرائيليين. أعرف أن انتصارنا هو في استمرارنا، في تحمل الضربات والرد عليها، لكن الناس تريد شيئاً الآن، شيئاً يؤكد للناس بأنه من الممكن التغلب على العدو، من الممكن ضربه، من الممكن إيلامه..

وصمت قليلاً، ثم قال :

- الموت هو النهاية البطيئة.

قرأ مخلص الكلمات الأخيرة في عتمة الغسق الذي خيم على الغرفة. لم يشعر بالظلمة تمتد وتواري ما حوله. وصل الآن إلى سمعه ضوضاء الشارع، فنظر إلى ساعته، وهو يكاد لا يرى عقاربها. كانت قد قاربت الثامنة وتذكر موعد العشاء الذي كان مرتبطاً به ذلك المساء. كان الجميع قد غادروا مكاتبهم فأطفأ الضوء الخارجي وأقفل الباب، ونزل إلى الشارع. وكان يعج بالناس والسيارات كالعادة في مثل هذا الوقت.

سار باتجاه شارع عبد العزيز، وتوقف ليعبر شارع الحمراء من بين السيارات، ورأى شابين يلصقان بعض الملصقات على حائط السينما، وقد تجمهر حولهما بعض المارة، فاقترب منهما، وقرأ بضوء السيارات : «شهداء الثورة الفلسطينية»، ومن بين رؤوس المارة شاهد صورة مفيد في لباسه المرقط وإلى جانبه ياسر وأبو أحمد في اللباس ذاته. كانوا يحملون في أيديهم بندقيات كلاشينكوف ويبتسمون إلى الكاميرا. جمد في مكانه لحظة، ثم استدار وأخذ يقطع الشارع دون أن يلتفت يمنة أو يسرة.